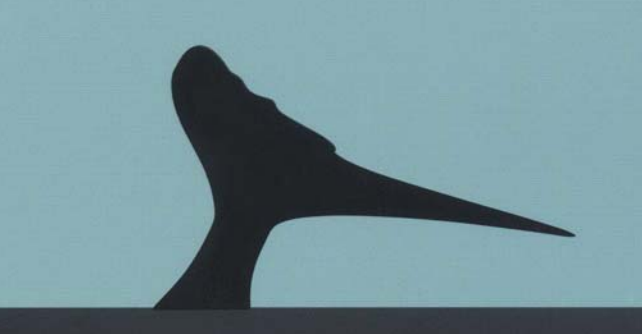




الحــــوت

التاريخ الطبيعي والثقافي

د. جو رومان

ترجمة: إيزميرالدا حميدان

سلسلة الحيوانات





التاريخ الطبيعي والثقافي

تأليف: د. جو رومان

ترجمة: إيزميرالدا حميدان

مراجعة: د. أحمد خريس

سلسلة الحيوانات

الحوت

التاريخ الطبيعي والثقافي

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م
حقوق الطبع محفوظة

QL737.C4 R6612 2012
Roman, Joe, 1963-
[Whale]
الحوت : التاريخ الطبيعي والثقافي / تأليف جو رومان؛ ترجمة إيزميرالدا حميدان؛ مراجعة أحمد خريس.-أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2012.
ص 283 ؛ 13.5×19 سم.
ترجمة كتاب: Whale
تدمك: 978-9948-01-681-6
1 - الحيتان. 2 - الحيتان-تاريخ.
أ-حميدان، إيزميرالدا. ب-خريس، أحمد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Whale by Joe Roman was first published by Reaktion Books in the Animal series, London, UK, 2006



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+
فاكس: 127 6433 2 971+



المحتويات



1 - الظهور الأول على سطح الماء

يقسم عمود من الضباب الأفق، ويتبعه صوت عميق غريب، كما لو أن المحيط قد خرج بنفسه ليستنشق الهواء. وتبدو أضواء غامضة وهي تلمع أسفل العاصفة الشبحية، مثل ظهر غامق أملس يغرق بين الأمواج، ويقطع ذيل على شكل رقم 7 (حرف v) السطح، ثم يختفي.

تسبب هذه الاندفاعات المائية التعجب والفضول وحتى الخوف، لدى شخص يقف على جرف شاطئيّ أو على شاطئ متغير، فقد كان المحيط مملكة وحش البحر والسمكة العظيمة أو الحوت. كان اليونانيون القدماء يسمون الحيوان الذي أوجدهم فالاينا phallaina، ولكن أصول الكلمة لا تزال غامضة – فهي ربما من جذر كلمة تعني النفخ أو البلع، أو لعلها من كلمة [1] phallus، التي تعني شيئاً كالسدادة. (وكما لاحظ الكاتب الكلاسيكي ويليام وايات: إن العلماء حائرون بشأن هذه الكلمة). وقد يكون أصل هذه الكلمة غامضاً، ولكن كلمة phallaina استمرت (balaena) في اللاتينية، واحتفظت بها اللغة الإسبانية على هيئة (ballena)، وفي الفرنسية (baleine)، وفي اللغة الإنكليزية هناك baleen ما يعرف بـ (البلين وهو عظم فك الحوت). وفي اللغة الإنجليزية القديمة كان الحوت يعرف باسم (hwael) وهي كلمة من أصول اسكندنافية، ولكن في الإنجليزية الحديثة، تطمح كلمة (whale)؛ أي الحوت إلى الاحتفاظ بالصدى الناعم للعاصفة. ولكن ذلك الوحش يُعرف أيضاً باسم سيتوس (قيطس) (Cetus) والسمكة الهائلة وتنين اللوثيان[2] ووحش الأعماق.

يمكن للناظر من حدود الشاطئ أن يحصل على لمحة لزعنفة

---

(١) كلمة ترمز لخصب الطبيعية على شكل عضو ذكري.

(٢) حوت اللوثيان (وحش بحري، أو تنين)، ورد في سفر أيوب.

ظهر الحوت، وهي ترتفع فوق سطح الماء مثل شراع أسود غامق، ولكن الملاح وحسب، هو الذي يجعل من مسالك المحيط منزله، وهو من يلتقي وجهاً لوجه مع هذا الوحش المنبثق من أعماق الماء. وبالنسبة لشاعر إنجليزي مجهول من القرن التاسع الميلادي، فإن البحر ينتمي إلى الحوت:

يقفز قلبي بين ضلوعي،
ويتجول عقلي مع الأمواج
فوق المجال الذي يسيطر الحوت عليه، ويتجول في كل مكان
عبر وجه الأرض، ويعود ثانية إليّ
تواقاً وغير راض؛ وصرخات الطائر الوحيد
لا تقاوم، تدفع القلب إلى طريق الحوت
عبر امتداد البحار[i].

عادة ما تكون الإشارة الأولى على وجود الحوت، هي زفيره الذي يمكن إيجاز وصفه بأنه عمود من الضباب الرقيق يُرى عبر المحيط. وبالنسبة لبعضهم، فإن هذه النفخة كانت مثل المدخنة، فالمسافرون العرب القدماء كانوا يرون المآذن أو أشرعة السفن البعيدة[ii]. وفي حال كان الرذاذ قريباً بما يكفي، تنتشر رائحة كريهة ورذاذ مخاطي مالح. ولقد عزّز زفير الحوت الخوف في قلوب البحارة الأوائل: إذ اعتقد النرويجيون أن الحيتان يمكنها إطلاق ما يكفي من الماء لإغراق قارب، في حين شعر آخرون بالخوف من استنشاق الهواء الرطب، معتقدين أنه يسبب الدوار ونوبات الإغماء، وربما الموت؛ وأن بضع قطيرات صغيرة من أنفاس الحوت السامة يمكنها ان تسبب طفحاً على جلد الإنسان[iii].

وحتى نياركوس[1] Nearchus؛ قائد أسطول الإسكندر الأكبر، كان يخشى سخط وحوش البحر هذه، وقد أمر طاقمه أن ينفخوا

(1) عاش في الفترة بين 300-360 ق.م

في الأبواق، ويضربوا الطبول بينما كانت سفنه تعبر بمحاذاة هذه الوحوش الهائلة، ولايكاد المجدفون يستطيعون التجديف، عندما تقترب الحيتان من السفن [iv]. وكان البحارة العرب يمضون أوقاتهم في حالة ترقب بحثاً عن سمكة هائلة، قيل إن طولها يتجاوز 90 متراً، وهي قادرة على ضرب السفينة بذيلها، وإغراقها [v].

وصف بليني الأكبر[1] كيف يقوم أضخم حيوان في خليج بسكاي[2] برفع نفسه مثل عمود هائل، ليعلو فوق أشرعة المراكب ويسبب اندفاع فيضان من الماء. وكان الإمبراطور الروماني كلاوديوس يأمر بالإمساك بالحوت الذي يظهر عند شواطئ أوستيا خلال عهده، وقد قيل إن الحوت استطاع إغراق قارب بزفيره، قبل أن يتمكنوا من قتله. كان الحوت بورفيروس (Porphyrios) أو الأرجواني، أحد أوائل الحيتان التي لقبت بأسماء، وقد أقلق راحة مدينة القسطنطينية خمسين عاماً، على الرغم من جميع محاولات الإمبراطور جوستينيان للإمساك به، وقد تم قتل الحوت عندما جنح على الشاطئ في أثناء مطاردته للدلافين كما يُزعم، وكان بطول 30 كوبيتاً[3] أو 15 متراً. ثم جنح حوت آخر على ضفاف التيبر[4] في

(1) ولد بلينيوس الأكبر عام 23 أو 24 ميلادي وقد اختلف في مكان ولادته إما كوم (Côme) أو فيرونا، وتوفي في 24 تموز 79 ميلادي في ستابيا (Stabies) خلال ثورة بركان الفيزوف (Vésuve).

(2) خليج بسكاي أو بحر الكرانتيك ويقع مقابل الشواطئ الأوروبية شمال شرق المحيط الأطلسي، وتطل عليه بعض المدن المهمة مثل مدينة سان سباستيان الإسبانية و مقاطعة الباسك موطن شعب الباسك و من هذا استقى الخليج اسمه. ويصب في الخليج العديد من أنهار أوروبا مثل باس ، سور ، أو ، دوردون وغيرها.

(3) وحدة قياس قديمة وتعادل 0.432 من المتر.

(4) نهر التيبر هو ثاني أطول نهر في إيطاليا، يبدأ في سلسلة جبال توسكان ويتدفق جنوبا لمسافة 405 كم، وفي نهايته يعبر مدينة روما قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط.

عهد سيبتموس سيفروس[1]، وتم صنع نموذج له من أجل عرض الوحوش البرية، وتمت قيادة 50 دباً إلى فمه. ونلاحظ أن الحيتان الكبيرة لا تظهر في الفن الروماني، ما عدا هذه العروض، ومع ذلك فإن الدلافين؛ أقاربها الأصغر حجماً، تحصد الإعجاب بكثرة، نظراً لسحرها، وسرعتها، وتظهر في كل مشهد بحري تقريباً، حتى إن الشاعر أوبيان عد هذه الحيتان، التي تماثل في حجمها الإنسان، أكثر المخلوقات شبهاً بالآلهة[vi].

ويظهر سيتوس (قيطس)؛ الوحش البحري، باكراً في الإنجيل، ليسكن البحار في اليوم الرابع: (وقال الله لتفض المياه بمخلوقات متحركة ذات نفس حي... فخلق الله الحيتان العظام وكل ذوات الأنفس الحية التي تتحرك التي فاضت بها المياه كأجناسها) (سفر التكوين 1، 20-21).

ولم يتم تمييز الحيتان عن المخلوقات البحرية الكبيرة الأخرى، حتى ظهور الترجمات الحديثة للإنجيل مثل نسخة الملك جيمس التي اقتبسنا منها في الأعلى. وعبر الكثير من التاريخ المسجل، لم يكن هناك الكثير من التمييز، في علم الكون (الكوزمولوجي)، بين وحش البحر والحيتانيات أو الأسماك الكبيرة. وربما يكون أفضل مثال على ذلك وارداً في العهد القديم، حيث يظهر الحوت في هيئة تنين اللوثيان، وفي قصة أيوب، يقول الرب للرجل المضهد أنه يتجاوز مقاييس البشر[vii]. وبينما يتحدث الرب من خلال الزوبعة فإنه يستخدم تنين اللوثيان كمثال:

«أيمكنك أن تصطاد اللوثيان باستخدام الخطاف؟ أو أن تمسك لسانه بخيط تلقيه الى الأسفل؟ أيمكنك أن تضع خطافاً في أنفه؟ أو تثقب فكه بمسلّة؟... من يستطيع أن يفتح أبواب وجهه التي تحيط

(١) لوشيوس سيبتموس سيفيروس Lucius Septimius Severus أو «سيفروس الأول». (11 نيسان145/ 146- 4 شباط 211)، هوأحد الأباطرة.

بها أسنانه المرعبة؟. إن حراشفه هي مصدر فخره، وهي تنغلق على بعضها بإحكام.. وعيناه مثل أجفان الصباح، وتخرج من فمه أشعة محرقة ويتناثر منها الشرر. ويخرج الدخان من منخره كما لو أنه يخرج من وعاء يغلي أو من مرجل.. ولا يوجد على وجه الأرض مثيله؛ من خُلق من دون خوف.

مثل الرب، لا يمكن للإنسان أن يقارن اللوثيان بنفسه أو حتى أن يفهمه، ورغم سماته الوحشية الملتوية، فإن اللوثيان أصبح مرادفاً للحيتانيات.

كانت أضلاع الحيتان وعظام فكها وكتفها، تعرض في الكنائس خلال العصور الوسطى، لتقدم أدلة محسوسة على وجود اللوثيان. وساعدت هذه hierozoika (الهيروزويكيا) – وهي أغراض من عالم الطبيعة تعد مقدسة نظراً لذكرها في الأناجيل – في تعزيز قوة الكنيسة والإقطاعيين المحليين[viii]، فوفقاً لمؤرخ صيد الحيتان كلاوس بارثيلميس، فإن مالك هذه الأغراض كان يملك العالم بين يديه. وربما احتوت قناطر الكنائس على بيوض النعام أو التماسيح المحنطة، ولكن كما كتب سبنسر في ملحمته الشعرية The Fairie Queene، لم يكن هناك شيء على وجه الأرض يمكن مقارنته بالحوت ووحوش البحر الأخرى:

«من أجل جميع من على الأرض الذين نخافهم
لسنا سوى حشرات أمام الأطفال الصغار الخائفين مع الجميع
بالمقارنة مع المخلوقات التي تضمها البحار في أعماقها»[ix]

وحتى الآن، فإن أكثر الحيتان شهرة في الإنجيل هو السمكة الكبيرة التي ابتلعت يونس عليه السلام، عندما أرسله الرب لينقذ مدينة نينوى، فلقد حاول يونس أن يهرب عن طريق البحر، فارّاً إلى بلاد طرسوس البحرية، فأرسل الرب ريحاً هائلة عبر المحيط، ولمنع خسارة السفينة ألقي بيونس في البحر، حيث كان الرب قد جهّز

سمكة عظيمة لتبتلع يونس، الذي بقي في جوفها ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وصلي يونس من الأعماق طلباً للغفران:

«المياه تحيط بي تماماً وتكاد تصل إلى روحي: وتُطبق الأعماق عليّ، والتفت الحشائش حول رأسي.. ولما غشيت روحي بداخلي تذكرت ربي: ورفعت صلواتي إليك، إلى معبدك المقدس.وتمت الاستجابة لصلوات يونس، ولفظته السمكة إلى الأرض الجافة، وتنفيذاً لأوامر الرب هذه المرة تابع يونس طريقه إلى نينوى، لينقذ تلك المدينة الطالحة، وفي معبد نينوى تحيي عظمة حوت ما كان قد أعلنه يونس».

وفي الترجمة اليونانية ابتلع الوحش البحري سيتوس (قيطس) يونس، الذي يمكن أن يكون حوتاً أو قرشاً أو حتى أخطبوطاً. وعلى



تمثل هذه اللوحة التي تعود إلى القرن السابع عشر قصة يونس، وهي منقوشة على جسم الحوت.



الطبعة الأولى من تفسير مارتن لوثر لكتاب يونس، إذ ساعدت ترجمة لوثر للعهد القديم في توطيد صورة السمكة الكبيرة كحوت.

أي حال، وكما ورد في العهد الجديد، فإن يونس قد أمضى في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال(x). وحسب ما أورده بارثيلميس، فقد كانت تفسيرات مارتن لوثر في عام 1526، والتي حددت السمكة الكبيرة على أنها حوت، هي ما وحد التفسيرات.

ومع ذلك لم تتمكن سلطة لوثر من إقناع علماء الدين الذين كانوا يشككون بإمكانية وجود الحيتان لقرون، هل باستطاعة الحيتان ابتلاع إنسان؟. كتب العالم اللاهوتي بول هوبت في عام 1907: إن حلق الحوت الصائب لا يمكن أن يسمح بمرور إنسان، ولكن حوت العنبر أو الحوت العظيم، يمتلك حلقاً كبيراً بما يكفي ليسمح بابتلاع إنسان(ix). وهناك أدلة قصصية تؤيد إمكانية حياة الإنسان في بطن قرش أو حوت: حتى إن بعض علماء اللاهوت قد اعتبروا أن السمكة الكبيرة هي قرش، مستخدمين قصة البحار، الذي سقط من على المركب في البحر المتوسط عام 1758 وابتلعه قرش، لدعم ادعائهم.

ثم أطلق قبطان السفينة النار على الوحش وأصابه بقذيفة مدفع، مما جعل القرش يلفظ البحار الذي تم إنقاذه وعانى من إصابات طفيفة. وفي عام 1891 رُوي أن حوتاً ابتلع رجلاً يدعى جيمس بارتلي قرب جزر فوكلاند، وعندما تم القبض على الحوت في اليوم التالي، أنقذه زملاؤه صيادو الحيتان الذين أيقظوه من غيبوبته وقد تطلب الأمر من بارتلي ثلاثة أشهر ليستعيد رشده[xii]، وليس مستغرباً أن المؤرخين البحريين دحضوا صحة هذه القصة.عندما يقع صائدو الحيتان بين فكي حوت ذي أسنان، فإنهم نادراً ما يهربون من دون إصابات، ولقد سجّل الكابتن إدموند جاردنر من نانتوكيت آثار لقائه مع حوت عنبر في المحيط الهادئ عام 1816:

«عندما أصبحت على ظهر القارب، وجدت أحد أسنانه وقد دخل إلى رأسي مخترقاً جمجمتي، وسناً آخر قد ثقب يدي، وآخر قد دخل في الجزء الأعلى من ذراعي اليمنى، ورابعاً قد انغرس في كتفي الأيمن.. وانكسر فكي وخمس من أسناني، ووجدت لساني مشقوقاً، وقد نفذ سن آخر في يدي اليسرى.. كان امراً مبشراً أني احتفظت بحواسي[xiii]».

شجع وجود مثل هذا الخطر انتشار القصص الخرافية، ففي إحدى روايات صيادي الحيتان، ابتلع تيمور توم وهو حوت عنبر رمادي، بولي سبراغو صياد الحيتان الذي يستخدم الرماح (الحراب) ويمتلك قوة كافية لرشق المعدن مباشرة من خلال الحوت، وقد جلس على كبد الحوت وساقاه تتمايلان على طريقة يورك، واستعمل سبراغو ضوء قنديل البحر، ليقرأ الكتابات على معدة الحوت: يونس 1683 ق.م. وبينما كان يقطع قرص التبغ ليسلي نفسه، لاحظ سبراغو أن تيمور توم لم يكن معتاداً على التبغ، واستطاع الهروب من خلال حشو معدته بالأوراق الملفوفة: وهاج الحوت وتلوى بطريقة مفزعة حقاً، وعندها أصبحت معدته نظيفة فجأة، بفعل ضربة مثل الزلزال.



جولة جون تابور، وهي لوحة مستوحاة من واحدة من الأساطير العديدة التي نشأت عن صيد الحيتان وهي مأخوذة من ج. روس بروان Etchings of a Whaling Cruise 1846.

وتم قذفي إلى الخارج مع ما يقارب حمولة عربة من الحبار الممضوغ الذي كان يتناثر على الأرض(xiv). وكما كان يقال، كلما كانت القصة أطول، كانت الفرصة أفضل في دفع النوم عن العيون النعسة للمكلفين بالمناوبة الليلية المتأخرة.

ولكن لماذا اختار الرب الحوت؟ اعتقد هوبت أن حوت العنبر العملاق ربما كان أسرع وسيلة نقل من يافا؛ المنفذ البحري للقدس، إلى الإسكندرونة (تقع الآن في شمال غرب سوريا)، على الطريق إلى نينوى. ويمكن لحوت العنبر ببساطة، أن يسبح من يافا إلى الإسكندرونة في ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، فالمسافة هي 300 ميل تقريباً فقط، ويمكن لحوت العنبر أن يسبح تحت سطح الماء مباشرة بمعدل 3 إلى 7 أميال في الساعة كقاعدة عامة. ولو أن حوت العنبر سبح سبعة أميال في الساعة، فينبغي أن يستريح أكثر من تسع ساعات في اليوم، ومع ذلك يمكنه أن يعبر المسافة من يافا الى الإسكندرونة في ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ أي: 72 ساعة، ولو أن يونس سافر براً أو على ظهر الحصان، كان سيلزمه أكثر من أسبوعين ليصل... إذ إن مشية أحصنة فلسطين رشيقة، لكنها تكاد لا تخب أبداً(xv).

ولكن القديس ميثوديوس، وهو مبشر من القرن التاسع، لم يأخذ

القصة بحرفيتها أو ربما عدها فكاهة، بل ربما اعتقد أن الحوت يرمز إلى الوقت، الذي لا يتوقف أبداً لكنه مستمر على الدوام. ولما ابتلع الحوت يونس، أذعن إلى الوقت بمعناه الأرضي، فكانت أيامه الثلاثة وكذلك لياليه التي أمضاها في بطن الحوت تمثل الماضي والحاضر والمستقبل(xvi). وبعد عبوره للزمن – أو الحياة – قام يونس ثانية، مثل المسيح في العهد الجديد، وأصبح الماضي والمستقبل فيما وراء الأرض خيالا، وبقي الحاضر والرب فقط.

وساهم حجم الحيتان الهائل في رعاية الأساطير. ووفقاً للنصوص الواردة في القرن الحادي عشر، فقد قرر القديس بريندان، وهو راهب إيرلندي ولد في عام 484 م، وأسس العديد من الأديرة والكنائس في إيرلندا، وسافر كثيراً عبر الجزر البريطانية وعلى طول ساحل بريتاني، قرر في أواخر حياته أن يقوم برحلة للبحث عن (Tir na nÓg)، التي تترجم على أنها أرض الميعاد، أو الجزر المسحورة، وبالنسبة لبعضهم فهي جنة عدن، كما أبحر مع سبعة عشر راهباً من أتباعه عبر البحار في زورق جلدي إيرلندي تقليدي، وهو زورق مصنوع من خشب الصفصاف وجلود الثيران المدبوغة، تاركين للرياح والتيارات البحرية – أو إرادة الرب – أن تحدد مسارهم.

وكانت من بين اكتشافاته جزيرة البراغيث وجزيرة الفئران وجزيرة النهار الدائم، واستُخدمت الجزيرة الأخيرة بالإضافة إلى تقارير عن عمود كريستالي ضخم في وسط البحر، كدليل على أن بريندان قد سافر نحو أقصى شمال وغرب إيرلندا – مع احتمال رسوه في أيسلندا وحتى في شمال أميركا. وعلى أي حال، فإن مؤرخ صيد الحيتان ستيوارت فرانك، يلحظ أن معظم الباحثين اعترفوا بزيارات بريندان إلى جزيرة أيونا[1] واسكتلندا، وربما إلى الشواطئ الغربية لإنجلترا وويلز وبريتاني(xvii) فقط. وبينما كانوا في البحر في

(1) جزيرة في اسكتلندا.

خلال بحث القديس بريندان عن الجزر المسحورة، توقف هو ورفاقه الرهبان لتلاوة القداس على جزيرة جرداء، وبعد أن قاموا بإشعال النار، استيقظت الجزيرة التي كانت في الحقيقة حوتاً ،ألقى الأخير بالرهبان إلى البحر.



أحد أعياد الفصح، رسا بريندان ورهبانه على جزيرة جرداء ليتلوا القداس، وبينما كان هو يصلي عند المذبح، قام الرهبان بإشعال نار، ليعدوا الفطور، فاهتزت الأرض من تحتهم.

وعندما وصلوا إلى قاربهم، كانت الجزيرة قد سبحت بعيداً، فقد كانت الجزيرة المخادعة حوتاً هائلاً يدعى جاسكونيوس، والذي جهد ليلاً ونهاراً ليضع ذيله في فمه، لكنه لضخامته لم يتمكن من ذلك[xviii]. واختفى الحوت في الأفق، وهو لا يزال يحمل بقايا النار المشتعلة، واستعاد الرهبان فيما بعد قدرهم والذي طاف حتى قرب شواطئ جنة الطيور، حيث أعلن طائر ناطق هناك أنه على بريندان وزملائه الرحالة زيارة الجزر نفسها، التي مروا بها خلال رحلتهم، وقدم الحوت جاسكونيوس ظهره للرهبان مرة أخرى ليتلوا القداس، لكنهم من يومها كانوا يأكلون وجباتهم باردة. وصادفوا عبر رحلتهم حيتانا طيبة مثل جاسكونيوس وأخرى سيئة، وعندما هوجم الرجال من قبل وحش بحري، على شكل قط بحري رهيب له عينان كبيرتان

وأنياب ترتفع فوق الأمواج، أتى حوت لنجدتهم وسحب قط البحر إلى أسفل البحر[xix]. وعند الحافة الغربية لرحلتهم تعرض الرهبان لمطاردة من قبل أحد الحيتانيات الضارية، الذي كان ينفخ الرغوة ويهدد بسحق قاربهم، واستجيبت صلوات بريندان، وتمثلت على هيئة وحش بحري تمكن من قتل الحوت بعد معركة طويلة، ولما وقع الحوت الميت في قبضة الرهبان في اليوم التالي، قام الرجال بتقطيع الجثة ليزودوا قاربهم باللحم.

وطالما ابتهل البحارة الروم الكاثوليك، وربما العديد من صيادي الحيتان مثل بريندان قبل الانطلاق في رحلتهم قائلين:

يا ملك الألغاز، هل عليَّ التخلي عن الراحة الرقيقة في منزلي؟ هل عليَّ أن أدير ظهري الى أرضي الأم، وأوجه وجهي نحو البحر؟...

هل عليَّ أن أترك آثار ركبتي على الشاطئ الرملي، كإشارة إلى صلاتي الأخيرة في أرضي الأم؟ ثم هل عليَّ أن أعاني من جميع أنواع الجراح التي يمكن للبحر أن يلحقها بي؟

هل عليَّ ان أصطحب زورقي الصغير عبر المحيط الواسع المتلألئ؟
يا ملك الجنة البهية، هل عليَّ الذهاب باختياري عبر البحر؟

أيها المسيح، هل ستساعدني على التغلب على الأمواج الثائرة[xx]؟

وبعد أربعة عشر قرناً من رحلته في المحيط الأطلسي – عندما احتاجت الحيتانيات أنفسها للتدخل – أصبح بريندان بفعل الولاء الشعبي، القديس راعي الحيتان.

وظهر الحوت، الذي في حجم الجزيرة، في ألف ليلة وليلة، خلال رحلات السندباد السبع، ففي رحلته الأولى، وبعد تبذيره لثروة والديه وبيعه لموجودات المنزل، انضم السندباد إلى مجموعة من البحارة ستغادر من الخليج العربي في الطريق إلى جزر الهند الشرقية.



رسا السندباد خلال رحلته الأولى على حوت نائم، مما أدى لخسارة جميع كنوزه.

وقد روى قائلاً: عندما هدأت الريح فجأة، وجدنا أنفسنا متوقفين قرب جزيرة صغيرة تشبه المرج الأخضر وترتفع قليلاً عن سطح الماء، كانت أشرعتنا مطوية وأعطى القبطان الإذن لجميع من يرغب بالنزول إلى اليابسة لبرهة وتسلية أنفسهم، وكنت بين هذه المجموعة ولكن بعد تجولنا لبعض الوقت أشعلنا ناراً وجلسنا لنستمتع بالطعام الذي جلبناه معنا، وجفلنا بفعل اهتزاز مفاجئ وعنيف للجزيرة، في حين أن هؤلاء الذين بقوا على ظهر السفينة، بدأوا بالصراخ وهم يدعوننا إلى الصعود إلى السفنية للنجاة بحياتنا، إذ إن ما اعتبرناه جزيرة لم يكن سوى ظهر حوت نائم، وألقى القريبون من القارب أنفسهم عليه، وقفز آخرون إلى البحر، ولكن قبل أن أتمكن من إنقاذ نفسي غطس الحوت فجأة إلى أعماق المحيط تاركاً إياي أتعلق بقطعة من الخشب كنا قد أحضرناها لنشعل منها نارنا.

وكالعادة، لم يكن من الممكن التغلب على سندباد، فاسترجع البضائع التي فقدها عندما التقى بالحوت، وبادلها مقابل الأحذية وخشب الألوس والكافور وجوزة الطيب، والقرنفل والبهار والزنجبيل، وعاد إلى عائلته في بغداد رجلاً ثرياً. هل كانت حكاية الحوت - الجزيرة

شكلاً من تطور التقارب الأدبي، أم أنهما فرعان من شجرة الحكايات في الثقافتين الإسلامية والأوروبية؟ اقتفت كورنيلا كاتلين كولتر حكاية الهبوط على سمكة إلى قسم من التلمود: (ظننا أنها جزيرة، ونزلنا وخبزنا وطبخنا عليها. وعندما أصبح ظهر السمكة حاراً انقلبت، ولولم تكن السفينة قريبة لكنا غرقنا). وتقترح كولتر أنه ربما يكون المصدر الأساسي للقصة موجوداً في الأدب الشعبي الهندو- فارسي[(xxi)].

بالنسبة لبريندان كان جاسكونيوس حوتاً ودوداً، يعود كل سنة ليقدم ظهره للرهبان، كجزيرة حوتية، ليقيموا عليها القداس، بينما يظهر الحوت في حكاية ألف ليلة وليلة كأحد العوائق بين السندباد والثروة، وولايته السعيدة. ويسيطر منظور السندباد نحو الحوت على أغلبية التاريخ المشترك بين الإنسان والحيتان.

ربما يغفو اللوثيان على زبد بحر النرويج، خلال قصيدة ميلتون Paradise Lost، حيث يبدو وكأنه أرض متحركة[(xxii)]. لكن فكرة الابتلاع في قصة يونس هي الفكرة التي تبعت الحيتان منذ القدم، وصولاً إلى القرن الواحد والعشرين. في العصور الوسطى، وبحسب ما قاله بورجيه، الذي نسب تأليف كتابين إلى الروح القدس: كان الإنجيل هو الأول بالطبع، وكان الثاني هو العالم بأكمله، (الذي تحمل مخلوقاته في نفسها التعاليم الأخلاقية)[(xxiii)] وكانت الكتب المجازية التي تتحدث عن الحيوانات، تُكتب لتشرح هذه التعاليم. وفي مجموعة المؤلفات الأنجلو ساكسونية، قد يظهر الحوت كرمز للشيطان، ويصبح فمه بمثابة أبواب الجحيم:

عندما يصيبه الجوع وهو في البحر
وتتمنى المخلوقات الشرسة الحصول على الطعام،
عندها يفتح حارس البحر فمه،
وتنفرج شفتاه: وتخرج رائحة طيبة
من داخله، وتنخدع بها جميع أنواع



يظهر اللوثيان في هذه اللوحة المحفورة على الخشب، التي تعود للفنان بيتر بروهيل الأكبر وهو يبتلع الملعونين، وقد حفرها بعد لوحة يوم القيامة The Last Judgement في عام 1588.

الأسماك في البحر
وتسبح برشاقة نحو مصدر الرائحة الطيبة
التي تصدر عنه. ثم تعبر معاً
في حشد لا يعرف القلق، حتى يصبح الفك الكبير
ممتلئاً تماماً، عندها فجأة
يغلق فكيه الرماديين حول
غنيمته، ولذا فهذه كلمة لكل إنسان،
يفكر معظم الوقت بحياته
بإهمال في هذا الوقت الزائل،
ويسمح لنفسه أن ينخدع بالرائحة الطيبة،
والرغبة المزيفة....
عندما يقوم الخبيث الماهر في ارتكاب الآثام،
بإحضار هؤلاء الذين اعتادوا مناداته

إلى ذلك المكان الآمن، إلى تلك الدوامة من النار الدافئة،
محملاً بالذنوب...
ثم يغلق فجأة الفكين الرماديين عليهم،
ومعاً يحكمان إغلاق أقوى أبواب الجحيم
وبعد موتهم، فهؤلاء الذين يصلون إلى هناك
لا يعودون ولا يهربون ولا يغادرون أبداً
تماماً مثل السمكة التي تسبح في البحر
لا يمكنها أبداً الهروب من قبضة الحوت[xxiv].

أصبحت القدرة على الإمساك بالحيتان في القرن العشرين، نوعاً من اختبار الشجاعة أو الابتكار. وفي كتاب روديارد كيبلينغ[1] (Just So Stories for Little Children) يقوم حوت بابتلاع بحار سفينة غارقة، وهو شخص ذو فطنة ودهاء لامحدودين، ويستخدم البحار طوفه ليبني حاجزاً في حلق الحوت، مما يمنع الحوت من استهلاك أي شيء عدا السمك الصغير جداً، وهذا هو السبب الذي يمنع الحيتان في أيامنا هذه من التهام الرجال أو الصبية أو الفتيات الصغيرات، كما يشرح كيبلينغ[xxv]. ينبغي أن نخبر والت ديزني بهذا، ففي قصة بينوكيو[2] تتحول الدمية إلى صبي حقيقي من خلال هروبها من بطن الحوت الشرير مونسترو.

ولعل ذروة موضوع الابتلاع، هو اللوثيان (وهو وحش بحري يرمز إلى الشر) عند توماس هوبز[3]، فهو يعتبر أن اللوثيان هو الإله الفاني، أو السلطة العليا التي تكمن جسارتها في المكافأة والعقاب،

---

(1) روديارد كبلنغ (1865 - 1936) كاتب وشاعر بريطاني ولد في الهند.

(2) اللعبة الخشبية التي تتحول إلى صبي حقيقي.

(3) توماس هوبز (5 نيسان 1588 – 4 كانون الأول 1679) كان عالم رياضيات وفيلسوف إنجليزي، ويعد أحد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا.

وتمثل الثروة والغنى مصدر قوتها، وهو الفتنة والمرض والحرب الأهلية والموت(xxvi)، وبالنسبة لجورج أورويل[1]، نحن جميعاً في داخل الحوت: ادخل إلى الحوت – أو بالأحرى، اعترف بوجودك داخله (لأنك كذلك، بالطبع). امنح نفسك تماما لصنيعة العالم. ويضيف أورويل (بالنسبة لهؤلاء الذين لم يحاربوه فإن بطن الحوت مكان يُحسد عليه، فهو رحم كبير بما يكفي لراشد. وأنت هناك في الظلام في مكان ذي حشايا يناسبك تماما، مع مسافات من دهن الحوت تحول بينك وبين الحقيقة وأنت قادر على الاحتفاظ بأقصى موقف ممكن من اللامبالاة، مهما يحدث(xxvii). وهو أمر ليس من السهل قوله من جورج بوشنير[2] إلى توم وايتز[3]، نحن نجد المعاناة في الكومنويلث:

جائعون في البطن
جائعون في بطن الحوت....
أخبرني فالأمر سيان لديّ،
لأنك لن تخرج من هنا حياً"(xxviii)

يشكل اختفاء الإنسان داخل بطن وحش – إن كان في هيئة جسد حيتانيات أو في الحالة المجازية – مكوناً رئيسياً في منظورنا نحو الحوت.

فإن كان حوتاً أو سيتوس (قيطس) أو لوثيان أو سمكة كبيرة – فمن الصعب تحديد متى تنتهي وحوش البحر وتبدأ الحيتان؛

---

(1) جوروج أورويل (25 حزيران 1906 – 21 كانون الثاني 1950) كاتب وروائي بريطاني، اسمه الحقيقي إريك آرثر بلير وجورج أورويل، هو الاسم المستعار الذي اشتهر به، ولد في قرية مونتهاري بولاية البنجاب الهندية.

(2) كارل جورج بوشنر (17 تشرين الأول 1813 – 19 شباك 1837) كاتب مسرحي وروائي ألماني.

(3) توماس آلان (توم) وايتز (7 كانون الأول 1949) ممثل ومغن ومؤلف أغان وملحن أميركي.

سيتوس، (قيطس)، كوكبة الحوت، من رسومات سيدني هال الملونة يدوياً، ليهوشافاط أسبين (A Familiar Treatise on Astronomy)، في عام 1825.

ولعل هذا هدف أحمق بعيد المنال، على اعتبار أن الكثير من التاريخ المسجل لم يميّز كونياً (كوزمولوجياً) بين الاثنين. وتشكل الرسوم الأوروبية عن الحيتان منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر ردهة مرايا للحيتانيات: فالعديد من الرسومات كانت عبارة عن انعكاسات للماضي – لم يتم التحقق منها بالملاحظة التجريبية. وقد دخلت صورة عرضية مأخوذة بدقة عن حوت جانح ضمن القواعد، ولكن الناس في العصور الوسطى وبدايات العصور الحديثة لم يحققوا في السبب: فقد فسروا معنى جنوح الحوت ضمن إطار الخطة الربانية للخلاص البشري – إذ غالباً ما يفسر ترك الحوت لمجاله المائي على أنه نذير شر أو علامة على غضب الرب[xxix].

قام أولاس مانغوس برسم كارتا مارينا Carta marina، وهي خريطة كبيرة لإسكندنافيا، وهي واحدة من أول الرسومات عن الحياة البحرية وأفضلها – وهي توضح الخط الرفيع بين الوحوش والحيتان. وطالما اعتبر مانغوس، وهو كبير أساقفة ومؤرخ إسكندنافي، مرجعاً في التاريخ الإسكندنافي، وبعد أن تم نشر خريطته البحرية في عام 1539، ظهرت الصور التي رسمها للحيتان تكراراً، ولعدة قرون. (ربما كانت



إحدى الصور اللافتة للنظر وهي تظهر سمكة تنفخ الماء، ولها مخالب، سبب خطأ في الترجمة بين اللغة السويدية واللاتينية، إذ أخطأ الكاهن في معنى كلمة Fin (زعنفة) وترجمها مخالب. واستمرت هذه الغلطة، إن كانت حقاً كذلك، حتى القرن التاسع عشر).

ساعد سيباستيان مونستير[1] في عمله المشهور Cosmographie Universelle في تصوير فكرة وجود الوحوش البحرية. في الأعلى إلى اليسار الصورة تبدو البراميل وهي تُقذف من على سطح المركب، فلقد كان يُعتقد أنها طريقة ناجحة لتشتيت انتباه الوحوش – وفي هذه الحالة فالوحش هو الحوت الذي ينفث من الماء – عن مهاجمة الزورق.

استعار الفيزيائي وعالم الطبيعة السويسري كونراد جينسير كثيراً من مانغوس في أثناء وضعه لكتابه Historiae animalium، الذي بدأ في تأليفه عام 1551، وهو واحد من الأعمال الأولى عن علم الحيوان الحديث. وعلى الرغم من كونه من مؤسسي علم الأحياء، إلا أنه كان شخصاً ساذجاً جداً، إذ تضمنت خلاصة كتابه، التي كان هدفها احتواء كل ما هو معروف عن كل الحيوانات، بما في ذلك المعلومات التي تمت ملاحظتها أو الإيحاء بها أو حتى تخيلها ببساطة – بحيث ساهمت في تقوية الاعتقاد بوجود الوحوش الأسطورية التي تنفخ الماء، التي عاشت في التاريخ المصور لقرون [XXX]. ومع ذلك ففي الطبعة الثانية من كتابه قام جينسير بتصوير واحدة من أوائل الصور المعروفة عن طريقة إزالة الدهن من الحوت. وغالباً لم تكن صورة الحوت الذي رسا على الشاطئ وله أربع حلمات على الجهة اليمنى وزوجان من فتحات إخراج الماء، مرسومة من وحي الواقع.

(1) سيباستيان كونستير (20 كانون الثاني 1488 – 26 أيار 1552) وهو رسام خرائط وعالم كونيات وباحث يهودي.

يعد كتاب Historiae Animalium لكونراد جينسير (8-1551) واحداً من الرسومات التوضيحية الأولى التي تضم الحيتان بين جنباتها. كان جينسير عالم طبيعة مهماً، رغم كونه ساذجاً، وبالإضافة إلى إحدى الرسومات الأولى عن عملية تقطيع الحوت، يظهر الرجال وهم يركضون على ظهر الحوت ويستخدمون البراميل والموسيقا لصد الهجوم.



Ist ein grosser Wallfisch/welchen die Einwohner der Insel Fare genannt Fischfresser/auß dem ungestümen Meer in den Sand hinauß geworffen/und mit einem grossen eysenen Hacken an das Land herauß gezogen/mit Achsen und Beilen zu Stücke hauen/und unter sich selber theilen.

Die vierdte.

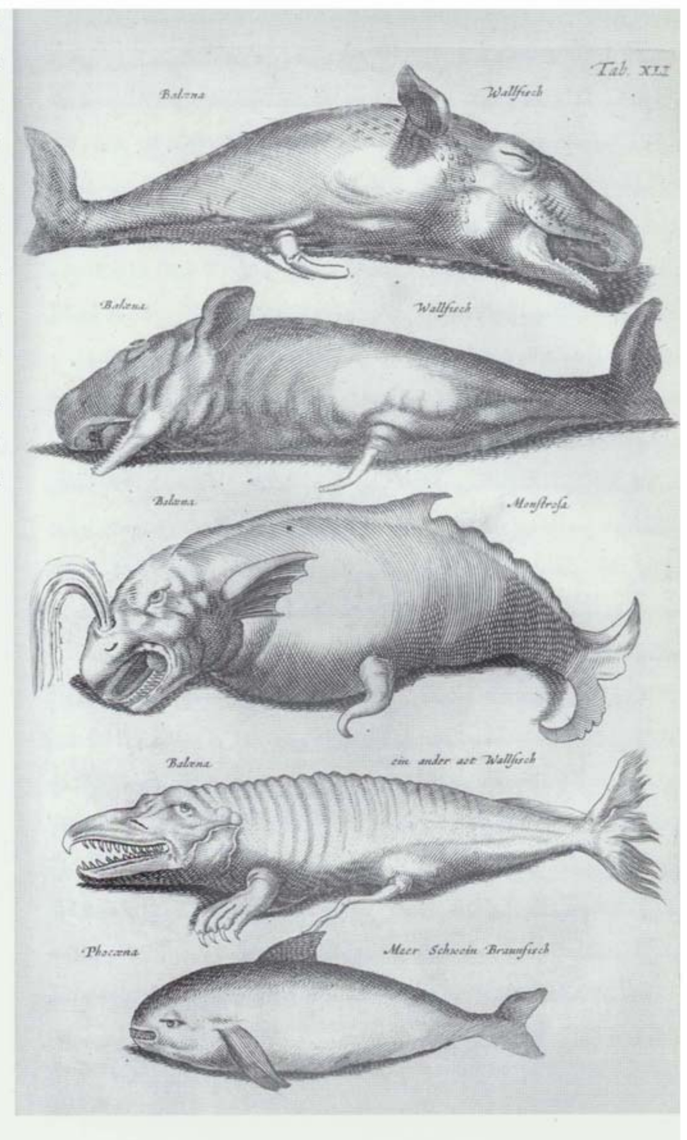


Ist ein Tüffelwall mit Sand überstreuet/auff welchem die Schiffleut / als auff einer kleinen Insel angelehnet kochen/das Schiff daran geheftet haben / also aber manchesmahl in grosse Gefahr kommen/wie oben erwehnet worden.

Die fünffte.



بحلول القرن السابع عشر أصبحت للصور التي تمثل الحوت الجانح على الشاطئ شعبية في كتب التاريخ الطبيعي، بالإضافة إلى صور الوحوش البحرية مثل (مونتروسا)، الذي يظهر في وسط هذه الصورة الهولندية المنقوشة التي تعود لعام 1660.



ولكن حتى عندما يكون الحوت متوافراً للرسم، إذ كان الفنان يرسم الحيوان الذي أمامه، فإن الصورة العالقة في ذهنه، هي ذيل السمكة العمودي الظهري والزعانف الحرشفية والأسنان المدببة، وغالباً ما تستخدم للإعلان عن الحوت في المعارض. كان الحوت رمزاً، وليس فقط حيواناً يمكن ملاحظته. يقول فرانك: (قامت الصور المشوهة والرسومات القائمة على المعلومات الخاطئة للحيتان بخلق أعداد كبيرة من الأنواع التي لا أساس لها من الصحة، والتي تراكمت واحداً فوق الآخر من دون أن يتم التحقق منها بالبراهين التجريبية)[xxxi].

ويلقي رسم من التاريخ الطبيعي يعود لعام 1660، الضوء الصادر عن لهيب زيت حوت نظيف، على مفهوم القرن السابع عشر للحيتان، وهو مزيج من الملاحظة والتكهنات والاشتقاق من مخلوقات العصور الوسطى، في ظل تأثير مانغوس. فاثنان من الحيتانيات هما حوتا عنبر منقولان من صور الحيتان الجانحة على طول الشاطئ الهولندي، وآخر هو خنزير بحر، في حين أن حوت البيلين والمونستروسا هما وحشا بحر، وقد عززت الرسومات المتكررة الاعتقاد بوجود مثل هذه المخلوقات[xxxii].

ماذا كان الحوت في الوقت الذي خرجت فيه أوروبا من العصور الوسطى؟ لا يهم كم هو وحش خيالي ومنفر، فقد كانت الفوهة التي تنفث الماء، والزفير الأبيض المالح، هما غالباً ما رمزا إلى الحيتانيات. ومثل الحوت نفسه، فإن زفيره يمكن إدراكه بحسب المقياس الجغرافي، ووفقاً لبورجيه، فإن الفلكي الألماني جون كيبلير تجادل مع الإنجليزي المتصوف روبرت فلود[1] حول أيهما توصل أولاً إلى معرفة المفهوم الذي يعد الأرض وحشاً حياً، (والتي تحب حيتانها التنفس، وتتغير بين النوم واليقظة، وتنتج المد والجزر في البحر)[xxxiii]، فقد كان أول لقاء بين الإنسان والحيتان على حافة المحيط المتلاطمة هذه.

---

(1) والمعروف أيضاً باسم Robertus de Fluctibus، 17 كانون الثاني 1574 – 8 أيلول 1637.

2 - ابتكار صيد الحيتان

يمكن أن يجد حوتٌ ما نفسه في المياه الضحلة، إما بسبب أنه تائه أو مريض أو جريح أو ربما لأنه عجوز فقط، إذ تكون معرفته الأولى بمفهوم الجذب نحو الشاطئ هي الأخيرة أيضاً. ففي المحيط ثمة بعض الحيتان تعوم بثبات وتطفو نحو السطح عندما تكون في حالة راحة؛ في حين أن أنواعاً أخرى تبقى محايدة فهي قادرة على الغوص والطفو بسهولة، ولكن لا يمكن لأي من الحيتانيات أن تعيش طويلاً على الأرض، فعندما ينهار جسدها الهائل على الصخور أو على الرمال، وينسحب المد (يحدث الجزر)، يظهر تل من اللحم على حافة الماء، له زعنفة سوداء تتجه نحو السماء.

لعل أوائل الناس الذين أكلوا لحم الحوت كانوا الكناسين (منظفي الفضلات)، الذين كانوا يزيلون دهن الحوت ولحمه وربما البلين (عظم فك الحوت) من الحيتان الجانحة، ولو كانوا محظوظين بما يكفي لوجدوا ما يكفي من اللحم لإطعام القرية بكاملها أو حتى للمتاجرة مع القبائل المجاورة.

استقطب طعم الحوت هذا الصيادين نحو البحر، في بحث عن الحيتانيات الطازجة، وظهر صيد الحيتان من دون أن يمنعه أحد على امتداد الكوكب. ففي قديم الزمان، كان صيد حيتان العنبر شائعاً في المحيط الهندي عند شواطئ زنجبار، وكانت الحيتان المناسبة تُقتل على طول أماكن تناسلها بالقرب من شواطئ فلوريدا، وتمت مطاردة الحوت المقوس الرأس على طول الشواطئ القطبية لسيبيريا؛ وقُتلت الحيتان ذات الزعنفة الظهرية والحيتان الحدباء والحيتان الرمادية برشقها بالسهام السامة في شمال المحيط الهادئ[xxxiv]. وتعود أوائل التصاوير عن الحيتان إلى الرسومات المنحوتة في العصر الحجري الحديث. ويحمل جدار من الحجر الرملي في كوريا الجنوبية صورة

تبدو في هذه الصورة
إحدى أوائل الرسومات
عن صيد الحيتان،
وهي رسومات جدارية
من العصر الحجري
الحديث في بانغو - دا
في كوريا الجنوبية،
وتُظهر حوتاً تم صيده
بالحراب من قبل
مجموعة من الرجال.

لقارب محمّل بالرجال وهو يجر حوتا، وربما يعود هذا الجدار إلى 6000 عام قبل الميلاد، وعُثر على صور محفورة للحيتان منذ عام 2000 ق.م، في صخور "رودوي" وهي جزيرة بالقرب من الشواطئ الشمالية للساحل النرويجي.

وعلى الرغم من أن التقنيات الأولى للإمساك بالحيتان تضمنت استخدام الرماح الشائكة ونصب الأفخاخ في الخلجان، فقد كان تطوير الحربة أو الحربون هو الذي مكّن البشر من استغلال هذه الحيوانات المائية الضخمة، ويعود أقدم هذه الرماح الشائكة إلى 40.000 عام، في شرق إفريقيا، حيث كان الناس معتادين على صيد فرس النهر[xxxv]. وعلى عكس السهم أو الرمح فإن رأس الحربون مصمم ليبقى داخل الجرح، مما يسمح بجر الطريدة بالحبل، وهو أساسي لصيد الحيوانات في الأبعاد الثلاثة للمحيط، حيث يكون الغطس أو الثبات في المكان هو رد فعل الحوت على هجوم وهو على السطح ويسمح رمح له قدرة ثبات عالية، وفي بعض الأحيان له رأس متحرك، للحربون بالصمود على حوت يغطس[xxxvi]. والحربون سلاح جذاب بالنسبة للصيادين لأنه لا يتطلب سوى القليل من القوة العاملة لتشغيله في الطرف الآخر من الحبل، ويمكن استخدام طوف

أو مرساة خشبية أو حتى قارب الصيادين لإنهاك الحوت واللحاق به حتى يموت.

وفي الشمال المكسو بالجليد، قام الحوت المقوّس الرأس (بيلينا ميستسيتوس، Balaena mysticetus) مع طبقة عازلة من الدهن تصل إلى سماكة 50 سم، وبرأس كبير بما يكفي ليندفع خلال الجليد الصلب، بتوفير معيشة الحضارات الأولى التي عاشت على صيد الحيتان، وقد يكون الحوت الأزرق هو أضخم حيوان على الكوكب، ولكن الحوت المقوّس الرأس يمتلك أكبر فم – بصفائح من البيلين بعرض 3 أمتار ولسان بطول 5 أمتار وعرض 3 أمتار، ولكن على الرغم من حلقومه الهائل فإنه يتغذى غالباً على مجدافيات الأرجل[1]، التي تتسع ملعقة شاي للآلاف من تلك القشريات الصغيرة.

تعد الحيتان المقوّسة الرأس من بين أطول الحيوانات عمراً؛ واستقر نالواتالك، وهو حوت أبيض الذيل توضع بالقرب من جزيرة بافين[2] أكثر من مئة عام، وفي عام 1995 عثرت مجموعة من صيادي الحيتان الإنيوبيت (Iñupiat) من واينرايت في ألاسكا، على حدي حربون حجريين في دهن حوت كانوا يقومون بتقطيعه، وكانت الحراب الحجرية قد خرجت من الاستخدام منذ أكثر من قرن، ولم تستخدم منذ أن أحضر صيادو الحيتان التجاريون الأدوات المعدنية إلى الدائرة القطبية وباعوها إلى السكان الأصليين. وتعد الحيتان المقوسة الرأس أيضاً من بين أبطأ الكائنات في الوصول إلى مرحلة

---

(1) هي مجموعة من الكائنات الصغيرة التي تنتمي إلى شعبة القشريات، تنتشر في المحيطات والمياه العذبة، وتؤلف المصدر الأكبر للبروتين فيها. وتعد بعض أنواعها من العوالق (البلانكتونات) التي تعيش في الطبقات العلوية من المسطحات المائية، كما تعيش بعض أنواعها في المناطق القريبة من الحيود المرجانية.

(2) تقع الجزيرة ضمن محيط الدائرة القطبية الشمالية.وهي أكبر جزيرة تابعة لكندا وخامس أكبر جزيرة في العالم. إجمالي مساحة بافين يبلغ 507،451 كم2. وقد سميت تبعا لمكتشفها البريطاني وليام بافين.

توضح هذه الصورة رؤوس رماح الحربون الأولى التي غالباً ما كانت تصنع من العظام في المحيط الهادي الشمالي.

البلوغ، فلا تصل الإناث إلى النضج الجنسي حتى أواخر المراهقة أو حتى منتصف العشرينيات (في ذلك العمر تكون الأنثى التقليدية من الأنويت ترعى طفلها الثالث)[xxxvii]. وقد استهدف الصيادون الأوائل هذه الحيوانات غير البالغة، إذ إن 97٪ من الحيتان المقوسة الرأس، التي اكتشفت عظامها في ركام جزيرة سمرسيت[1]، وهي الآن جزء من إقليم نونافوت[2] في القسم الكندي من الدائرة القطبية، تعود لحيتان غير بالغة لا يتجاوز طولها 10 أمتار، وغالباً ما يتم العثور على الجماجم الصغيرة والفك السفلي لصغار الحيتان المقوسة الرأس في خرائب ألاسكا، ومع ذلك فإن استطاع حوت

(1) جزيرة كبيرة من الأرخبيل القطبي الكندي.

(2) يقع في الشمال الشرقي لكندا في جزيرة بافين، عاصمته كاليوت.

شاب الوصول إلى مرحلة البلوغ، فيمكنه ببساطة أن يعيش أكثر من الصياد الذي حاول قتله وهو شاب، ثم سيدفن ابنه وحفيده كذلك.

بالنسبة للصيادين في الدائرة القطبية، فإن جميع الثدييات البحرية تأتي من الجنوب، حيث تعود أرواح الحيتان التي قتلت لتولد من جديد [xxxviii]، ويعكس الفهم الحالي لهجرة الحيتان المقوسة الرأس هذا الاعتقاد القديم؛ فالحيتان المقوسة الرأس تسافر جنوباً في الشتاء، ولا تبقى بعيدة أبداً عن المنطقة المتجمدة الهامشية، وتولد الصغار خلال هذه الهجرة الربيعية في الوقت الذي تتحرك فيه الحيتان خلال ممر طويل في الجليد القطبي، عبر التصدعات والفراغات بين الجليد (مناطق من المحيط تبقى مفتوحة خلال الشتاء) وآثار الشواطئ، إلى بحار بيوفورت[1] وتشوكشي[2].

تقع سيدنا Sedna؛ إلهة البحر والثدييات البحرية، في قلب العلاقة بين الإنويت والحيتان والفقمة وحيوان الفظ، (لايزال استخدام مصطلح انويت أو الاسكيمو كتسمية للسكان الأصليين في مناطق شوكوتكا وشمال ألاسكا وكندا وجرينلاند خاضعاً للجدل)، (وقد اتبعت أسلوب المختصين بمنطقة الدائرة القطبية في موسوعة الثدييات البحرية Encyclopedia of Marine Mammals واستخدمت مصطلح إنويت لوصف هذه الثقافات). كانت سيدنا Sedna قوة طبيعية أساسية على امتداد الدائرة القطبية، وكانت تعرف أيضاً بأسماء أخرى مثل: نولياجوك Nuliajuk وتعني الزوجة المسكينة، وآرنا كابفالوكا Arna kapfaluk وتعني المرأة الضخمة، وتاكاناباك سالوكي Takanapak saluk وتعني الشيء المخيف في أسفلها. وفي إحدى الروايات عن قصتها والمدونة في جزيرة بافين

(1) جزء من المحيط المتجمد الشمالي يقع غرب الجزر القطبية الكندية.

(2) جزء من المحيط المتجمد الشمالي.

في عام 1888، تتم تربية سيدنا Sedna من قبل أبيها على شاطئ منعزل، وهي جميلة وفخورة، وقد رفضت جميع من خطبها من شبان الإنويت. وفي أحد الأيام يغريها طير بحري بأن ترافقه إلى أرض الطيور بقوله: (سيحضر لك رفاقي؛ طيور الفلمار، كل ما يتمناه قلبك، وستكون ثيابك من ريشهم وسيكون مصباحك مليئاً بالزيت وقدرك مليئاً باللحم دائماً).

وتوافق سيدنا Sedna لكنها تكتشف بعد رحلة طويلة وشاقة أنه قد تم خداعها، وأن منزلها الجديد مغطى بجلود أسماك متباعدة، وسريرها عبارة عن جلد فظّ قاس. وتندم على رفضها السابق لشبان الإنويت وتنادي على أبيها: (تعالَ يا أبي وخذني إلى المنزل. آجاAja وبعد مرور عام، أتى الأب لزيارة ابنته سيدنا Sedna.

وحيته ابنته بسعادة وتوسلت إليه أن يعيدها إلى المنزل، وبعد أن سمع الأب بالظلم الذي حل بابنته، صمم على الانتقام، فقتل طائر الفلمار، وأخذ سيدنا Sedna إلى قاربه. وبسرعة غادرا البلاد التي جلبت الكثير من الألم لها. وعندما عادت طيور الفلمار الأخرى إلى المنزل، ووجدت رفيقها ميتاً وزوجته قد اختفت، طاروا جميعاً إلى البعيد بحثاً عن الفارين، وكانوا حزينين جداً لموت رفيقهم المسكين مقتولاً واستمروا في النحيب والبكاء حتى يومنا هذا.

وبعد طيرانها لمسافة قصيرة رأت الطيور القارب، وأثارت عاصفة كبيرة وارتفع البحر في أمواج هائلة مهدداً الثنائي بالهلاك، وفي هذا الخطر الداهم قرر الأب أن يقدم سيدنا Sedna للطيور، فألقاها من على القارب، لكنها تعلقت بحافة القارب بقبضة محكمة، عندها قام الأب القاسي باستلال سكين وقطع المفاصل الأولى من أصابعها وبسقوطها إلى البحر تحولت إلى حيتان، وتحولت الأظافر إلى أفواه للحيتان، وتمسكت سيدنا بالقارب بشدة أكثر، ووقعت مفاصل أصابعها الثانية تحت رحمة السكين الحادة وسقطت في البحر لتسبح

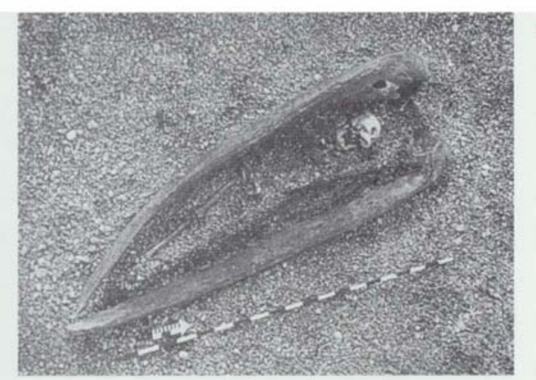


صورة تبين منزلاً من عظام الحيتان في جزيرة سمرسيت بإقليم نونافوت في حوالي عام 800 ميلادي، حيث قام سكان ثول Thule[1] بالتوسع في صيد الحيتان المقوسة الرأس نحو المياه المفتوحة، وكانوا يستهلكون الدهن واللحم ويعيشون داخل الحوت في بيوت مبنية من أضلاعه وعظام فكه السفلي.

بعيداً على شكل فقمات، وعندما قطع الأب بقية أجزاء أصابعها تحولت إلى فقمات أرضية. وفي ذلك الوقت هدأت العاصفة، فقد ظنت طيور الفلمار أن سيدنا Sedna قد غرقت وعندها سمح الأب لها بالصعود إلى القارب ثانية، ولكن منذ ذلك الوقت نمت لديها كراهية قاتلة له، وأقسمت على أن تنتقم منه انتقاماً مراً. وبعد أن وصلا إلى الشاطئ استدعت كلابها وسمحت لها بأن تقضم يدي والدها وقدميه وهو نائم، وعقب ذلك لعن الأب نفسه وابنته والكلاب التي قضمته وعندها انفتحت الأرض وابتلعت الكوخ والأب والابنة والكلاب[xxxix].

ومن المفهوم أن سيدنا Sedna كانت مُهابة ومبجلة، وفي أوقات الشدة كان الشامان يقومون بزيارتها، ويمشطون شعرها الطويل لاسترضائها، وعندما سأل المستكشف الدانمركي كنود راسموسين أحد الإنويت إن كان يؤمن حقاً بنولياجوك Nuliajuk أو سيدنا Sedna، أجابه الصياد: (نحن لا نؤمن، نحن نخاف فقط، وأكثر ما نخافه هو نولياجوك Nuliajuk [xl]).

(1) مدينة في شمال غرب غرينلاند.



يبدو في هذه الصورة قبر لأحد صيادي الحيتان من الإنويت، وهو مشكل من عظام فك الحوت على جزيرة القديس لورانس في كندا، حوالي عام 850 ميلادي.

توضح الأدلة الأثرية أن الحضارات التي عاشت على صيد الحيتان، نهضت منذ حوالي 2000 عام، ومضت على طول شواطئ بحري بيرنغ وشوكوشي، وبدأت حضارة بيرنيك Birnik بصيد الحيتان حوالي عام 400 ميلادي، لكن حضارة ثول Thule، التي نشأت في شمال ألاسكا حوالي عام 800 ميلادي، هي التي توسعت في صيد الحيتان نحو المياه المفتوحة، وأصبحت حضارتهم هي الحضارة السائدة في الدائرة القطبية حيث كانوا يأكلون الدهن ويعيشون داخل الحوت، فقد استعملوا الأضلاع وعظام الفك لبناء المنازل، وامتدت حضارتهم نحو بحر بيرنغ وشرقاً نحو غرينلاند، بينما كانوا يتبعون مسار هجرة الحيتان المقوسة الرأس.

كبر حجم المجتمعات وأصبحت أكثر عدائية باعتمادها على صيد الحيتان كمصدر للطعام، إذ إن صيد الحيتان جاء مع الحروب، فقدم تنظيم طاقم صيد الحيتان وبنيته الإطار الذي ازدهرت فيه الحروب بين المجتمعات[xli]. وارتفعت مكانة صيادي الحيتان المحاربين الجريئين في دروعهم المصنوعة من عاج أسنان حيوانات الفظّ وجلود الفقمة، وعلى الرغم من أن الحضارات القديمة في بحر بيرنغ لم تعبأ ببناء القبور، فإن صيادي الحيتان كانوا يدفنون في

قبور من عظام الحيتان، حيث يتم استخدام عظام الفك والجماجم لتشكيل اللحد، وربما لحماية صياد الحيتان خلال رحلته بعد الموت، فيما يبدو كجنازة تنطلق من فكرة الابتلاع.

غيّر صيد الثول Thule للحيتان منطقة الشمال بشكل دائم، فالعديد من طقوس الحضارات وتقنيات الصيد استمرت في الدائرة القطبية وشمال غرب المحيط الهادئ لألف سنة، ولا نزال نكتشف التأثيرات البيئية لهذا الصيد، ففي عام 2004 عثرت عالمة الجيولوجيا الكندية ماريان دوغلاس وزملاؤها على أدلة تفيد أن المغذيات الغنية بمنتجات من صيد الحيتان أطلقت في بركة مياه عذبة قرب مستوطنة عمرها 800 عام. ولم يؤثر صيد الحيتان المقوسة الرأس على تلك البرك منذ حوالي 1000عام فقط، ولكن الطحالب النامية لا تزال واضحة اليوم، بعد مرور 400 عام على هجر المستوطنة[xlii].

اعتمد صيادو الحيتان على الموارد المحلية أو التجارة لصنع أدواتهم، ففي شمال غرب المحيط الهادي كان رأس الحربون يصنع عادة من قرن ظبي ويثبت على القضيب بواسطة وتر مأخوذ من أسد البحر، وكان صيادو الحيتان يلصقون أنصالاً من قشور المحار على الرماح، باستخدام صمغ الراتنج[xliii]. وفي الدائرة القطبية حيث تندر الأشجار، كانت قضبان الحربون تصنع من الخشب الذي تحمله الأمواج إلى الشاطئ أو الذي تمت المتاجرة به على الساحل، وكانت مثانات كركدن البحر وحيوانات الفظ والفقمات تستخدم كعوامات للحربون، وفي بعض الأحيان كان يتم استخدام الفقمة بكاملها كمرساة، بعد أن يتم سلخها عبر الفم وخياطة جميع الفتحات والجروح فيها وإغلاقها، وتنفخ باستخدام أنبوب عظمي لتشكل كل فقمة حملاً يزن حوالي 100 كغ، يتسبب في إنهاك الحوت ويقلل فرصته في الهرب.

وعند الاقتراب من حوت مقوس الرأس يقوم القبطان بتقييم

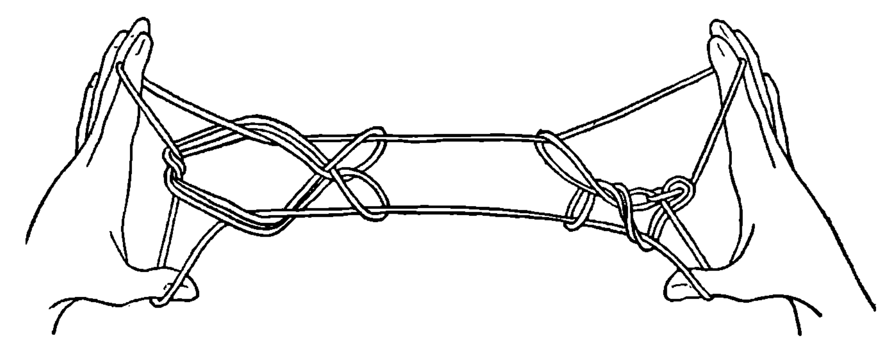
مزاج الحوت، وفي نانوفوت تبدو فتحات الحوت التنفسية للحيتان المسالمة بشكل مسطح على سطح الماء في حين أن فتحات التنفس للحيتان العدائية ترتفع إلى حد ما، ويعد من الخطر الاقتراب من مثل هذه الحيتان، ويتم تجنب الحيتان النائمة أيضاً، إذ إن ضربة من أحد طرفي ذيل الحوت عندما يستيقظ يمكن أن تؤذي الصياد، وإذا كان صوت زفير الحوت يبدو مثل صوت تكسر الجليد، فهذا يعد تحذيراً للطاقم الذي سيقوم بالتخلي عن المطاردة(xliv).

يعد الحوت مصدراً أساسيا للمعيشة في محيط مضيق بيرنغ، فالجلد غالباً ما يؤكل نيئاً مثل ماكتاك maqtaq، وهو غني بفيتامين سي الذي يصعب مصادفته بسبب ليالي الشمال الطويلة. ويوفر اللحم البروتينات، ويُستهلك زيت الحوت والفقمة أيضاً على امتداد المنطقة. وقد كتب القبطان جورج فانكوفر في يومياته في آب 1793، بينما كان يزور قوم تلينغيت[1] في شمال غرب المحيط الهادئ:

بقي الزعماء على متن قواربهم خلال القسم الأكبر من الضحى وأصبحوا اجتماعيين جداً.. كان الخبز والدبس أعظم متعة يمكننا أن نقدمها لهؤلاء القوم. وأكل الزعماء بشهية منها ووزعوا بعضاً منها على أصدقائهم المقربين في زورق الكانو بجانبهم. وفي مقابل هذه المأدبة اللذيذة، فقد عانوا الكثير من الألم لينصحونا ببعض من زيت الحوت لديهم، والذي كانت رائحته كريهة بشكل لا يحتمل، وتم إحضاره إلى القمرة في مثانة، ومنها سكب الزعيم بحذر شديد ملء ملعقة شاي، واستفاض في إطراء ميزاتها السامية، وأعطانا الانطباع لنفهم بأنها طعام شهي يعادل الدبس الذي أحضرناه، وقد استطعت الاعتذار بصعوبة شديدة عن المشاركة في وجبتهم المثيرة للغثيان، التي بدا أنهم يستمتعون بها إلى أقصى حد، وأنهوها

---

(1) مجموعة من الهنود الحمر على الساحل الشمالي الغربي يسكنون الجزر على الشواطئ الجنوبية لولاية ألاسكا في الولايات المتحدة الأميركية.



باحتساء كاس كبير من الرّم وهي رفاهية لم يبد انها غريبة عنهم على الإطلاق[xlv].

يصبح المجتمع غنياً فجأة بعد قتل الحوت وتقول ستيفاني باين: (الثروة تنجب المتعة والوقت لبناء وتشذيب رؤوس الحربون المصنوعة من مختلف المواد والقياسات، بعضها لصيد الحيتان وبعضها الآخر للفقمات، وجميع أنواع الأدوات الصغيرة، مثل محاور الخيوط وسدادات العوامات، ومجارف الثلج والأمشاط والنظارات الواقية)[xlvi]. وكانت شرائح البيلين الطويلة تحوّل إلى شرائط، وعظام فك وأضلاع الحوت تستخدم كحاملات للمزالق[xlvii]. وكانت البيوت تُبنى من عظام الحوت، ففي سيبيريا شكلت عظام الأضلاع أقواساً فوق حائط حجري، في حين يدعم عظم الفك الطويل والثقيل وزن هذه البنية، وكانت جلود حيوان الفظّ تلقى فوق العظام وتثبت على فقرات ظهر الحوت[xlviii]. وكان يمكن لأفراد قبيلة الإنويت أن يمضوا الشتاء وهم يمتطون الحيتان.

كانت لزوارق الكياك الأولى التي تعرف باسم بايداركاس baidarkas في روسيا هياكل من عظام الحيتان مغطاة بجلود الفقمة، وبالنسبة لركاب زوارق الكياك الحديثين والمعتادين على

كانت الأشكال التي تصنع من الخيوط عند الأسكيمو تستخدم لالتقاط أشعة الشمس قبل أن تختفي لقدوم الشتاء. والشكل الذي يظهر في هذه الصورة يمثل حوتاً جانحاً وثعلباً جائعاً، وعندما يتم تحريك الإبهام والسبابة يُطرد الثعلب بعيداً.

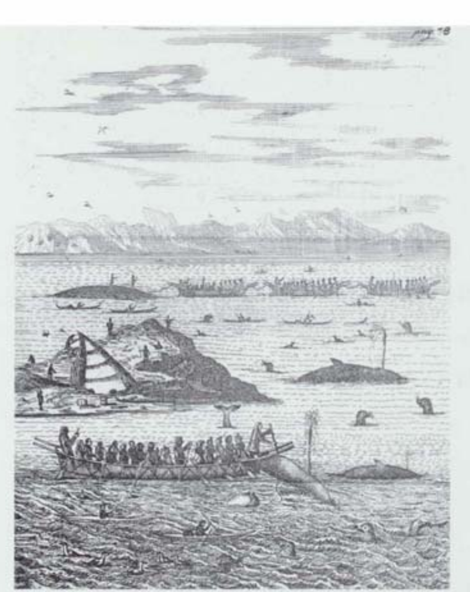
الهياكل الصلبة، فإن المرونة الناتجة عن الجلد قد تبدو غير مستقرة في البداية، ووصف جوزيف لوبيشير مرونة الصيد في قارب «حي» قائلاً:

«أعتقد أن محاولة الزحف داخل عقل معلم بناء قارب الكياك baidarkas وروحه، أمر تنويري. فكيف كان يرى ويشعر بمهمته؟ إن جميع البنائين يولّدون عاجلاً أم آجلا، مثالاً أو تصوراً، أنموذجاً عما يكدون من أجله بهدف مساعدة العمل. ولقد علق دايسون أن (قارب الكياك baidarkas المصنوع من الخشب المقذوف على الشاطئ، وعظام الحوت وجلود أسد البحر، كانوا جميعاً مخلوقاً بحرياً بالكامل).. وبوضعه للحيتان وأسود الأمواج والبحر وأحصنة البحر وثعالبه في أمثلته، سعى لمحاكاة ميزاتهم في المركب العائم. فهذه المخلوقات الحية في البحر الحي تشير إلى مركب حي، وهذا المركب يتنفس الهواء شهيقاً وزفيراً من الفجوة بين المجداف والجلد في الوقت الذي تعمل فيه الأضلاع داخل أمواج البحر وعلى ذراها. مركب حي يلاطف جلده الأمواج[xlix]».

غيّر صيد الحيتان المقوسة الرأس والحيتان الرمادية، المجتمعات على امتداد الدائرة القطبية وشمال المحيط الهادي، وبوجود مورد ثابت للطعام، قامت قرىً دائمة وازدهرت[l]. ومنح التعاون في الصيد الأفضلية للمجموعات الأكبر، وكان صيادو الحيتان المتمرسون في تقنيات وأساليب الصيد والسحر الزائف المطلوب لاجتذاب الحيتان، مبجلين وجزءاً من مراتب الصفوة في العديد من المجموعات، كما ازدهرت شبكة تجارية بين المستوطنات.

عندما وصل القبطان جيمس كوك إلى شمال غرب المحيط الهادئ في الثمانينيات من القرن الثامن عشر، لاحظ أن أسلوب صيد الحوت بكامله تم وضعه على القبعات التي يرتديها زعماء صيد

صورة تعود لأوائل القرن الثامن عشر تظهر الصيد من أجل الطعام على شواطئ غرينلاند رسمها المبشر النرويجي هانز إيجيد.



الحيتان، وهي قبعات تمت حياكتها من قبل هنود نووتكا الساحليين المعروفين الآن باسم تو - شاه - نولث من جزيرة فانكوفر، حيث كانت القبعات تصنع من جذور شجرة الراتنج والفراء، وارتداء مثل هذه القبعة يؤكد مكانة زعيم الصيد، ويبقيه جافاً، في الوقت الذي يساعد فيه على إقامة الاتصال مع عالم الحيوانات. وبعد بضعة عقود، دُهش مريويذر لويس وويليام كلارك بالقبعات البصلية الشكل ذاتها، التي يرتديها الزعماء المحليون، والتي شاهداها عندما سافرا على طول نهر كولومبيا. وقد كانت هذه القبعات تحمل تمثيلاً باهتاً لقوارب الكانو، والحيتان، ورماح الحربون تضربها. إذ يقدم وجود هذه القبعات البحرية وارتداؤها في أماكن بعيدة عن البحر دليلاً على وجود شبكة تجارية، وتبادل للهدايا بين القبائل وفي الزواج وعند الغزوات [li].

تقترح عالمة الإنسان الأميركية مارجريت لانتيس في دراستها حول



طقوس صيد الحيتان لدى هنود نو – شاه – نولث، ويظهر هندي نووتكا في هذه الصورة وهو يقوم بحمام طقسي قبل صيد الحيتان. التقط هذه الصورة إدوارد كورتيس في حوالي عام 1910.

طقوس صيد الحيتان، أن تقليد صيد الحيتان امتد من كامشاتكا إلى خليج هدسون، ومن بوينت بارو في آلاسكا إلى ساحل ولاية واشنطن، وتذكر أن هذا التقليد ربما امتد من اليابان إلى غرينلاند[lii]. في الحقيقة ربما تجاوزت الحدود مجرد الجغرافيا؛ فبالنسبة لبعض الصيادين، لم يكن الصيد يبدأ حتى يظهر الحوت على سطح الماء في الحلم، مثلما كانوا يحتاجون إلى المهارات لصناعة الحربون من العظام والقوارب الجلدية، فقد كان على صياد الحيتان الناجح أن ينثني عن حالة الحلم في الحياة العملية.

كان النقاء أيضاً أمراً مهماً بالنسبة للعديد من الحضارات، فقد كان محرّماً على صياد الحيتان من قبيلة نو – شاه – نولث أن يضاجع زوجته لمدة شهر قبل الصيد، وإذا ارتكب أي فرد من الطاقم إثم الزنا سيفشل الصيد وسيلومه القبطان على الخسارة. وكان على زوجة الصياد أن تبقى خاملة في المنزل وتترك الباب مفتوحاً لاستقبال الحوت، وإذا دخل غريب إلى المنزل فلن يكون الصيد ناجحاً، ولعبت النساء دوراً مهماً في جذب الحيتان الجانحة. فبنى الشامان من نو – شاه – نولث بيوت تطهير منعزلة، حيث كانوا يضعون فيها قطعاً من غائط زوجاتهم، وتتحول قطع الغائط إلى أرواح تجلب الحيتان إلى الشاطئ[liii].

كان صياد الحيتان الذي ينتمي إلى هنود الإلويت يفرك رؤوس رماحه بشحم بشري أو إفرازات حيض، في حين أن صيادي الحيتان من هنود الماكاه في شبه جزيرة أولمبك، والتي تقع اليوم في ولاية واشنطن، فكانوا يقلدون طريدتهم الحوت الرمادي قبل كل صيد فيغطسون عميقاً في الماء ويبقون في الأسفل لأطول فترة ممكنة وفي كل مرة يطفون فيها على السطح يقذف الصياد ملء فمه من الماء نحو مركز البحيرة، وهو يحاول أن يبدو مثل

الحوت[liv]. وذُكر أن أكثر الصيادين تصميماً، شوهدوا يخرجون إلى السطح والدم يقطر من آذانهم.

استخدم الصيادون الشماليون الأغاني والتعويذات لزيادة فرصهم في قتل الحوت وإخراجه من الماء، حيث كان الحربون المرتكز على حافة المركب العليا مزيناً بصور الحيوانات، والتي غالباً ما كانت دببة أو فقمات، وهي مصممة لتهدئة الحيتان لا لإخافتها.

وبحسب ما أورده عالم الحضارات فيليب دروكر، كانت هناك خطورة حقيقية عند تجاوز المحرمات، أو في عدم الاستعداد، فيمكن أن يستدير الحوت في اتجاه قارب الكانو ويحطمه إلى أجزاء خلال إحدى اندفاعاته العمياء، ويمكن أن يصاب أحد أفراد الطاقم بإصابات خطرة عند قذفه من على العوامة أو على الحبل القاسي، أو حتى يمكن أن يعلق في عقدة الحبل ويُجّر إلى حتفه. وفي الغالب ومن أجل هذه اللحظة تحديداً كان صياد الحيتان وطاقمه يتدربون طويلاً، ويقومون بطقوس شاقة من التطهير الشعائري احتياطاً لأي حادث[lv].

استخدم هنود ألويت ونو- شاه – نولث أرواح الموتى لإحضار الحيتان إلى الشاطئ[lvi]. واعتقدوا أنه يمكن للهياكل البشرية والجثث أن تتواصل مع الحيتان: ووظّف الشامان الجماجم خلال الحمامات الطقسية لاجتذاب الحيتان الميتة نحو الشاطئ، وقد يحمل صياد الحيتان هيكلاً عظمياً على ظهره خلال الحمام الطقسي[lvii]. وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون جثة مدعمة تمسك بحبل متصل بتمثال حوت. وقد يصلي الصياد مباشرة لطريدته:

أيها الحوت، أريدك أن تقترب مني،

حتى أمسك بقلبك وأخدعه،

حتى تكون ساقاي قويتين ولا ترتجفان خوفاً،

وأشعر بالحماسة عندما يأتي الحوت وأرشقه برماحي.

أيها الحوت، يجب ألا تهرب إلى البحر عندما أرشقك بالرماح.
أيها الحوت، إذا رشقتك بالرماح فأريد أن يصيب رمحي قلبك.
أيها الحربون عندما أستخدمك أريدك أن تذهب مباشرة إلى قلب الحوت.
أيها الحوت، عندما أرشقك برمحي وأخطئك
أريدك أن تمسك رمحي بيديك.
أيها الحوت، لا تحطم قاربي، لأني سأكون لطيفاً معك.
وسأضع براثن نسر وشوكة أرز في ظهرك[lviii].

بعد إصابة الحوت بالحربون يعود صياد الالويت إلى منزل محدد، حيث يبقى هناك ثلاثة أيام بدون طعام أو ماء. وهناك، يقوم بتقليد صرخات وتأوهات الحوت المصاب، في محاولة لدفعه للموت والجنوح إلى الشاطئ، وعند خروجه من عزلته في اليوم الرابع، يبحث الصياد عن الحيوان الميت، وإذا لم يظهر الحوت، يكرر الصياد الطقس الانعزالي[lix].

كان هنود الإلويت يصطادون الحيتان بحراب مغموسة في سم الأقونتين المستخرج من الجذور المجففة لنبات خانق الذئب.



وفي بعض الحضارات، كانت السموم تُستخدم لتسريع الموت، فكان صيادو الحيتان من جزر كودياك يضعون سم الأقونتين على رماحهم، وهو سم مُستخرج من الجذور المجففة لنبات خانق الذئب؛ المرتبط بالشعوذة في العصور الوسطى في أوروبا، ويتطلب السم ثلاثة أيام ليقتل الحوت، وينتظر الصيادون انجراف جثته نحو الشاطئ وهم يأملون أنهم لن يخسروا طريدتهم للبحر أو الأسوأ من ذلك أن يخسروها لجيرانهم.

وبعد أن يُقتل الحوت، فإن التحدي الأكبر يكمن في المهمة المتعبة لجر هذه الطريدة الهائلة إلى الشاطئ، ووظّف صيادو الحيتان من هنود نو – شاه – نولث الشعوذة لدفع الحوت نحو الشاطئ، وبعضهم كان يربط الطيور الطنانة إلى الحبل، وبعضهم الآخر كان يربط السلاحف. وانتقلت ترانيم صيد الحيتان من جيل إلى آخر، وفي بعض الأحيان كان علماء أصول الحضارات عند وجود حيتان منجرفة إلى الشاطئ يلتقطون هذه الترانيم في محاولة تدعى الإنقاذ العرقي. وهذه الصلوات تم تسجيلها من قبل إدوارد كورتيس:

أيها الحوت، استدر نحو شاطئ ياهكسيس الجميل،
وستكون فخوراً بأن ترى
الشبان يأتون على طول الشاطئ الرملي الجميل
لقريتي في ياهكسيس لرؤيتك
وسيقول الشبان لبعضهم:
(يا له من حوت كبير! يا له من حوت بدين!
يا له من حوت قوي!) وأنت أيها الحوت ستكون فخوراً بكل ذلك وستسمعهم يتحدثون عن عظمتك..
سيغطي الشبان جسدك الهائل بريش البط الغاطس، ومع طلوع فجر النسر العظيم زعيم كل الطيور

فهذا ما نتمناه

وهذا ما تحاول العثور عليه

عبر إحدى نهايات العالم إلى الأخرى[lx].

وتبدو بوضوح روح الصداقة والثناء في هذه الترنيمة التي تعود إلى هنود الساحل الجنوبي الغربي لألاسكا :

تعال يا إله البحر، وزعيم المياه. نحن أصدقاؤك!

ونتمنى لك الخير، ونحضرك إلى مكان تقوم فيه بشرف عظيم

أنت تموت، ولكن موتك لن ينسى

ستُجرد عظامك من اللحم ولكننا سنعيدها إلى البحر ثانية

حتى تعيش ثانية، فلا تخش شيئاً

ودعنا نقودك إلى كتنياجميوت، إلى الناس المعجبين بك

يا إله البحر العظيم[lxi]!

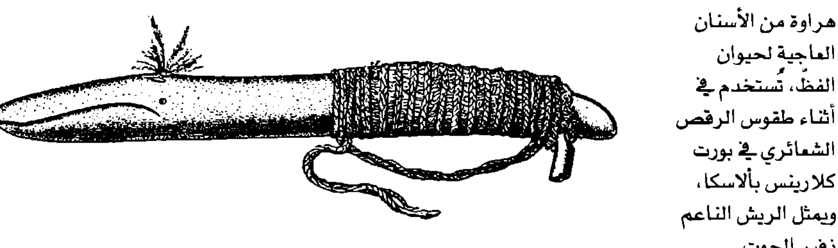
كان الاعتقاد بالبعث، وأن الحيتان التي تُعاد إلى البحر ستحيا ثانية، أساسياً بالنسبة لطقوس العديد من الحضارات. ففي الشمال، ما إن يتم سحب الحوت إلى الشاطئ وقبل البدء بعملية تقطيعه، كان يُهدى شراباً شعائرياً من الماء العذب لاسترضاء روحه[lxii]. ولدى المجتمعات من كامشاتكا إلى جزيرة فانكوفر فترة حداد طقسية لحوالي ثلاثة أيام تتبع عملية الصيد الناجح، مثل فترة الحداد على الرجل[lxiii]. وتنتهي هذه الشعائر عادة بالرقصات والولائم. وفي كايب برينس أوف ويلز[1]، ترقص زوجة قبطان صيد الحيتان وأولاده داخل حلقة من عظام الحيتان عند تلقيهم لنبأ الصيد الناجح، ويتم إشعال نار شعائرية لطهو قطعة من ذيل الحوت[lxiv]. وعلى جزيرة سانت لورانس، رُسم شكل صغير للحوت على الجانب الأيمن من الأميك[2].[lxv] وكان من المعتقد أن القتل الطائش للحيتان أو عدم

(1) أبعد نقطة في غرب الأراضي الرئيسية الأميركية.

(2) من زوارق الاسكيمو.

مشاركة الحوت الذي تم صيده مع بقية المجتمع سيؤدي إلى خسارة الحيتان في المستقبل.

وضمن هذا التقليد، اتبع صيادو الحيتان والشامان وزوجاتهم سحراً محاكياً للإمساك بالحيتان، وغالباً ما كان من المتوقع أن يعانوا بقدر معاناة فريستهم. وتطلب الأمر مجموعة صغيرة من الصيادين على شاطئ جبلي متوسط لانتهاك هذا التقليد وتغيير العلاقة بين البشر والحيتان إلى الأبد، أو على الأقل سيحصل هؤلاء الأوربيون على الفضل، ثم سيتحملون اللوم.



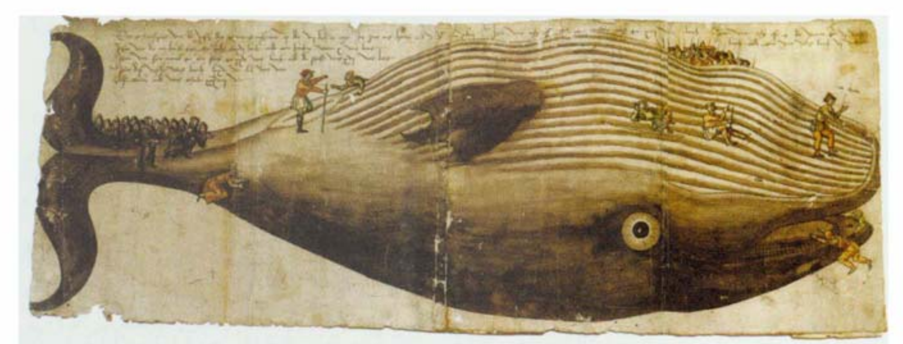
هراوة من الأسنان العاجية لحيوان الفظ، تُستخدم في أثناء طقوس الرقص الشعائري في بورت كلارينس بألاسكا، ويمثل الريش الناعم زفير الحوت.

في الوقت الذي انتشر فيه صيد الحيتان على امتداد القارة القطبية الشمالية، حكم السلت والرومان، والمور[1] فيما بعد، أغلبية أوروبا وملؤوا القارة بتغييرات على المحور اللغوي الهندو- أوروبي الواحد. ولكن على الحافة الشمالية من شبه الجزيرة الأيبيرية، تمسكت قبائل الباسك والرعاة وصيادو الأسماك بشدة بلغتهم الأصلية (أسكارا) وهي لغة غريبة جداً بالنسبة للأوروبيين الآخرين، حتى إن أحد الكهنة كتب: (يتحدث أفراد شعب الباسك فيما بينهم بلغة يقولون إنهم يفهمونها، لكني بصراحة لا أصدق ذلك)[lxvi].

ومع ذلك فإن الأوروبيين يؤمنون بشيء واحد يتعلق بشعب الباسك، ألا وهو قدرتهم على صيد الحيتان، إذ إن كلمة حربون harpoon تعود إلى كلمة arpoi والتي تعني في لغة أسكارا (الأخذ بسرعة). كان الرمح الشائك الذي يتمتع بقدرة عالية على البقاء في جسد الطريدة سريعاً، لكنه كان مخيفاً أيضاً: فقد طور صيادو الباسك الأدوات والتقنيات التي اتبعها صيادو الحيتان لقرون. وفي رواية موبي ديك، عندما يصل إسماعيل إلى نزل سبوتير في نيوبيدفورد يلحظ حربوناً من صنع اليانكي، ومن الممكن كذلك أن يوجد على جانب قارب لصيادي الحيتان الباسك: (سترتجف وأنت تنظر وتتساءل أي وحوش وأكلة لحوم البشر قد ذهبوا يحصدون الموت باستخدام مثل هذه الأداة المعقوفة المرعبة)[lxvii].

قامت شعوب أوروبية أخرى بمطاردة الحيتان أيضاً، وكان الفايكنغ

(1) خلال العصور الوسطى كان الاسم مور يشير إلى المسلمين في إسبانيا الإسلامية وشمال إفريقيا والذين يعودون لأصول عربية أو بربرية، ولا يزال هذا اللقب مرتبطاً بمسلمي إسبانيا حتى اليوم.



تمثل الصورة حالة جنوح نادر للحوت ذي الزعنفة على شواطئ هولندا في عام 1547، وهي تثير فضول الرهبان في الدير القريب.

يقومون باستيراد اللحم والعاج في القرن الثامن، لكن قبائل الباسك كانت الأولى في تطوير صناعة ستمتد عبر المحيط بأكمله، من خلال استنزاف إحدى المناطق في المحيط الأطلسي، ثم الإبحار إلى منطقة أخرى، لدرجة أنه في القرنين الحادي عشر والثاني عشر كان عليك المتاجرة مع الباسك إن أردت الحصول على زيت الحوت أو لحمه. وأدت التجارة إلى نقلة نوعية في نظرة البشر نحو الحيتان[lxviii]. وكان الرعاة من قبائل الباسك والذين احتفظوا بالقطعان في جبال نافاريا، قد بدؤوا بالتحرك نحو قرى صيد السمك الممتدة على طول خليج بيسكاي، وهم لم ينتقلوا إلى هناك بحثاً عن رزقهم، ولكن لبيع منتجات الحوت الصائب، الذي يعيش في المحيط الأطلسي الشمالي، Eubalaena glacialis إيبالانيا جلاسياليز، أول حوت تمت المتاجرة به. وفي الحقيقة، فإن بعض العلماء قد اقترحوا اسم euskariensis يوسكارينسيس بوصفه الاسم المناسب لهذه الفصيلة، على اعتبار أن الحوت كان يُعرف لزمن طويل بارتباطه بصيادي الحيتان من شعب الباسك. ولكن على الرغم من ذلك، ففي الإنجليزية دائماً ما كان هو الحوت المناسب للصيد، لأنه سبّاح بطيء على الشواطئ، ويطفو على السطح بعد قتله، بمتوسط طول يتراوح بين 13 إلى 16 متراً، والحيتان الصائبة ممتلئة الجسم ويمكن أن يتجاوز محيط حوت

بالغ معافى 60 ٪ من إجمالي طول جسده[lxix].

يبلغ طول صغار الحيتان حوالي 5 أمتار، وتزن حوالي 1000 كيلوغرام عند ولادتها، وهي تنمو بسرعة ويتضاعف وزنها عند فطامها بعد سنة واحدة فقط من ولادتها. (وعادة ما تلد الإناث مرة كل ثلاث سنوات، سنة للحمل وسنة للإرضاع وسنة لإعادة بناء مخزون الطاقة)[lxx]. وعلى عكس الحوت المقوّس الرأس، الذي يمتلك رأساً هائلاً أملسَ وغامقاً، فإن للحوت الصائب نتوءات على قلنسوته وعلى فكه العلوي الذي يشبه الساعة الرملية. وهذه القساوة هي كتلة من الجلد القاسي الذي يحتوي على آلاف من قشريات cyamidsالبيضاء، أو ما يعرف بقمل الحيتان الذي يتجمع حول الأجزاء الداخلية للجلد مثل انجراف ثلجي عميق، وينحدر من داخل الفك العلوي حوالي 400 لوح من البيلين الأسود في تصميم يبدو كالغربال، بهدف احتواء القشريات الصغيرة مثل مجدافيات الأرجل.

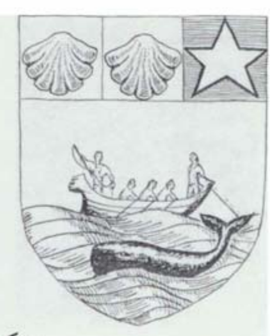
وعلى طول شواطئ خليج بيسكاي، وُضعت نقاط المراقبة على عدد من الفيغا vigìas أو الأبراج الحجرية للبحث عن هذه الحيوانات العملاقة آكلة البلانكتونات، وعندما تتم ملاحظة الزفير الكثيف للحوت الصائب، تُطلق صرخة تكون في بعض الأحيان مرمّزة لإخفاء اكتشافهم عن الصيادين الآخرين. وخلال فترة الحضانة الشتوية، يمكن أن يكون من الصعب ملاحظة الأمهات من الشاطئ، ولكن

تمثل هذه الصورة لمنحوتة هانز بولز من عام 1582 النظرة الأوروبية المبكرة لصيد الحيتان التجاري، وعلى الرغم من أن التركيز كان على صيد الحيتان الصائبة فمن المحتمل أن أشكال الحيتانيات مأخوذة من رسومات معاصرة لحيتان عنبر جانحة، وربما يمثل صيادو الحيتان العراة سكان أمريكا الأصليين.









كانت الحيتان أساسية بالنسبة إلى ثقافة شعب الباسك في العصور الوسطى، وتضمنت أغطية (شعارات) الدروع العائدة لمجتمعات بيريتز وهينداي وموتريكو حيتاناً وقوارب صيد الحيتان.

يمكن بسهولة رؤية المواليد الجدد كونها تقفز بمرح فوق الماء من على مسافة كيلومتر تقريباً.

عندما تُسمع النداءات الصادرة عن أبراج فيغا، يهرع ستة مجذفين وقبطان المركب والمسؤول عن إطلاق الحربون إلى الهجوم. وعلى امتداد قوس شالوبا the bow of the chalupa، يتم توظيف قارب بطول 8 أمتار في عملية الصيد، ويستدير مطلق الحربون ليغرس الشفرة الحديدية عميقاً في جانب الحوت. وعندما يغرق المخلوق الجريح يتبعه قارب الصيد على السطح مع عوامة تجر الحيوان الميت، ويحمل صياد الحيتان معه رمحاً عند المقدمة ليكون مستعداً لتوجيه ضربته بمجرد أن يصعد الحوت إلى سطح الماء ليتنفس، وبعد موته تُقطر الجثة الطافية الغنية بالزيت إلى الشاطئ.

في الوقت الذي يراقب فيه صياد الحيتان، الواقف في الفيغا (برج المراقبة)، مورداً غير مستغل، وهو محيط من الزفرات الشبحية وذيول الحيتان القاتمة، يسافر من خلفه بثبات سيل من التجار من شمال جبال البيرينيه إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ومنها إلى إفريقيا. وفي مثل هذا الموقع الممتاز، وعلى المسار المطروق كثيراً إلى سانتياغو دو كوموستيلا Santiago de Compostela؛ أحد المعالم الرئيسية للزيارة الدينية في أوروبا، والذي يخترق المنطقة،

عثر شعب الباسك على سوق جاهزة لجميع جثث الحيتان الصائبة التي استطاعوا إحضارها إلى الشاطئ[lxxi]. قام شعب الباسك بالصيد من أجل الربح على نقيض الصيادين النرويجيين والإنويت الذين كانوا يصطادون لقوتهم، فباعوا الزيت كوقود للإنارة وكشحم وصابون، والبيلين (عظام فك الحوت) لصنع السياط وسنارات الصيد، والعظام للأعمدة والبوابات والجلد لصنع الأحذية، وقد كان لحم الحوت جزءاً أساسياً من وجبة الرومان الكاثوليك في أيام الجمعة وأثناء الصوم الكبير الذي يُحرَّم فيه تناول اللحم الأحمر، إذ يسمح فقط بتناول لحوم الحيوانات التي تعيش في الماء. وهذا يتضمن، بالنسبة للأغنياء، لسان الحوت الذي كان من الأطايب في العصور الوسطى، في حين أن الفقراء كانوا يستهلكون الكراسبويس craspois، أو شحم الحوت، و"زبدة الصوم"، وهي عبارة عن لحم الحوت المملح والمجفف مثل لحم الخنزير، ومثل قطع لحم الخنزير أو شحمه، فغالباً ما كان لحم الحوت يُطهى مع البازلاء[lxxii].

إن الانتقال من الاستخدام لغرض البقاء على الحياة إلى الاستخدام التجاري للحيتان، كانت يعني أن الصيادين والمستهلكين كانوا غالباً على غير صلة بالأنظمة البيئية لمناطق صيد الحيتان، وعلى عكس شعب الإنويت الذي كان لديه طقوس محكمة واعتماد كبير على بقاء الأنواع، فإن رغبة صيادي الحيتان بالربح لم يكن لديها مثل هذا الدافع. وقدّر المؤرخ الإسباني أليكس أغويلر أن شعب الباسك اصطاد حوالي 40.000 من الحيتان الصائبة من المحيط الأطلسي بين عامي 1530 و 1610. وبحسب مؤرخ صيد الحيتان ريتشارد إيللز، فإن شعب الباسك كان «طليعة ما سيصبح في النهاية حرباً معلنة على الحيتان»[lxxiii]، فلم يكن باستطاعتهم بالطبع جمع هذا العدد من الحيتان في موطنهم، وبحلول عام 1600 أصبح زفير الحيتان المندفع بشكل حرف V أو الرقم 7 نادراً جداً في مياه خليج بيسكاي، وسرعان

ما نقل صيادو الحيتان من المجتمعات الساحلية مثل فوينتيرابيا وهينداي وبياريتز معاركهم إلى سواحل الأطلسي البعيدة.

وعلى الرغم من أن شعب الباسك يحظى بالكثير من الفضل في تطوير الصيد التجاري للحيتان، فالأغلب أن شعب الفايكنغ قد اصطاد الحيتان قبل قرون من إعلان خليج بيسكاي منطقة الصيد المشهورة، فهناك تاريخ طويل لاستهلاك الحيتان في اسكندنافيا وأيسلندة، وفي الحقيقة، ربما قام شعب الباسك بتوظيف النرويجيين لتعليمهم كيفية صيد الحيتان في بداية الاستغلال التجاري، ومثل هذا العمل في مقابل أجر وسّع مجال صيد الحيتان على طول الكوكب، وعندما بدأ الهولنديون والإنجليز بصيد الحيتان، قاموا بتوظيف أشخاص من شعب الباسك، وتم توظيف هنود شينيكوك وغيرهم من سكان أميركا الأصليين عندما وصل المستوطنون إلى شواطئهم.

في الملحمة الأيسلندية عن غريتير القوي Saga of Grettir the Strong من القرن الرابع عشر، يدعي اثنان من القادة ملكية حوت ذي زعنفة جنح على شاطئهم.

كم كانت هذه الأنفاس قوية والتي تم التعامل معها في ريفسكر؛
لم يكن لديهم أسلحة إلا شرائح لحم الحوت؛
وهاجموا بعضهم مستخدمين دهن الحوت العفن،
ولا أعتقد أن هذه الحرب لائقة بالبشر[lxxiv].

وُضعت القوانين التي تحدد ملكية الحيتان الجانحة لتجنب مثل هذه المعارك غير اللائقة، ووفقاً للقانون النرويجي القديم، فإن الحوت الذي تم اصطياده بالحربون، والذي جرفته الأمواج نحو الشاطئ يُقسم بالتساوي بين الصياد ومالك الأرض، في حين أن الحوت الميت الذي يتم العثور عليه في البحر يُقسم بين مُطلق الحربون، إن كان لديه شهود على مهاجمته للحوت، وإن كان يقوم باسترداد الحوت من البحر. وفي الدانمرك، كانت جميع الحيتان الجانحة تُعد أسماكاً



إن تابوت فرانكس الذي يعود للقرن الثامن هو عبارة عن صندوق من عظام الحوت من شمالي إنجلترا، والكتابة المحفورة على واجهته هي باللغة الإنجليزية القديمة وتصف أصله الحيتاني: (أصبح ملك الرعب حزيناً عندما سبح على اللوح الخشبي).

ملكية، تعود ملكيتها للملك، على اعتبار أنه يملك الشاطئ، ولكن الشخص الذي يكتشف الحوت يُسمح له بالحصول على حصة، بقدر ما يستطيع أن يحمل إن كان راجلاً، أو قدراً أكبر إن كان يمتطي حيواناً أو حمولة سفينة إن كان في البحر[lxxv]. وكان الملك دائماً يحتفظ بالجزء الأكبر من العظام واللحم. ومنذ القرن الرابع عشر، كان لدى الأسر الملكية الإنجليزية والاسكتلندية امتيازات تخص الحيتان الجانحة أو التي يتم اصطيادها على شواطئهم، ولا تزال الحيتان تعد أسماكاً ملكية في المملكة المتحدة، على الرغم من أن ذلك لمنفعة المعلومة، أكثر من كونها مخصصة لاستهلاك الملوك[lxxvi].

تظهر سجلات الكنيسة أن عظام الحيتان موّلت الحملات الصليبية، فعلى اعتبار أن جرينلاند لم يكن لديها عملة في العصور الوسطى، فقد كانت ضريبة الحملات الصليبية تُجمع على شكل جلود الفقمة وجلود الحيوانات وعظام البييلين (عظم فك الحوت). ويعد "مرآة الملك" King's Mirror أحد أهم النصوص الأدبية من



في أوروبا، كان عظم كتف الحوت والذي يصل طوله إلى حوالي المتر، يُستخدم في بعض الأحيان كلافتات تُوضع في الشوارع للدلالة على النُزل والأعمال الأخرى. وفي هذه الصورة يظهر العظم الكتفي الأيمن لحوت مقوّس الرأس في لافتة تُعلن عن نزل في شمال ألمانيا.

هذه المنطقة، وهو عمل نرويجي يعود إلى القرن الثالث عشر، على شكل حوار بين أب وابنه. وقد تم تسمية ووصف 21 حوتاً في جزء من أيسلندا وجرينلاند، بناءً على سلوكهم نحو صلاحية لحمهم للاستهلاك وحماية مكانتهم. وكذلك في بلاد الباسك كانت الحيتان الصائبة تعرف بأسعارها المغرية:

يقول الناس إنهم لا يأكلون أي طعام ما عدا الظلام والمطر الذي يسقط على البحر، وعندما يتم الإمساك بالحوت وتفتح أحشاؤه لا يعثرون على أي شيء غير نظيف في أحشائه كما هي الحال لدى أنواع السمك الأخرى التي تأكل الطعام، لأن معدته نظيفة وفارغة، ولا يمكنه أن يفتح فمه بسهولة لأن صفائح البيلين التي تنمو هناك ترتفع في فمه عندما ينفتح، وغالباً ما تسبب موته، لأنه لا يستطيع إغلاق فمه، وهو غير مؤذٍ للسفن وليس له أسنان فهو سمكة بدينة وصالحة

للأكل[lxxvii].

وفي أوروبا الشمالية، لم يكن اختيار لحم الحوت مقصوراً على الحيتان الجانحة، فحيتان المينك[1] التي يصل طولها إلى 9 أمتار تصطاد هناك منذ القديم، بسبب زياراتها إلى الخلجان والشواطئ، حيث كان القرويون يقومون بنصب أفخاخ لحيتان المينك باستخدام شباك صيد الأسماك التي كانوا يعلقونها عبر المضايق البحرية في النرويج، ثم يطلقون عليها السهام المتصلة بعوامات خشبية، وكان رأس الدودسبيلير dödspiler، أو ما يعرف بسهم الموت مغطى بمصل يُفضل أخذه من لحم حوت ميت محروق أو بعض أنواع اللحوم الأخرى المتعفنة، مما يسبب تعفن الدم في الحوت الصغير. وخلال 36 ساعة، ستكون البكتيريا قد أضعفت الحوت بما يكفي لقتله بسهولة باستخدام الحربون ويبقى لحم الحوت قابلاً للأكل باستثناء المناطق المحيطة بالجروح[lxxviii].

إن التحسينات في مستوى المعيشة في القرن السادس عشر زادت الطلب على الإنارة والصابون، وكان زيت الخضراوات (الزيت النباتي) غالياً، ولكن الأضواء الصناعية كانت أساسية بالنسبة للحرفيين ليبقوا منتجين خلال ليالي الشتاء الطويلة المظلمة. وقدّم زيت الحوت بديلاً، رخيصاً ونظيفاً عند احتراقه، ولم تكن مادته عرضة للجفاف أو الصقيع أو الفيضانات.

ومع انخفاض أعداد الحيتان الصائبة في أوروبا، انتشر شعب الباسك عبر الأطلسي في بحثهم عن الطرائد، وفي أثناء ذلك، قاموا بتطوير الصيد البحري (في وسط المحيط) من خلال إطلاق قوارب صيد الحيتان من سفنهم مباشرة، ولكنهم كانوا لا يزالون يعتمدون على الأرض لتقطيع الحيتان وغلي الدهن في أوعية على شواطئ جزر

---

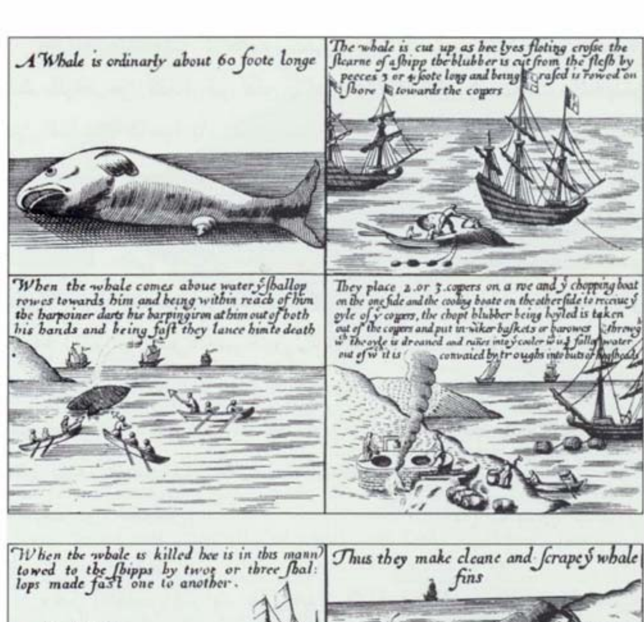
(1) حوت رمادي صغير.

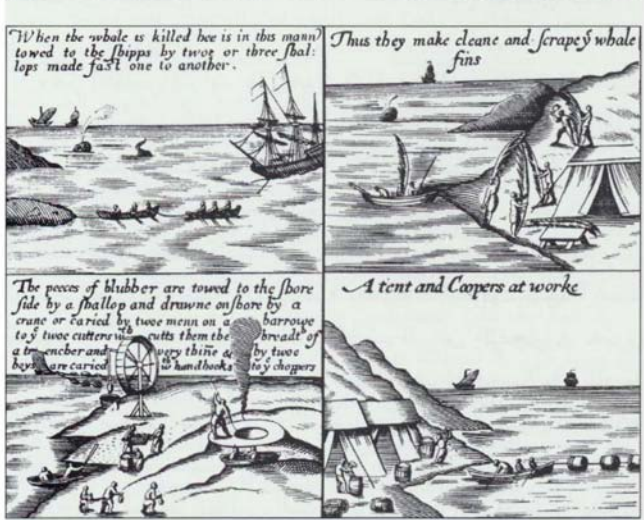
فايرو Faeroe، وأيسلندا وحتى على الشواطئ النائية للابرادور. وفي طريقهم كانوا يصطادون كلاً من الحيتان الصائبة والحيتان مقوسة الرأس، والتي يعرفها الأوربيون باسم حيتان جرينلند الصائبة. ومؤخراً، تم استرداد سفينة غاليون بوزن 300 طن غرقت منذ عام 1565 من مياه الخليج الأحمر Red Bay، في لابرادور، أحد المسكرات التي احتفظ بها شعب الباسك على طول جزيرة مضيق بيلي. ولقد أذاب شعب الباسك الزيت المستخرج من دهن الحيتان المقوسة الرأس والحيتان الصائبة لمئات السنين في الخليج الأحمر Red Bay، والأكثر من ذلك، أنه بعد مرور أكثر من 400 سنة لا تزال التربة ذات ملمس دهني حول آثار الأمكنة، حيث كان يتم تذويب دهن الحوت أو تقطيعه.

وعلى الرغم من أن الفصائل المربحة أكثر هي الحيتان الصائبة والمقوسة الرأس، فهي لم تكن الفصائل الوحيدة التي قام الأوروبيون باصطيادها، ففي عام 1725 سجّل عالم الطبيعة البريطاني بول دودلي رؤيته للحوت العظيم الوحيد والمعروف بأنه قد انقرض منذ بدأ صيد الحيتان، حوت المحيط الأطلسي الشمالي الرمادي الذي له فك بيلين قصير مثل حوت الروركوال[1] والظهر العاري من الزعانف لحوت صائب أو مقوس الرأس وقد تم اصطياده في حوالي عام 1640، ولم يتم تسجيل مشاهدته منذ ذلك الوقت. وجادل عالما الأحياء أول ليندكويست وويم وولف من جامعة جرونينجي في هولندا أن الأوروبيين في العصور الوسطى اصطادوا هذا الحوت حتى أبادوه من شرق المحيط الأطلسي، في حين بقي بعض العلماء المتخصصين بالحيتان يشككون في وجود أعداد كبيرة من الحيتان الرمادية في المحيط الأطلسي الشمالي في الأزمنة التاريخية المعروفة.

---

(1) حوت ضخم جداً يعيش في المحيط الأطلسي الشمالي، له زعنفة ظهرية وطيات طولانية قوية على حلقه وبطنه.

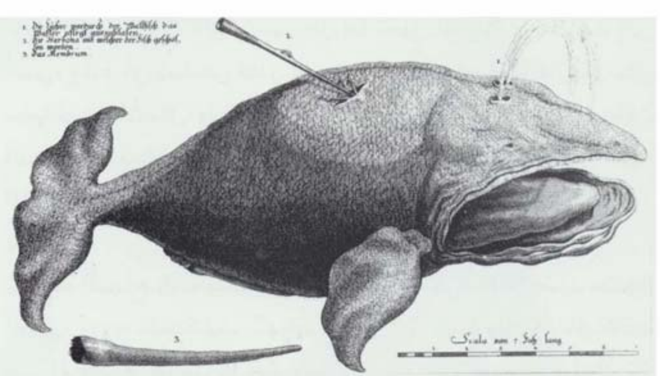




صور لصيد الحيتان في سبيتسبرغن في عام 1611، أعيد إنتاجها في رحلات
شورشيل (1745).

وهاجر الحوت الرمادي على طول الساحل الشرقي لأميركا الشمالية، من كندا إلى فلوريدا، ومن الممكن أن صيادي الحيتان من الباسك قاموا باصطياد هذه الحيتان الرمادية عندما وسعوا صيدهم في القرن السادس عشر. وحتى لو أنه لم يكن لهم دور في زوال الحوت الرمادي، فقد قدم الباسك نموذج استغلال الحيتان الذي ساد حتى القرن العشرين. وقد تركز الصيد بشكل أساسي على الإناث الضعيفة وصغارها البطيئة في السباحة والنشيطة على سطح الماء. واعتبر الصيادون في حينها أن الإناث والذكور اليافعة، غير ذات قيمة كونها أصغر حجماً والإمساك بها أصعب. كانت هذه المهنة حرفة ازدهار وكساد، فما إن تفرغ منطقة الصيد من الحيتان، حتى ينتقل الصيادون منها نحو منطقة صيد جديدة لاصطياد أنواع جديدة من الحيتان.

حفّز الطلب المتزايد على مواد الإنارة والأرباح المرتفعة لصيد الحيتان الإنجليز للتغلب على حاجز إيسكارا الكبير. وفي القرن السادس عشر قامت الملكة إليزابيث الأولى بمنح الشركة الإنجليزية الروسية (موسكوفي) للتجار المغامرين حق احتكار صيد الحيتان في كافة البحار مهما كانت[lxxix]. وتم توظيف صيادي الحيتان من الباسك للعمل في السفن البريطانية وتعليم الطواقم الجديدة كيفية الصيد[lxxx]. وفي عام 1607 استكشف الربان الإنجليزي هنري هدسون القارة القطبية الشمالية لصالح شركة موسكوفي، فأبحر على طول ساحل جرينلاند واكتشف جزيرة جان ماين البركانية وأبلغ عن مناطق صيد الحيتان الغنية على بعد 600 كيلومتر شمال النرويج في المحيط القطبي الشمالي، وسرعان ما أرسلت الشركة أول حملة صيد في عام 1611 بعد عودة هادسون بالأنباء عن وجود أعداد كبيرة من الحيتان مقوسة الرأس حول سبيتسبيرغن، وبحلول



منحوتة تعود لعام 1737 لحوت يافع من الحيتان مقوسة الرأس وهي تظهر نظرة الناس إليه في ذلك الوقت والحربون في ظهره.

نهاية ذلك العقد كان الهولنديون والدانمركيون والباسك يتنافسون مع الإنجليز في مناطق الصيد هذه.

قبل بدء الصيد ربما كان هناك نصف مليون حوت مقوس الرأس في القطب الشمالي، وكون هذا النوع من الحيتان يُعد سمكة ثقيلة بليدة وذات مقاومة ضعيفة[lxxxi]، فقد كانت هذه الأنواع الضخمة والتي باستطاعتها توفير زيت يعادل الموجود في الحوت الصائب الناضج مرة ونصف، جذابة بشكل خاص للصيادين المستعدين للمخاطرة في الجليد. وجعلت عظام فك الحوت المقوس الرأس (البيلين)، بأطوال تصل في بعض الأحيان إلى 4.25 متر، (في حين أن طول فك الحوت الصائب أقل من 3 أمتار)، الصيد أكثر ربحية.

في البداية، كان الصيادون يقومون بإذابة الدهن على شواطئ سبيتسبيرغن في منطقة يعرفها الهولنديون باسم هارلم كوكيري، وكانوا يقومون بفصل رأس الحوت وجره إلى الشاطئ، حيث تتم إزالة صفائح البيلين وتنظف وتربط في حزم مؤلفة من 50 صفيحة. ويُغلى الدهن على الشاطئ ثم يعاد شحنه إلى الجمهورية الهولندية. في السنوات الأولى تلك، كان أسطولٌ يتراوح بين خمس عشرة إلى عشرين سفينة، يقوم بجميع عمليات الصيد في المنطقة، وقد وصف المؤرخ البحري الهولندي جيب برويجن هذه الفعالية بأنها منظمة

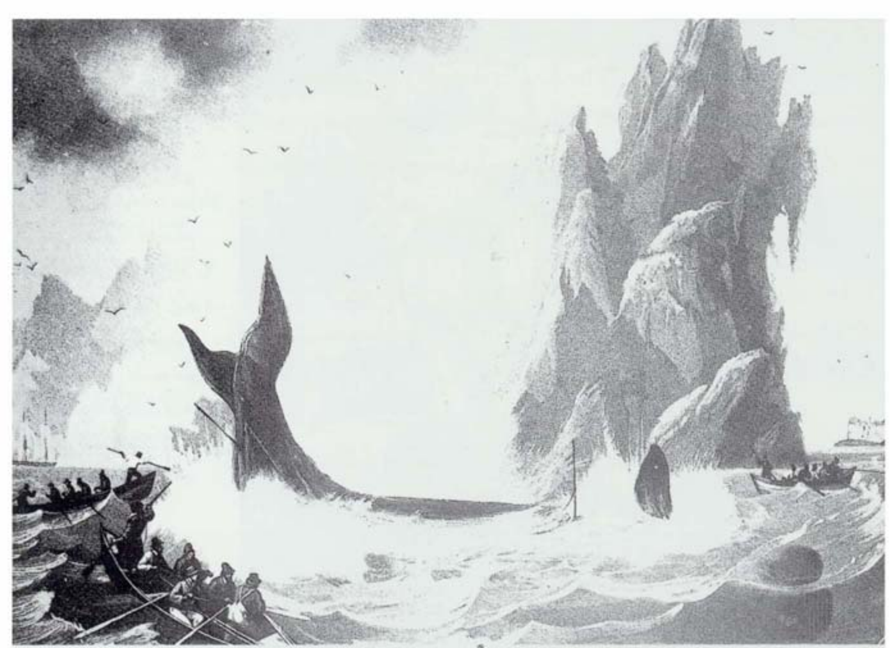
أوبك الأولى[lxxxii]. ولكن سرعان ما تحول البحث عن الزيت إلى حمى، وقام أي شخص قادر على تحمل تكاليف رأس المال بإرسال سفينة نحو الشمال، ولم يكن هناك وقت لإضاعته على الشاطئ فكان الدهن يجمع في براميل ويرسل إلى الوطن، وفوراً أطلق على بيوت التقطير في الجمهورية الهولندية لقب طيور النوء النتنة[lxxxiii].

قاد النجاح في سبيتسبيرغين إلى البحث عن مناطق صيد منتجة أخرى، وروى المستكشف الهولندي إدريان بلوك أن الحيتان كانت بأعداد وفيرة في أميركا الشمالية وأحدثت مستعمرة زوانيندال في عام 1630 وهي ديلاوير في الوقت الحاضر، وبفضل تجهيزها بقوارب صيد الحيتان وأسلحة الحربون كان الرجال مصممين على الحصول على رزقهم من عائدات الحيتان الصائبة، ومع ذلك لم يتمكنوا من صيد أي حوت وزالت المستعمرة نفسها بحلول عام 1633[lxxxiv].

كان على صيادي الحيتان معرفة أنماط الهجرة، والوفرة الموسمية ونقاط قوة وضعف الحيتان، مثلما يتوجب على أي مفترس معرفة فريسته، وقد وصف فريدريك مارتن في عام 1671 عملية صيد الحيتان بالقرب من شواطئ سبيتسبيرغن:

نقترب بهدوء ولطف ومن الخلف نحو الحيتان الجامحة....، لأنه عندما تكون الرياح ساكنة والجو هادئاً والهواء ساكناً والبحر لا يرغي ولا يزبد فيمكن للحيتان أن تسمع فوراً ضربات المجاديف[lxxxv].

كتب مارتن: لقد تعلموا أن يقتلوا الحوت بأكبر فعالية ممكنة، فكلما طال الوقت الذي يمضونه في قارب الصيد كلما طالت الرحلة وازدادت المخاطرة بأن يعلقوا في الجليد، والحوت الذي لا يُقتل بسرعة يمكن أن يضيع في الجليد، وبعد أن يتم تجهيز الحربون، يقوم الصيادون بإصابة الحيتان قرب أعضائها التناسلية... لأنها تؤلم كثيراً... ولكن إصابته في المنطقة حول الرأس لا تؤذيه أبداً وذلك لأن



تمثل هذه الصورة لوحة الفنان الفرنسي رسام البحر أمبرويس لويس جارنيراي في حوالي عام 1839، واسمها صيد حوت بين جبال الجليد.

الدهن حول الأعضاء التناسلية رقيق جداً حول العظام، وهذا أمر تعرفه الحيتان مثلما نعرفه نحن، ولهذا فعندما تجد الحيتان نفسها في خطر ولا تستطيع الهرب من الحربون فإنها تفضل أن تترك رأسها وليس مؤخرتها بدون حماية فعلى الرأس ينكسر الحربون بسهولة ويتمكن الحوت من الهرب[lxxxvi].

وعندما يموت الحوت، يقوم الصيادون بقطع زعانف الذيل أو الذيل. وكانت بعض السفن تستخدمها كمصدات لتحمي سفنهم من الجليد الحاد، ويتم تثبيت الحوت إلى السفينة، والذيل يتجه نحو مقدمة السفينة والرأس في اتجاه مؤخرة السفينة وتتم إزالة دهن الحوت وتترك الجثة وسرعان ما تقترب الدببة القطبية وتهبط

كان القرنان السابع عشر والثامن عشر العصر الذهبي لصيادي الحيتان الهولنديين، ويظهر هذا القرميد الخزفي لوحة ترتكز على رسومات مناطق الصيد القطبية للرسام سيويرت فان دير مولين في حوالي العام 1720. ويُعرف هدف الصيد، الحوت المقوس الرأس باسم حوت جرينلاند الصائب لأنه كان يعد سمكة بليدة تحتوي على زيت وفير.

الطيور البحرية على البقايا.

غالباً ما كان صيد الحيتان إسرافاً، ففي مقابل كل حوت يتم استرداده من البحر وتذويب دهنه يقتل اثنان، ولكن صيد هذه الحيتان المحبة للجليد كان مدمراً بشكل خاص. كتب أحد المراقبين في عام 1760: (يمكن بسهولة صرع الحيتان وتثبيتها، ولكن ثلثها على الأكثر يتم استرداده، فعن طريق إغراق أنفسها وحيرتها تحت الجليد، يُفقد ثلثا العدد الذي تم صيده بشكل لا يمكن استرداده)[lxxxvii].

كان الجليد هو ما يحرك أكبر مخاوف صيادي الحيتان، حيث عانت السفن الكثير من الظروف الصعبة في حقول الجليد العظيمة في الشمال، وكان على صياد الحيتان والمستكشف البريطاني ويليام

سكورزبي من أجل الوصول إلى الحيتان مقوسة الرأس أن يجعل رجاله يندفعون خلال تلك الحقول الجليدية والملاحون يجرون من جانب إلى آخر على سطح السفينة لإبقائها حرة من الجليد. ولكن مثل هذا الارتجال لا يمكن له دائماً التغلب على مشاكل المنطقة القطبية فهناك الضباب الأسود والعواصف الثلجية والسراب الجليدي الذي يوحي بأفق كاذب ولا توجد هناك منارة واحدة. وفي عام 1830 ضاعت 18 سفينة بريطانية كما مرت بضع سنوات بدون وقوع إصابات.

استطاعت بعض مجموعات الملاحين النجاة من خلال الوصول إلى محطات التموين أو التقطتهم بعض السفن الأخرى، حيث قد يكون الطعام الوحيد هو اللحم المتعفن الذي تجمد وذاب وتجمد ثانية عبر السنوات، وحتى على متن السفن التي بقيت سليمة، سادت ظروف لا يمكن تحملها حيث يظهر داء الإسقربوط مع حلول الشتاء،

لوحة Pêche de la baleine للفنان جارناراي وهي واحدة من أفضل الرسومات عن صيد الحيتان، وقال ميلفيل عن هذه اللوحة التي تعود لعام 1835 إنها: (حتى الآن، أفضل تمثيل يمكن العثور عليها في أي مكان للحيتان ومشاهد صيدها).



WONDERS
From the Deep
OR A
True and Exact Account and Defcription
OF THE
Monftrous Whale,

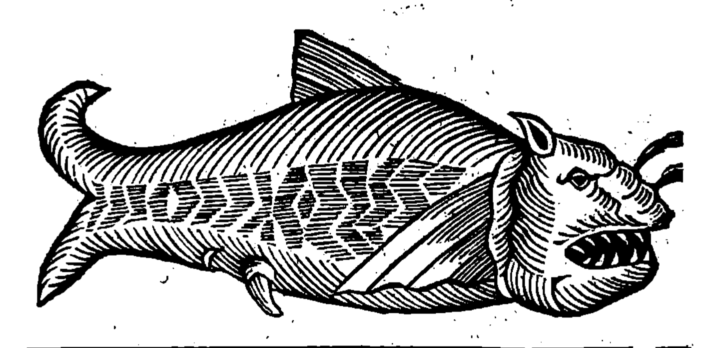
Lately taken near

COLECHESTER,

Being two and forty Foot in Length, and of Bignefs Proportionable.

With the manner of itscoming, and being Kill'd on *Thurfday* the *9th.* of *April.*

Being fo rare and ftrange a fight that multitudes of People from all parts dayly go tofee it as thick as to a Market or Fair.



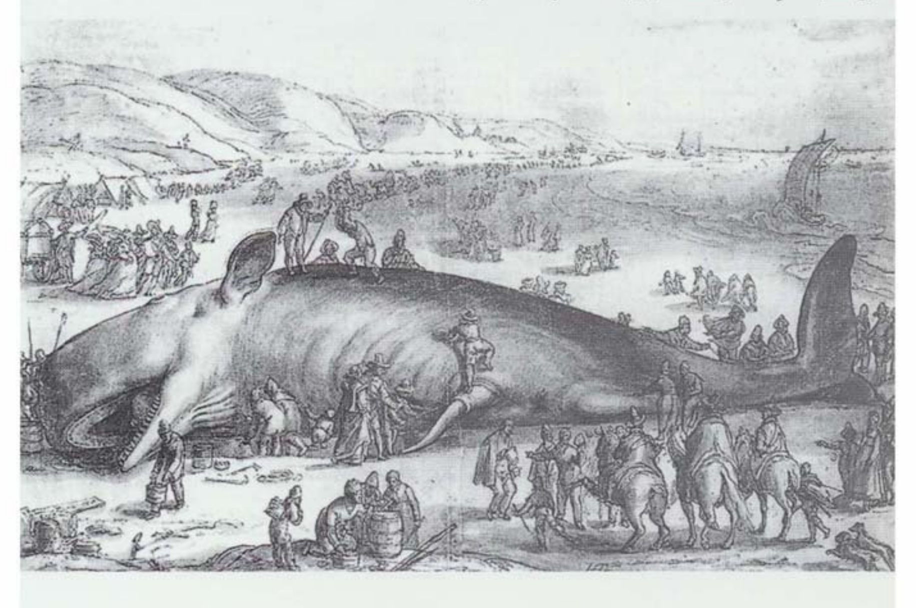
London Printed for *E. W.* in the Year 1677.

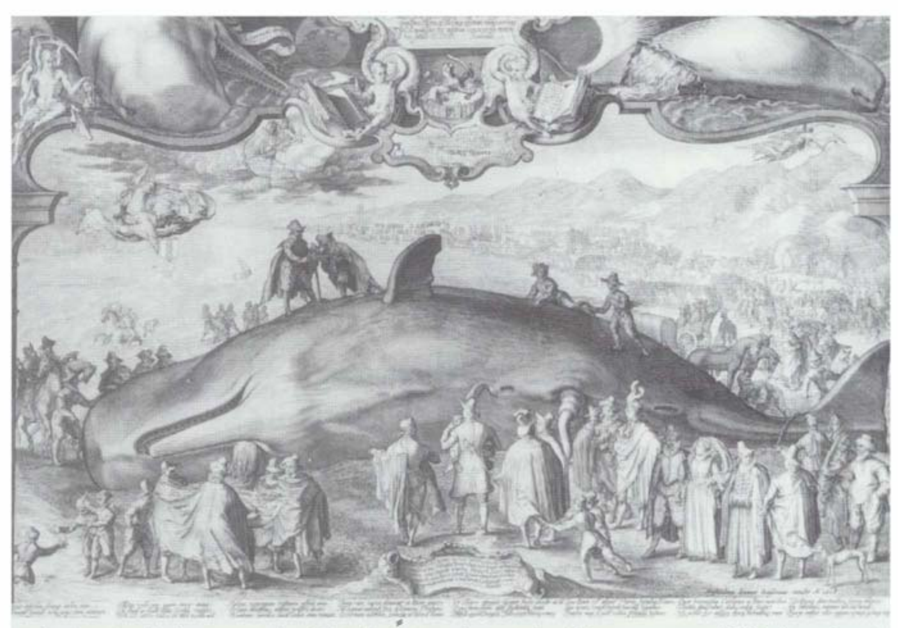
وتبدأ الأسنان بالارتخاء ويضعف الرجال إلى مرحلة لا يتمكنون فيها من مغادرة قمراتهم وبعضهم مات بسبب هذا المرض، وآخرون تجمدوا حتى الموت في قمراتهم وغطاهم الجليد والصقيع [lxxxviii].

وكما كتب أحد القباطنة في الدائرة القطبية الشمالية، (كان الموت يلامس كوع صياد الحيتان باستمرار!) [lxxxix]

وبوصولها إلى القمة في الثمانينيات من القرن الخامس كانت مهنة صيد الحيتان في هولندا تستخدم 260 سفينة ويعمل فيها 14000 بحار، وبسبب تراجع أعداد الحيتان في سبيتسبيرغن، قامت كل من الشركات الهولندية والبريطانية بالصيد على طول الشواطئ الجليدية لجرينلاند. كان صيادو الحيتان قتلة بحكم مهنتهم، ولكن هذا لا يعني القول إنهم كانوا جميعاً قساة القلوب، وعلّق سكورسبي على صيد الإناث والصغار في الدائرة القطبية:

قام هيندريك جولتزوس برسم أكثر صور الحيتان بقاءً، في لوحته التي تعود لعام 1598 التي تُظهر حوت عنبر جانحاً.





منحوتة من عام 1602 للفتان جانِ ساينريدام وتمثل حوتاً جانحاً بالقرب من بيفرويك. تؤكد هذه اللوحة على الاعتقاد السائد آنذاك أن مثل هذا الجنوح ما هو إلا نذير بالكوارث. وتبدو ساعة الأب الرملية وهي تكاد تقترب من نهايتها في أعلى يسار اللوحة وتترافق اللوحة بأشعار سوداوية.

«هناك شيء مؤلم جداً في هلاك الحوت، وهكذا عندها تظهر الدلائل الواضحة على درجة التعاطف فيما يخص صغارها والتي تظهر احترام الذكاء المتفوق للكائنات البشرية، ومع ذلك، فلا يمكن التضحية بالهدف من المغامرة وقيمة الجائزة ومتعة الصيد من أجل مشاعر التعاطف[(xc)]».

لم يكن لدى الأوروبيين العاديين، الذين لم يذهبوا إلى البحر أبداً، أو صعدوا على متن سفينة صيد حيتان، مثل هذه التعقيدات عندما كان الرجل يضيء مصباح الزيت أو تفتح المرأة شمسية الباريسول[(1)]، وكانت بعض المجتمعات الساحلية تناضل من أجل معامل تذويب دهن الحوت وتحصل على دخل من تدفق الزيت، ولكن

(1) شمسية للحماية من أشعة الشمس.

بالنسبة للغالبية كانت الفرصة ضئيلة لرؤية أحد الحيتانيات، إن كان حياً أم حتى جانحاً على الشاطئ.

أصبحت المنشورات المصورة أدوات مهمة في تغطية الأحداث في أوروبا منذ القرن الخامس عشر، إذ إنها كانت تُطبع على أوراق يتراوح عدد نسخها بين 1000 و2000 نسخة، وكانت تُباع بما يقارب نصف أجر يوم عمل بالنسبة للحرفي العادي، ومن هذه المطبوعات المكرسة للحيوانات، انتشرت صور الحيتان الجانحة بكثافة وخاصة في المدن المقامة على طول الساحل، بدءاً من ألمانيا ووصولاً إلى إسبانيا وحول الجزر البريطانية، وربما قدمت هذه التغطية الصور الوحيدة التي تسنى للأوروبيين رؤيتها، على الرغم من أن عظام الحيتان يمكن أن تكون معروضة في الكاتدرائيات أو العروض المتنقلة. وكانت هذه المطبوعات أيضاً مصدراً مهماً للمعلومات بالنسبة للعلماء في القرنين السادس والسابع عشر.

وبحسب ما كتبه فرانك، فبينما استحوذ الأوروبيون الشماليون على مهنة قتل الحيتان، ظهر تأثير جديد في رسوماتهم عن الحيتانيات، وحدثت نقلة نحو (الصفات الظاهرة والملاحظة العملية والقياسات الصحيحة والتسجيل الدقيق للبيانات والذي بدأ يحل محل الافتتان الأفلاطوني للعصور السابقة)(xci). وبعبارات أخرى، بدأ الفنانون في أواخر القرن السادس عشر بالنظر إلى حقيقة وحوش الأعماق هذه التي تقذف على الشاطئ أو تتم مطاردتها بالقوارب، وتابعوا تفاصيل لما كانوا يشاهدونه، وإحدى أكثر الأيقونات بقاءً كانت لحوت عنبر جنح في عام 1598 على الساحل الهولندي، واستطاع فنان هارلم هيندريك جولتزيوس تصوير الحوت في وضعية واقعية بشكل لا يصدق (على الرغم من أنه واجه مشاكل مع الزعنفة، مثل العديد من الفنانين الذين سبقوه وتبعوه)، حيث تكرر ظهور هذه الصورة لحوت العنبر في كتب التاريخ الطبيعي لقرون على امتداد أوروبا.

ولكن ماذا كان يعني جنوح الحوت في تلك الفترة؟ كان الحوت المنجرف في بحر بيرنغ يعني هدية من سيدنا Sedna، وفي اليابان عنت حالات جنوح الحيتان الحظ السعيد، وكان الكوجيرا kujira، أو لحم الحوت هبة يُرحب بها. ولكن في أوروبا، حيث أكل الحيتان غير مرغوب، فقد كان يُعتقد أن حالات الجنوح هي علامات على غضب الرب ونذير بوقوع كارثة(xcii). وفي لوحة لحوت جانح بالقرب من بيفيرويك في عام 1601، تتكهن مجموعة الأيقونات التي تحيط بالحوت بوقوع زلزال وكسوف شمسي وخسوف قمر.

صوّر الفنان سيويرت فان دير مولان مجموعة من ست عشرة صفيحة ترتكز على رسومات دايفيس ستراييب حوالي العام 1720 في أمستردام وإلى يومنا هذا، تعتبر هذه المجموعة استثنائية، نظراً لما يظهر فيها من براعة فنية ودقة تاريخية ومعرفة بشؤون البحر(xciii). وكما استمرت تقنيات شعب الباسك في قتل الحيتان لقرون خلت، فإن هذه المنحوتات كانت مصدر مئات من التصاوير التي تظهر الحملة العالمية لصيد الحيتان. كان العديد من الأوروبيين، عندما يفكرون بأمر صيد الحيتان، إن فعلوا ذلك، يستحضرون صوراً عن الدببة القطبية وحيوانات الفظ والحوت المقوس الرأس المحتضر وزعنفته ترتفع في الهواء، وتظهر الجبال الجليدية في المشهد. ولم تتغير هذه الصورة حتى انتقل صيد الحيتان إلى المياه الجنوبية والفصائل التي تعيش في المياه العميقة.

4 - صعود نجم الحيتان

مطلوب فوراً 100 شاب أميركي، للذهاب في رحلات صيد حيتان في سفن من الدرجة الأولى. مطلوب أيضاً نجارون وصانعو براميل وحدادون، وسوف يتلقون أجراً إضافياً. جميع الملابس والمواد الضرورية الأخرى سيتم شراؤها على حساب الرحلة.

ملاحظة: الرحلات ستستمر لفترات تتراوح بين ثمانية أشهر وثلاث سنوات

صحيفة نيويورك تريبيون، 1 تموز 1841.

لا توجد حياة فيك الآن ما عدا الحياة المتأرجحة المنقولة من حركة السفينة الناعمة، التي استعارتها من البحر، واستعارها البحر من أمواج الرب الغامضة.

هيرمان ميلفيل، موبي ديك

الرب أرسل إلينا الحيتان.

دين سي. رايت، موجه الدفة،Benjamin Rush 1841-5

ترافق نمو صيد الحيتان في أوروبا مع الانتقال إلى المجتمع المدني، الذي ازدهر على الضوء الصناعي المأخوذ من الحوت. ولعبت الحيتان دوراً محورياً في الاقتصاد الإمبريالي منذ بداية الاستيطان الأوربي في أميركا الشمالية. وبالنسبة لميلفيل، فإن صيد الأميركيين للحيتان (أو ما يسمى صيد اليانكي) كان مثل (الأم المصرية، التي تحمل أجنتها وهي حوامل في رحمها)[xciv]. وبعد

الثورة الأميركية التمس جون آدمز[1] من ويليام بيت[2] أن يفتح الموانئ الإنجليزية أمام المنتجات الأميركية من صيد الحيتان، وكانت حجة آدمز أنه من دون زيت الحوت الذي يعطي أنظف وأفضل لهب من أي مادة أخرى معروفة للطبيعة، فإن بريطانيا في خطر الانحدار ثانية إلى العصور المظلمة، ونحن جميعاً نشعر بالدهشة لأنك تفضل الظلمة في شوارعك، وما ينتج عنها من سطو وسرقات وجرائم على استقبال زيت العنبر الذي نحمله[xcv]. وقال رجل الدولة الأميركي دانييل ويبستر[3] عن صيد الحيتان أنه أشجع الصناعات وأكثرها مثابرة.

وقبل ظهور الكتب التي تصرح عن القوى التحولية للقهوة أو سمك القد بزمن طويل، كانت مطاردة الحيتان تعد أساسية لنهوض المجتمع الحديث، وحتى يومنا هذا لا يزال علماء الحيتانيات مذهولين من تأثير الحيوانات التي يدرسونها على الثقافة البشرية. وكما كتب ستيفن كاتونا وهال وايتهيد، (قامت منتجات صناعة صيد الحيتان والأموال الناتجة عنها بتمويل المراحل الأولى للثورة الصناعية، والتي بدورها غيّرت جميع أنظمة العالم البيئية تقريباً)[xcvi]. ونحن جميعاً نركب إرث الزيت الخفيف الناتج عن دهن الحوت، إن لم نكن في بطنه.

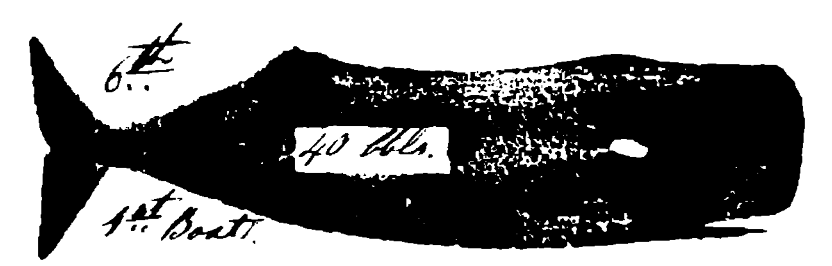
وكان هذا صحيحاً بشكل خاص في المياه الشرقية لشمال أميركا،

---

(1) جون آدامز (1735 - 1826). أول من تقلد منصب نائب الرئيس في الولايات المتحدة ما بين عامي -1789 1797. كما أنه ثاني رؤساء الولايات المتحدة الأميركية وقد تولى رئاستها من عام 1797 إلى عام 1801. ينتمي جون آدامز إلى الحزب الفيدرالي. وقد كان أول رئيس أميركي يقيم في البيت الابيض ومارس فيه عمله منذ عام 1800.

(2) وليام بت الأصغر: سياسي بريطاني (-1759 1806). هو ابن وليام بت الأكبر رئيس الوزراء البريطاني الأسبق. تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا مرتين: ما بين عامي 1783 - 1801.، وبين عامي 1804 - 1806.

(3) سياسي أميركي (1782-1852).



فقد كان الحوت في اذهان العديد من المسافرين الإنجليز في اثناء اقترابهم من أميركا الشمالية. وبعد فترة قصيرة من إحداث مستعمرة بليموث، فشلت التجارة في فراء القنادس بسبب الصيد الجائر ونظر مبعوثو الملك نحو خليج ماساشوستس كأمل للإنعاش الاقتصادي، ومرة أخرى كان على الحوت الصائب الساحلي، الذي يهاجر من مناطق الحضانة في جنوبي فلوريدا إلى مناطق الطعام الشمالية بالقرب من لونغ آيلند وكايب كود وخليج فوندي ونيوفاوندلاند ولابرادور، أن يحمل عبء الصيد.

ابتهج الكاهن الإنجليزي ريتشارد ماذر، خلال الهجرة الكبرى للبيوريتانيين في عام 1635، بوفرة أعداد الحيتان الضخمة، التي تصبح مألوفة أكثر كلما اقترب من العالم الجديد، وهي تقذف الماء في الهواء مثل دخان الموقد، وتجعل من البحر حولها أبيضَ ومهيباً[xcvii]. وبحلول الوقت الذي تولى فيه حفيده كوتون ماذر مهمة الوعظ في بوسطن، كان صيد الحيتان قد أصبح صناعة موسمية مهمة في نيوإنجلند.

بالنسبة لماذر الشاب، كانت الحيتان وحوشاً لكنها كانت أيضاً تستحق اهتمام علماء الطبيعة، ولو كان ذلك فقط من أجل تقديم أمثلة وجيهة عن قدرة الرب. عاش ماذر في عالمين، فقد آمن بالسحر وعمل على صرف النظر بالعمل بالطيف (سبيكتر) – وهو وجه أحد

المعارف الذي يُرى تحت تأثير السحر (المسُّ) - كدليل في محاكمات الساحرات، لكنه أيضاً كان عالماً باحثاً قام بتلقيح ابنه ضد الجدري (والذي كاد يموت أثناء التجربة). وبصفته واعظاً في منطقة ماساشوستس الثرية بالحيتان، فقد استخدم ماذر الحيتان كأمثلة على غضب الرب وكرمه.

ما الحيتان إلا أسماك يعثر عليها في بعض الأحيان بحجم كبير جداً. يا إخوتي، أنتم بالتأكيد موضع اعتماد لتكونوا مسيحيين من الدرجة الأولى، فأنتم الذين تصادفون وحوش البحر الهائلة هذه وتنشرون إمبراطورية البشر حتى الوصول إلى النصر والسيادة على هذه الحيوانات الهائلة!... وعندما ترون هذه الزفرات التي لا يمكن مقاومتها، سيهاجم الحوت، وكم سيكون هذا الضخم خائفاً عندما يصعد فوق سطح الماء لتلقي الضربة: ألا تسمعون الرب الكلي القدرة والذي لا يساوي هذا الحوت أمامه شيئاً أكبر من الدودة... كم ستكون هائلة نفخات الرب القادر على مستحقي غضبه!

قد يكون الحوت مجرد دودة أمام الرب. غير أنه سيعلّم العصاة من الرجال والنساء درساً:

«بين السمك الذي تتبعونه بأسلاككم الحديدية، ترون وحوش البحر وهي تُخرج أثداءها لترضع صغارها، حتى في البحر البارد يوجد مثل هذا الدفء من التعاطف الأبوي! ولكن أي وحوش هؤلاء الآباء الذين لا يهتمون إن عرف أبناؤهم الرب، وقاموا بخدمته وبحثوا وعثروا على بركات المخلّص الوحيد؟ أيها الآباء، إذا لم تصلوا أبداً مع أبنائكم.... فأنتم هذه الوحوش، وتلك الوحوش التي في البحر تصرخ بفم مفتوح ضد قسوتكم[xcviii]».

قد تكون الحيتان وحوشاً أو لوثياناً أو حتى آباءً جديرين، لكنها في الغالب كانت تمثل النقود. ومن رحمته أن الرب قدّم هذا المخلوق

النهم والهائل – جزءاً منه هو الحوت الصائب والجزء الآخر هو اللوثيان المذكور في الإنجيل – لصيادي الحيتان، حتى يتمكنوا من الحصول على طعامهم من بيعه.. وأن يصنعوا مأدبة من لحمه ويقسموه بين التجار[xcix].

ازدهر صيد الحيتان قرب الشواطئ في القرن السابع عشر، وبحلول سبعينيات ذلك القرن، كان راتب معلم المدرسة يُدفع باستخدام زيت الحوت وصفائح البيلين في إيست هامبتون في لونغ آيلند[c]. وكانت السنة الدراسية تنتهي في كانون الأول، بسبب العمل في صيد الحيتان، وتعود للبدء ثانية في نيسان بعد أن تكون الحيتان قد اختفت ولم يعد هناك حاجة للطلاب للعمل في القوارب[ci]. وتم توظيف سكان أميركا الأصليين – وتحديداً هنود مونتاوك وشينكوك من جزيرة لونغ آيلند – للمساعدة في الصيد. فقد كان الهنود الحمر يأكلون لحم الحوت مع البازلاء والذرة البيضاء، ويقومون



في عام 1590 ذكر جوزيف داكوستا أن السكان الأصليين لفلوريدا كانوا يقفزون على ظهور الحيتان، ويسدون فتحاتها التنفسية بالأوتاد كي تختنق، وهذا بالتأكيد أسلوب من وحي الخيال. وفي هذه الصورة تُظهر لوحة جوهان ثيودور دو براي المحفورة في عام 1602 (أسلوب الهنود الحمر العجيب في الصيد).

بشي زعانف الحوت وذيله كمتقدمات في المهرجانات الدينية قبل وصول الأوروبيين(cii). لكن المؤرخين يشككون في كونهم صيادين بسبب قوارب الكانو الخشبية المجوفة والمرساة الخشبية التي كانوا يستعملونها، أو أنهم كانوا يجمعون الحيتان المنجرفة. لكن الأمر الذي هو موضع شك هو أنهم كانوا جزءاً من طاقم الملاحة عند انطلاق صيد الحيتان من المستعمرات. كان السكان الأصليون يحصلون في مقابل كل حوت يتم قتله على معاطف قماشية ونصف الدهن، لكنٍ صفائح البيلين كانت غير قابلة للمفاوضة، وتعود ملكيتها حصرياً للمستثمرين المستوطنين.

وتوسّع صيد الأميركيين (صيد اليانكي) للحيتان، على امتداد القرن الثامن عشر، وكانت المستعمرات تزود بريطانيا بأربعة أضعاف كمية الزيت التي يحصل عليها الأسطول البريطاني بكامله في جرينلاند في الوقت الذي قامت فيه الثورة الأميركية(ciii). وعلى الرغم من أن صيد الحيتان سرعان ما تراجع على الساحل الشرقي لأميركا الشمالية، فقد تم افتتاح مناطق صيد جديدة على السواحل حول العالم، حيث بدأ الهولنديون بصيد الحيتان الصائبة قرب جنوب أفريقيا في عام 1789، وبدأ البريطانيون بصيد الحيتان الحدباء والصائبة في المحيط الهادئ قرب شواطئ نيوزيلندا في التسعينيات من القرن الثامن عشر، وفي الكثير من القرن التاسع عشر قام صيادو الحيتان بمطاردة الحيتان الحدباء والمقوسة الرأس والصائبة والرمادية من جزر الهند الغربية إلى روسيا وجزر الماديرا والمكسيك(civ). وعلاوة على ذلك كانت مجموعة من الرجال من إحدى الجزر المستعمرة التي تذروها الرياح على وشك أن يتركوا الشاطئ خلفهم.

في أواخر القرن السابع عشر، دُعي اثنان من سكان البر الرئيسي

وهما: جيمس لوبار من لونغ آيلند وايشابود بادوك من كايب كود إلى نانتوكيت لتعليم السكان المحليين كيفية صيد الحيتان، والذين كانوا يراقبون زفير الحيتان الصائبة وهي تعبر بالقرب من جزيرتهم لسنوات[CV]، إذ إن هذه الجزيرة الرملية شبه الجرداء لم يكن فيها إلا القليل من موارد الرزق، وعلى الرغم من أن سكانِ الجزيرة كانوا في معظمهم من الكواكر[1]، ويعتنقون مذهباً صافياً للاعنف، فقد كانوا تلامذة سريعي التعلم وسرعان ما احتضنوا قتل الحيتان. كان سكان نانتوكيت هؤلاء، بالنسبة إلى ميلفيل، مجموعة من الكواكر لديهم ثأر، فيكفي ملاحظة زفير بعيد أو لمحة ظهر أسود متلألئ أو صوت ضربة زعنفة ذيل لإصدار النداء: (إنها تزفرّ) من نقاط المراقبة على الشاطئ، لتنطلق قوارب صيد الحيتان نحو الأمواج.

وفي ظل هذه الظروف من التيقظ والانتباه، أصبحت الحيتان المحلية نادرة واتخذ الصيادون مسارهم بعيداً عن الشاطئ، وبحسب ما أوردته التقاليد المحلية، فقد قام القبطان كريستوفر هوسي بتغيير صناعة صيد الحيتان في عام 1712. ففي إحدى الرحلات إلى مناطق أفواج الأسماك الجنوبية في نانتوكيت، قُذفت مراكب القبطان هوسي إلى البحر، حيث رأى أعداداً هائلة من الزفرات المفردة المائلة، وخلال مطاردة سريعة قام هو وطاقمه بقتل حوت عنبر (سبيرماسيتي spermaceti) – وهو أكبر حيتان أودونتوسيتي odontocete أو الحيتان ذات الأسنان، ولديه رأس ضخم على شكل قبضة اليد.

وعلى الرغم من أن حيتان العنبر spermacetis تفتقد إلى وجود عظام البيلين القيمة والموجودة لدى الحيتان الصائبة، فإن زيتها يحترق بنظافة أكثر، وهو أكثر ثباتاً من زيت حيتان البيلين. وكان

---

(1) جماعة دينية مسيحية بروتستانتية تأسست في إنجلترا في عام 1652 على يد جورج فوكس.

الزيت الشتوي المصفى ثميناً بشكل خاص؛ إذ إن مادة العنبر تتبلور في الزيت عند الحرارة المنخفضة وتتم تصفية الرواسب والشوائب في الربيع والصيف. ويمكن تصنيع الشموع من الشمع السائل الذي عُثر عليه في عضو حوت العنبر الذي يشابه البرميل والذي يُشكل أغلبية الرأس الضخم لحوت العنبر. والعنبر سائل مائي عند حرارة الجسم، لكنه يتحول إلى شمع صلب عند تعرضه للهواء، ليصبح أفضل شمع معروف، وليصبح مقياس الضوء الصناعي، إذ إن قدرة الشمعة الواحدة هي الضوء الصادر من شمعة عنبر بوزن سدس رطل، وتحترق بمعدل قمحتين[1] في الساعة.

وسرعان ما أصبح لدى نانتوكيت أضخم موانئ صيد الحيتان في أميركا الشمالية، وأصبحت الكلمتان (نانتوكيتير Nantucketer، أو ساكن نانتوكيت) وصياد الحيتان مترادفتين، ودُعي السباق المحموم لقارب صيد الحيتان وراء حوت مصاب بالحربون بجولة نانتوكيت للتزلج. وغيّرت مطاردة حيتان العنبر صيد الحيتان من مطاردة تنطلق من الشاطئ إلى رحلة صيد بحري أو محيطي. وقد طوّر صيادو الحيتان من نانتوكيت أسلوباً جديداً لتذويب دهن الحوت، ففي الطريقة الأوروبية التقليدية كان صيادو الحيتان يقطعون الدهن من الحوت في عرض البحر ويقومون بتخزينه في براميل حتى يتم تصفيته في الوطن وفي الستينيات من القرن الثامن عشر بدأ الصيادون من نانتوكيت ببناء أفران على مراكبهم – بناء من الطوب أبعاده 3 × 2.5 م – ويتم فصل دهن الحوت في قدور معدنية كبيرة على ظهر المركب ولعل هذا الابتكار قد صمم ليناسب المياه الدافئة التي تفضلها حيتان العنبر؛ فعلى الرغم من أن الوضع كان جيداً في المياه القطبية، إلا أن براميل الدهن تفسد بسرعة في المياه المدارية المفضلة لدى حيتان العنبر.

---

(1) يقصد بالقمحة هنا وحدة وزن.

وكنتيجة لهذه النقلة النوعية، لم تعد المجتمعات ذات علاقة مباشرة بعملية صيد الحيتان وبدأت نقاط المراقبة المرتكزة على الشاطئ بالاختفاء وكذلك أعمال تذويب الدهن على الشاطئ، وقام الرجال برفع الحيتان في البحر ثم يتم إزالة الدهن أو قطعه في المحيط المفتوح، ويتحول الحوت إلى منتجاته – زيت العنبر، وزيت الحوت، والبيليين – قبل أن يصل إلى الشاطئ. وفي الموانئ كان الحوت عبارة عن برميل من الزيت مغطى بعشب البحر لحمايته من أشعة الشمس على سطح المركب، أو حزمة من العظام. لكنه بالنسبة إلى سكان المدن كان الحوت عبارة عن الضوء الصادر من المصباح أو منظر الساعة الرملية لمشد الخصر النسائي.

وبعد الثورة الأميركية، أضاء زيت العنبر شوارع مدن الأمة الجديدة وأصبح الطلب كبيراً على شموع العنبر، واختفت شموع الودك[1] من العالم القديم[cvi]. وتوسّع أسطول نيوإنجلند بشكل سريع وألقت نانتوكيت بنفسها في خضم صيد الحيتان: فعلى الشاطئ كان صانعو البراميل وصانعو السفن وصانعو الأشرعة وبنّاءو القوارب والحدادون والطحانون والمزارعون، وفي البحر المشرفون على مقدمة السفن وقباطنة السفن وموجهو الدفة والقيمون على السفن. وعلى الشاطئ كان الرجال يرتدون معاطف طويلة قاتمة وقبعات ذات حواف عريضة، وكان موجهو القوارب والصيادون الذين يطلقون الحربون على الحيتان يضعون مشابك من مقدمة السفينة على سترهم، التي غالباً ما تُصنع من خشب البلوط، على الرغم من أن بعضها كان مصنوعاً من عظام الحوت نفسه، وهذه المشابك تعلن عن مكانة حاملها في الأوقات التي يتجول فيها في المدينة – فقد كانت هناك إشاعات تسري بأن بعض الشابات لن يتزوجن إلا رجلاً قتل حوتاً[cvii].

---

(1) مادة شحمية تستخرج من الحيوانات وكانت تستعمل في صناعة الشموع.

وبحسب ما أورده هيرمان ميلفيل، فإن البحث عن الزيت والعظام نتج عنه معركة مفتوحة، فقد أعلن صيادو نانوكيت حرباً أبدية في كل الفصول وعلى امتداد جميع المحيطات على أضخم كتلة حية استطاعت النجاة من الطوفان، وأكثرها بشاعة وضخامة!(cviii)، ولكون هذه الحرب تأخذ مكانها في البحر فهل هناك من عجب أن إيمانويل لوتز[1] صوّر قائد الثورة على متن قارب صيد حيتان عندما رسم لوحته واشنطن يعبر نهر ديلاوير Washington Crossing the Delaware في عام 1851؟ وألم يكن الرجل الذي في مقدمة المركب يستعمل الحربون لإبعاد كتلة من الجليد في أثناء عبورهم إلى نيوجيرسي؟ لا توجد بارجة عالية الجدران، فوسيلة التنقل المعتادة بالنسبة للجنود في القرن الثامن عشر، ستفي بالغرض بالنسبة لجورج واشنطن، فقد انضم إلى عائلات صيد الحيتان المعروفة كعائلة كوفن وموغان كرجل يعيش من دهن الحوت. أو لعل لوتز وجد أن قارب صيد الحيتان العادي أقرب وسيلة إلى يده.

ارتكزت حياة سكان نانتوكت على صيد الحيتان، إذ وصف ج. هكتور سانت جون دو كريفوكوير الكاتب المولود في فرنسا والذي يعمل مزارعاً في نانتوكيت تعليم الأطفال في الجزيرة فقال:

يتعلمون القراءة والكتابة بقدر جيد في المدرسة، حتى يصبحوا في الثانية عشرة من عمرهم، فيصبحون في العادة متدربين في مهنة صناعة البراميل، التي هي الفرع الرئيسي الثاني للأعمال المتبعة هنا، وفي الرابعة عشرة يتم إرسالهم إلى البحر، حيث يقوم مرافقوهم في ساعات فراغهم بتعليمهم فن الملاحة، الذي تكون لديهم فرصة ممارسته على الفور. فيتعلمون الفن العظيم والمفيد عن كيفية إدارة السفينة في جميع الحالات المختلفة التي يتطلبها البحر والرياح غالباً... ثم يمرون بالتدريج في جميع المراحل كمجدفين وموجهي

---

(1) رسام أميركي من أصل ألماني.

الدفة ومسؤولين عن إطلاق الحربون، وحينها يتعلمون الهجوم والمطاردة والتغلب على طريدتهم الضخمة وتقطيعها وإعدادها، وبعد أن يكونوا قد أدوا بضع رحلات مشابهة.. يكونون مناسبين إما لمكتب المحاسبة أو للمطاردة[cix].

وكتب أوبيد ماسي من نانتوكيت أن البحر بالنسبة للبحار هو مجرد طريق، لكنه بالنسبة لصياد الحيتان هو مكان عمل[cx]. والعديد من هؤلاء العمال كانوا عبارة عن أيد نضرة حديثة العهد بهذا المجال، ورغم أن زيت الحوت كان قيماً إلا أن حديثي العهد كانوا يتلقون حصصا زهيدة فقط، ولا يكتسبون أي أجور. كان جزء من الأرباح يُدفع لهم غالباً ما كان أقل من نسبة 200/1 من الربح الصافي، وحتى في الرحلات الناجحة فإن هذه المبالغ كانت بالكاد تغطي ثمن الملابس والتبغ الذي يشتريه العديد من متاجر السفينة، وفي الرحلات غير الناجحة كثيراً، يمكن أن يعود صياد الحيتان الحديث العهد إلى نيوبيدفورد بعد بضع سنوات أمضاها في البحر وهو مدين بالنقود للمالكين.

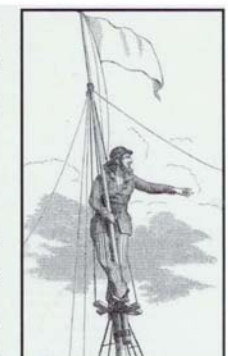
إذاً ما الذي كان يجذبهم نحو صيد الحيتان؟ ربما خُدع بعضهم بما يسميه بودلير[1] السحر الغامض والعميق الذي ينشأ من النظر إلى سفينة، وبعضهم الآخر، كما أوردت إليزابيث هاردويك فيما كتبته عن سيرة حياة ميلفيل، يرغب في الابتعاد عن العبوس، من دون عنوان معروف، بعيداً عن الدائنين والزوجات اللواتي يوجهن الاتهامات ورجال الشرطة اليقظين والتوسل على الشاطئ[cxi]. وكان العديد من المُستجدّين ينتمون إلى عائلات تعمل في الزراعة وآخرون في انتظار الحصول على إرثهم، وغيرهم مثل أصغر الأبناء الذين من غير المحتمل أن يحصلوا على شيء. ولم يكن العبيد الهاربون منظراً غير مألوف على متن سفن صيادي الحيتان الأميركيين

---

(1) شارل بودلير (1821-1867)، شاعر وناقد فني فرنسي.

(صيد اليانكي)، فقد ساعد تعداد سكان نانتوكيت في تأمين أماكن لهؤلاء الذين يتعرضون لخطر إعادة الإمساك بهم من جانب صائدي الجوائز.

كان قضاء بضعة أشهر في أعلى مقدمة السفينة، وهي غرفة على حفرة في هيكل السفينة، أمام غرفة الدهن مباشرة، كافياً ليطرد أوهام الرومانسية عن الحياة في البحر من أذهان الكثير من المستجدين، حيث يبيت ما يقارب 21 رجلاً في هذه الغرفة التي أبعادها 3 × 5 أمتار، التي من الممكن أن تكون مغطاة بغيمة كثيفة قاتمة من دخان التبغ، الذي يقطعه في بعض الأحيان تذمر أحدث الملتحقين بالعمل، وكتب إينوك كلاود وهو فتى في التاسعة عشرة من عمره في أحد أيام الأحد، يقول: (كم أكره هذه الغرفة على السفينة، التي تصدح فيها الأغاني الماجنة عن صهيون والغضب الكافر بدلاً من ترانيم الصلوات والتسبيح!)[cxii].



صورة توضيحية عن نداء (إنها تزفر!) النداء الذي طال انتظار صدوره من قمة الصاري. من كتاب جي. روس براون Etchings of a Whaling Cruise (1846).

كانت سفينة الصيد التقليدية تزن حوالي 300 طن، ولا يتجاوز طولها 30 متراً بكثير من المقدمة إلى الكوثل[1] المربع، وفيها سطحان وثلاث صوارٍ مربعة. وتصنع السطوح من خشب الصنوبر الأبيض ولكن بقية المركب – من الأضلاع حتى الألواح – كانت تُصنع من خشب السنديان[cxiii]، وكانت عريضة بما يكفي لتستوعب مكان التذويب المصنوع من الطوب، والمراجل الحديدية وأجهزة رفع وإنزال القوارب ومكان تقطيع الحوت[cxiv]. بالنسبة لشخص معتاد على السفن الشراعية فإن سفينة صيد الحيتان المسطحة القاع يمكن أن تمنحه شعوراً كما لو أنها تتمايل حيث يبدو الجميع حوله مثل خياط ثمل له قدمان يسراويان[cxv]. ويمكن أن تكون السفينة

(1) مؤخرة السفينة.

الكبيرة مجهزة بأربعة قوارب، ثلاثة على الطرف الأيمن وواحد على الطرف الأيسر، حيث يتم تثبيت الحوت بعد الإمساك به[cxvi].

وعقب مشاهدة الحوت، يصرخ الموجود في نقطة المراقبة (زفرات!) أو (إنها تزفر!)، وتُنزل القوارب إلى الماء لتبدأ المطاردة. كان طول قارب صيد الحيتان حوالي 8 أمتار، له نهاية حادة من الطرفين في حال انقلب أثناء المطاردة، ويحمل خمسة مجدفين ومسؤولاً عن سلاح الحربون، وبحسب ما أورده إيللز فإن سفينة صيد الحيتان الأميركية يمكن أن تحمل ما بين 25 – 35 رجلاً:

«يكسب القبطان حوالي ثمن أو عشر الأرباح الصافية، بينما يكسب نائب القبطان 15/1 من الأرباح ويكسب المسؤول عن سلاح الحربون 90/1. في حين أن أفضل ما يأمله الملاحون العاديون هو 150/1، وهناك أماكن في السجلات حيث التحق المستجدون بالعمل في مقابل 350/1. ولكن ما الذي يعنيه هذا بمصطلح النقود الفعلية؟... خلال ست رحلات متتالية مجموعها 1218 يوماً في البحر من عام 1845 إلى 1868، كان متوسط العائد للرحلة الواحدة لجيمس موري صياد الحيتان من سالم 321.21 دولار أو حوالي 26 سنتاً في اليوم، وهذا شكّل مقارنة غير سارة بالأجور التي كانت تُدفع للعمال غير المهرة... لكن مالكي الأراضي لم يتسن لهم زيارة جزر المحيط الهادئ الساحرة، إذ يمكن أن يلتهمهم آكلو لحوم البشر، أو أن يخاطروا بحياتهم في قتال الحيتان العملاقة[cxvii]».

ادعى إسماعيل أن رحلته على متن البيكود Pequed كانت (دراسته في جامعة ييل وهارفرد)، لكن لم ينظر الجميع إلى الرحلة على أنها تعليم. فقد كتب موجه القوارب دين رايت يتحدث عن المستجدين: (كان عليهم أن يمضوا ثلاث أو أربع سنوات من أفضل سني حياتهم في القيام بعمل لا يستطيعون فهمه، ولن يتمكنوا عبره من استرداد أي شيء يكافئ الوقت الذي أنفقوه)[cxviii]. ومع ذلك

كانت هناك قلة في الجامعة تقول إن ادعاء إسماعيل وشكوى موجة القوارب ليستا تبادليتين حصرياً، فبالنسبة إلى هؤلاء العالقين في صيد الحيتان كان يمكن كسب عيش لائق كربان.

استمر إيقاع الحياة على متن السفينة في أغاني البحارة التي كانوا يقومون بغنائها عندما يرفعون الشراع أو يقومون بتقطيع الحيتان. وقد يعرف صيادو الحيتان الذين اصطادوا في المياه الجنوبية للمحيط الهادئ أغنية (منذ وقت طويل)...

عزمت على الذهاب إلى البحر
عزمت على الذهاب إلى البحر
أرجو من الرب ألا أكون قد ولدت
كي أتجول حول رأس كايب[1]

حول رأس كايب حيث تهب الرياح العاتية
حول رأس كايب مع البَرَد والثلج...
حول رأس كايب مع الفقمات المتجمدة،
حول رأس كايب لأصطاد الحيتان[cxix].

وبحلول الوقت الذي يصلون فيه إلى الرأس، يكون العديد من الشبان قد وعدوا أنفسهم بألا يخرجوا لصيد الحيتان ثانية، وقد كان صيادو الحيتان صغاراً في العمر فلم يكن أمراً مستغرباً أن تجد فتياناً في الثانية عشرة من عمرهم في السلوقية[2]. وفي سن السابعة عشرة قد يجد مراهق مصمم نفسه في مقدمة مركب صيد حيتان، يصوّب الحراب على حوته الأول.

(1) آخر نقطة في أميركا الجنوبية.

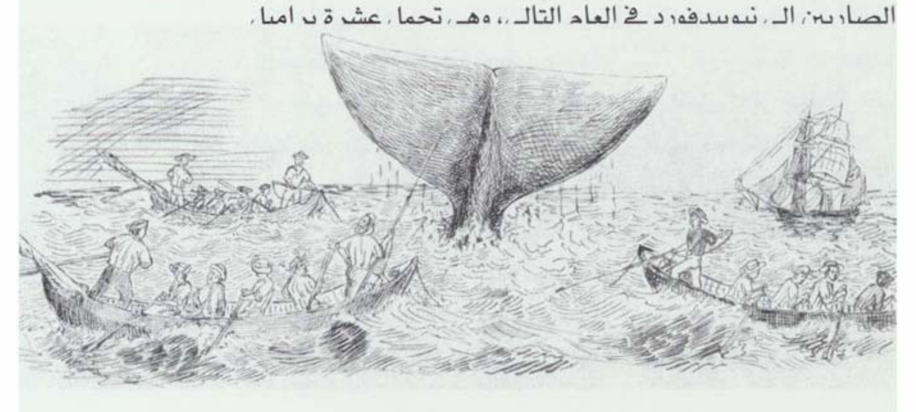
(2) غرفة استراحة الطاقم في مقدمة السفينة.

وبحكم الضرورة كان المستجدون يتعلمون الأساسيات في البحر، ويقوم القبطان بتوزيعهم على القوارب، كي لا يقوموا بإبطاء تقدمه عندما يخفقون حتماً في رفع مجاديفهم من الماء ويخرجون عن تواتر القارب. ومن مؤخرة السفينة يصرخ مساعد الربان (اكسروا ظهوركم!)، بينما يأخذ كل واحد مجدافاً، وكان من الأفضل أن تكون سريعاً لأن الربان ذا القبضة الحديدية والقلب الحديدي غالباً ما يجبر المعلومات على الدخول إلى عقولهم بضربهم بأي شيء يصل إلى متناول يديه(cxx).

لا بد أن الاقتراب من أول حوت عنبر، قد يكون حجمه ضعفي حجم القارب، وله رأس هائل الحجم يشبه القبضة، يشكل واحدة من أكثر اللحظات إرهاقاً ورعباً في حياة المستجدين الشبان. ويقترح علماء التطور أن حجم الحوت الذكر وكتلة رأسه الضخمة أمام عينيه، تطورت مثل آلة حربية لإيذاء الحيتان المنافسة، فخلال الهجوم تكسر الذكور أسنانها على رأس الحوت المنافس.

وفي بعض الأحيان، تستعمل الحيتان هذه الأسلحة لتهاجم المعتدين الأرضيين، فقد قتل حوت قبطان سفينة إيملين Emeline القبطان وود في تموز من عام 1842، وعادت السفينة الشراعية ذات الصاريين إلى نيوبدفورد في العام التالي، وهي تحمل عشرة براميل

يظهر هذا الرسم الذي رسمه صياد بالحربون على متن سفينة تشارلز دبليو. مورغان الانطباع الأكبر من الحياة الذي يتركه حجم حوت العنبر على الصيادين.



من الزيت بعد 26 شهراً من الإبحار. وفي عام 1851، هاجم حوت قارب صيد وحطمه إلى قطع صغيرة بحجم الكرسي العادي[cxxi]. ثم بدأ بمهاجمة قارب ثان، وبعدها ضرب السفينة ليحدث حفرة كبيرة في كامل قاعها[cxxii]. وتم انتشال ملاحيها في اليوم التالي.

وقع أشهر هجوم على سفينة صيد حيتان تدعى إيسيكس Essex في عام 1819، وقد كتب أوين تشايس مساعد الربان: (انقطع أمل الطاقم في جميع إمكانيات وآمال الحياة، عندما هاجم حوت ذكر السفينة وقلبها وسبح بعيداً بدون أي إصابة ظاهرة، على الرغم من أنه بقي في مجال الرؤية عدة ساعات، وقام الطاقم بربط قواربهم إلى جانب السفينة البعيد عن الرياح) وفي تلك الليلة غزا الحوت أحلام تشايس: (سيطر منظر الحطام الكئيب وشكله البشع وانتقام الحوت على كامل تفكيري، حتى طلع نهار اليوم التالي). لقد كان تشايس مقتنعاً أن الحوت هاجم السفينة متعمداً[cxxiii].

قرر القبطان والطاقم التجديف نحو أميركا الجنوبية أكثر من 3.000 كيلومتر إلى الشرق، على الرغم من أنهم كانوا قريبين من تاهيتي، وعلق القبطان على قرارهم تجنب الجزر المأهولة Society Islands بقوله: (شعرنا بالخوف من أن آكلي لحم البشر سيأكلوننا إن نحن وضعنا أنفسنا تحت رحمتهم)[cxxiv].

بقي ملاحو سفينة ايسكيس Essex مع بعض المؤن القليلة: ففي البداية كان الواحد منهم يحصل على نصف بسكويتة وباينت[1] واحد من الماء، وبعد عشرة أيام، أكلوا سلاحف غالاباغوس من متاجر السفينة، وقلّت المؤن أكثر وأكثر بمرور الأيام (تحت أشعة الشمس المحرقة... التي انصبت على صحتنا وأرواحنا بقوة وشدة مذهلتين)[cxxv]. وبعد مضي شهرين على وجودهم في البحر، وجد

(1) وحدة وزن تساوي نصف لتر من الماء تقريباً.

الملاحون المهملون أنفسهم محاطين بالحيتان وشعروا بالخوف من الضجة المرعبة التي تصدر عن زفير الحيتان واستمعوا إلى أصوات الزفير وضربات ذيولها، وكتب تشايس معلقاً: (تصورت عقولنا المتعبة أشكالهم المخيفة والمرعبة، وكان الرجال ضعفاء جداً ليتمكنوا من رفع ذراع واحدة للدفاع عن أنفسهم، وعبرت الحيتان مؤخرة القارب وهي تزفر وتنفث الماء بأعداد مخيفة واختفت)[cxxvi].

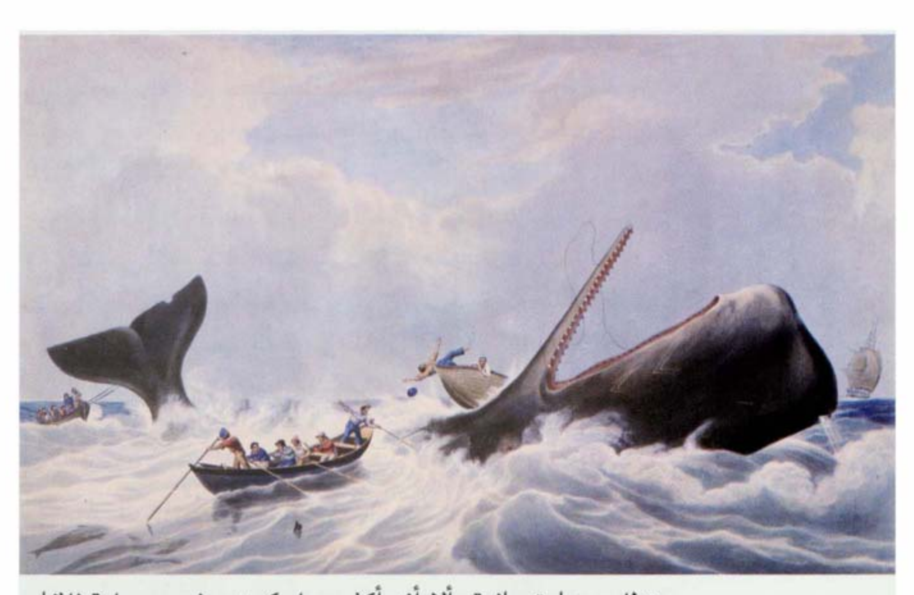
وبعد مرور شهرين لم يبق شيء إلا جلود الملاحين وعظامهم. وعلى قارب تشايس، تم تحضير جثة إيزاك كول، لتكون طعاماً بدلاً من التخلص منها في البحر. والتهم الملاحون قلبه ثم قاموا بتجفيف وشي لحمه ليتناولوه في الأيام القادمة. وعلى قارب القبطان الذي يواجه المجاعة بعد استهلاك الموتى، قام أربعة رجال بإلقاء قرعة وبنتيجة ذلك تم إطلاق النار على أوين كوفين وأكله.

وأصبح الرجال الخمسة الذين نجوا قادة للسفن، واستطاع تشايس أن يملأ مستودعات تشارلز كارول مرتين بـ 2.600 برميل من زيت حوت العنبر، وقيل إنه في سنواته الأخيرة، كان يأخذ الطعام إلى مخبئه في عليّة منزله في نانتوكيت[cxxvii]. وهكذا أصبح لمجتمع صيادي الحيتان أساطيره الخاصة.

كان لأفضل صيادي الحيتان قيمة عالية ولهذا فقد أمضوا معظم حياتهم في البحر، وقد كتب ج. ن. رينولدز يصف لقاءه بمساعد الربان المميّز:

كان يبدو متآلفاً بشكلٍ حميمي مع عادات وغرائز أهداف مطاردته، مع إلمام قليل جداً بالأمور العادية في الحياة، حتى إن المرء ليشعر برغبة أقل في تصنيفه ضمن النوع البشري، بحيث يكون نوعاً متوسطاً لشيء بين الإنسان وقبيلة الحيتانيات[cxxviii].

وكان الصياد بالحربون ذا قيمة لا تقدر بثمن في جميع الموانئ التي ترسو فيها سفينة صيد الحيتان، وعلى الرغم من أن موقعه



اللوحة المائية للفنان دبليو. جي. هوغينز تعود لعام 1834، وتظهر فيها القوارب وهي تهاجم حوت عنبر، وهي تعد أحد أعظم الصور عن صيد الحيتان في القرن التاسع عشر، وتقدم نموذج مبدئياً للعديد من تصاوير صيد الحيتان التالية عن عمليات الصيد في البحر الجنوبي.

يتطلب مهارة عالية، ألا أنه أكثر عمل كريه، وليس مجلبة للثناء، فالرجل الذي يخرج إلى رحلة واحدة في عمل صيد الحيتان ثم يبحر ثانية ليقوم بواجب موجه الدفة يجب أن يكون إما مجنوناً أو ثملاً، وإلا فإنه أحمق أو قديس(cxxix).

وعند الوصول إلى الحوت بعد التجديف زهاء الميل، يصدر الأمر إلى موجه الدفة ليقف ويواجه الطريدة، وعليه أن يمسك الحربون الأعلى؛ الأحدث والأكثر حدة، على المقدمة اليمنى، ويثبت فخذه الأيسر في مقابل مربط الحبال غير المصقول في ثلم على مقدمة المركب، وينادي مساعد الربان (أعطه إياها!) وكان على موجه الدفة أن يسحب الحديد. وكان الحبل الحديدي الذي تمت تحميته وتقسيته باستخدام كرة حديدية ضخمة، يغمس في الماء لمنعه من الاحتراق نتيجة الاحتكاك.

كان على القارب أن يتسابق عبر سطح الماء، يقطره الحوت خلفه

في محاولة للهرب من قدره، وإن لم يغطس الحوت عميقاً جداً ليجبر مساعد الربان على قطع الحبل فإن مصيره يغدو بين يديه – على شكل حربة بطول 3.5 متر، أو معدن قاتل، له نصل على شكل ورقة الشجر ليخترق أعضاء الحوت الحيوية.

ينادي مساعد الربان: (المدخنة تحترق!) عندما تصيب الحربة هدفها، الذي عادة ما يكون القلب أو الرئتين، ويصبح الزفير نفخة بلون الدم القاني. وما إن يصب الحوت بالحربة القاتلة حتى ينفر الدم من منخره، وكثيراً ما كان هذا الدم يتناثر على الرجال في القوارب الذين يفخرون بإظهار ذلك!. ولاحظ الجراح البريطاني توماس بيال أنه وقبل موت الحوت مباشرة، فإن كل قوته تدفع جسده الهائل إلى الحركة لبضع ثوان، ويدفعه اضطرابه إلى القيام بمئات الحركات الملتوية المختلفة والعنيفة جداً، التي تجعل البحر يتحول إلى رغوة وتتحطم القوارب في بعض الأحيان إلى ذرات صغيرة مع ملاحيها[cxxx]. وكتب مساعد الربان والأديب فرانك بولين أن هذا الاهتياج الأخير يتبعه الصمت، (فترة قصيرة من المقاومة التي تهدأ تدريجياً لتنجح مساعينا باستسلام الوحش الكبير، فيسيطر السكون على كل شيء ثانية، ماعدا صوت الأمواج الغريب المنخفض، وهي تتكسر على جوانب كتلة اللحم الهائلة التي تعيق بهدوء حرية انسيابها[cxxxi].

ووفقاً للأغنية الأميركية لصيد الحيتان (ها هي تزفر)، فإن الجواب يكون فرحا غامراً:

يصيبها الرمح في قلبها وينتهي الصراع
وتغرق بهدوء ومدخنتها تحترق
وتعلو صرخات الفرح من قلب كل بحار شجاع
لتكافئ صوت زبد البحر الهائج
انظر إلى فتحة الزفير لترى الإشارات الحمراء تتطاير

لتموت ببطء شديد وتنتهي المقاومة[cxxxii].

وعلى الرغم من الأصوات المليئة بالفرح، تظهر مشاعر مختلطة على بعض القوارب. ولقد كتب إينوك كلاود يقول بعد أن صرعت سفينته حوتاً صائباً:

«استدارت بسرعة ورفعت رأسها الهائل الحجم فوق سطح الماء وثبتت عينيها على القارب وعندها بدأت تخور بشدة، وببطء هدأت تماماً»!

لقد كان ذلك أكثر مشهد مرعب شهدته... من المؤلم مشاهدة موت أصغر المخلوقات التي خلقها الرب، فما بالكم بمخلوق كالحوت تحتفظ حياته بكل هذه الحيوية! وعندما رأيت هذا؛ أضخم وأكثر المخلوقات إخافة بين الحيوانات، وهو ينزف وينتفض ويموت ضحية مكر الإنسان، كانت مشاعري خاصة بالفعل![cxxxii]

قد لا يعبّر صيادو الحيتان عن مثل التعاطف مع طريدتهم، لكن موت أم مع صغيرها يمكن أن يكسر حتى أقسى المظاهر المتصنعة: فلقد قال أحد الصيادين: (عندها تشعر بهذا السوء، فعندما نقتل الأم فإن الحليب الذي تُرضعه لصغيرها ينساب منها ليجعل المحيط حولنا بلون أبيض)[cxxxiv].

وبعد المطاردة الطويلة والمجهود الكبير لجر الطريدة عائدين إلى السفينة، يبدأ العمل الحقيقي. وعادة ما يكون الملاح على الصاري الأمامي مسؤولاً عن تدوير السلاسل الثقيلة من خلال الفك الكبير وحول الذيل، وتثبيت الحوت إلى هيكل السفينة من المقدمة إلى المؤخرة، ويماثل الحوت الميت الحوت الحي في الخطورة عندما يكون البحر هائجاً، وقد وصف ذلك، فيما بعد، الكاتب روبرت ماكنالي، فكتب (المعدات تتأرجح وكذلك قطع الدهن والسكاكين والرفوش، وسطح السفينة يتمايل، وأسراب من القروش تنجذب نحو الجثة

ويمكنها أن تبتر أحد أطرافنا أو تقتلنا وكثيراً ما فعلت ذلك)[cxxxv].

وبالطبع لم يكن صيد الحيتان رقصة بالية تم التمرن عليها، لكنه صراع يختلف من سفينة إلى أخرى، ومن حوت إلى آخر، ومن يوم إلى آخر. وحتى عندما يتم تثبيت الحوت إلى السفينة، فمن الممكن أن يفقدوه خلال العواصف، على اعتبار أن عملية تثبيته كانت مستحيلة في الطقس السيئ، إذ يمكن أن تقتلع رؤوس الحيتان من السلاسل التي تمسك بها، وتُفقد معها مئات الباوندات من العنبر، أو أن يحدث الأسوأ بازدياد العاصفة، فيتمدد الحوت ويرتفع فوق سطح المركب مثل جبل في قلب الأمواج.

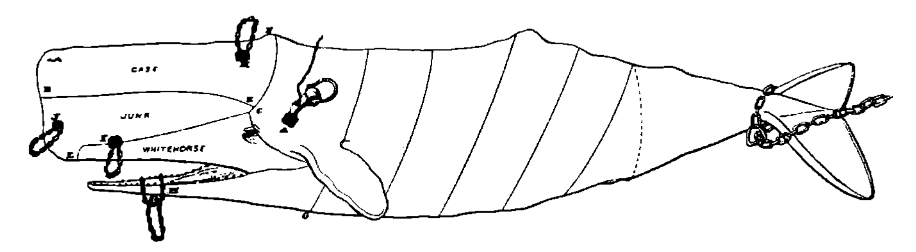
وفجأة، ومع خوار يشبه صوت انفجار سد، تجد الغازات المحتبسة طريقها غاضبة خارج جثة الحوت المنتفخة، لتقذف بأحشائه المتشابكة وتنشرها على مدى واسع في البحر... وتجد الرائحة النتنة التي لا يمكن وصفها طريقها السام عائدة من خلال انفجار قوي وشنيع لتغطي كل ركن من أركان السفينة ببخارها القذر إلى أن يحتج صاحب المعدة الأقوى بمصطلحات واضحة ضد مثل هذه المعاملة الخسيسة... ويعطي الربان أوامره للتخلص من الكتلة الفاسدة ليجرفها البحر، ومعها يذهب ما قيمته ثمانمائة باوند من الزيت[cxxxvi].

وفي حال كان البحر يسمح بذلك، يتم تخفيض حواف منصات القطع عبر سلسلة من البكرات ويتم تدوير جثة الحوت وبحسب ما قاله ميلفيل فإن (دهن الحوت يتم سلخه من جسده بدقة مثل برتقالة تقشر بشكل دائري)[cxxxvii]. وتتم إزالة الرأس ويقطع الدهن إلى طبقات منبسطة بطول 4.5 متر تقريباً، وتزن حوالي الطن، وعلى متن سفينة ذات إدارة جيدة، يتم رفع هذه الطبقات بتعاقب سريع، وفي العادة ما يتم إنزالها إلى المخزن الرئيسي أو غرفة الدهن، حيث

يتم تقطيعها إلى قطع أصغر، ثم إلى شرائح بحجم الكتب على ألواح خشبية طويلة على سطح السفينة وكان الدهن الذي ينسكب من الجلد يشبه الصفحات المفلطحة لكتاب كبير ثقيل. وتوضع الشرائح في قدور التذويب وتُغلى لإزالة الزيت، وبعد تذويبها، تُزال الأجزاء أو قطع جلد الحوت التي لم تذب من على سطح القدر وتستعمل لتغذية لهيب النار. وبينما يتم التعامل مع الحوت، يقوم صانع البراميل بتجميع البراميل المخزنة كحزمة من أضلاع البرميل المستعملة أو إطاراتها، لتوفير المساحة، ويلزم 36 ساعة لإنجاز العمل على الحوت التقليدي.

وفي نهاية اليوم، يصبح الحوت مجرد ختم على سجل، وعدداً من البراميل المستخرجة منه، إذ إن الأنثى المتوسطة تنتج حوالي 30-35 برميلاً من الزيت، لكن الذكر الأضخم يمكن أن ينتج 90 برميلاً[cxxxviii]؛ أي حوالي 11.000 لتر، أو ما يكفي لملء حوض سباحة صغير. ويمكن للزيت المستخرج من الحوت العادي أن يضيء مصباح إشارة لحوالي عقد من الزمان، أو يبقي منارة مضيئة زهاء السنة. وكذا يُراق الزيت منذ زمن بعيد، فكل ما بقي من أغلبية الحيتان التي قُتلت هي السجلات المملة: جانيس 1843: (قام الحوت بكذا.... وكذا.... وكذا... وغادر جزيرة ديسوليشن (Desolation Island) في اتجاه الشمال). روبرت إدواردز 1864: (حصلت على واحد... حصلت على واحد... حصلت على واحد..).

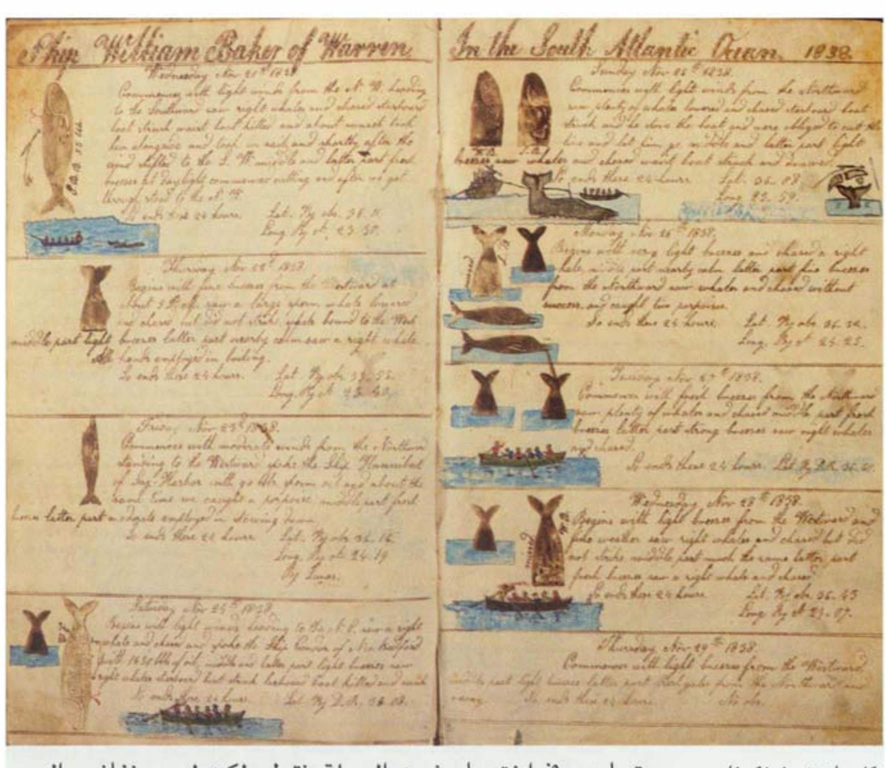
توضح هذه الصورة المخطط الذي وضعه تشارلز سكامون عن طريقة تثبيت الحوت في القرن التاسع عشر.



صورة توضح حجم زعانف ذيل حوت عنبر.



كان صيادو الحيتان، غالباً كالرجال، مهتمين أكثر بكسب رزقهم اليومي، وعدد البراميل التي وضعوها على سطح المركب أكثر من اهتمامهم بأمر الحيتان نفسها. فما إن يتأقلم المستجدون مع حركة السفينة المتمايلة حتى يتجرؤوا على تجربة تناول الديدان (grub). وكتب بولين: (لا يمكنني أن أشتم الطعام من خلال استعماله بهذه الطريقة). فعلى العشاء: القليل من الطعام المملح وقطعة من الخبز؛ أو بسكويتة قاسية مثل القرميد، مع قصعة من شيء محلّى بالدبس شكلّت اعتذاراً لوجبة الطعام[cxxxix]. وبسبب حصص الطعام البسيطة هذه فقد كانوا يرحبون بشكل خاص بلحم خنازير البحر، التي يتم الإمساك بها في البحر، إذ إنها لا تزودهم ببعض الزيت،


Ship William Baker of Warren
In the South Atlantic Ocean 1838

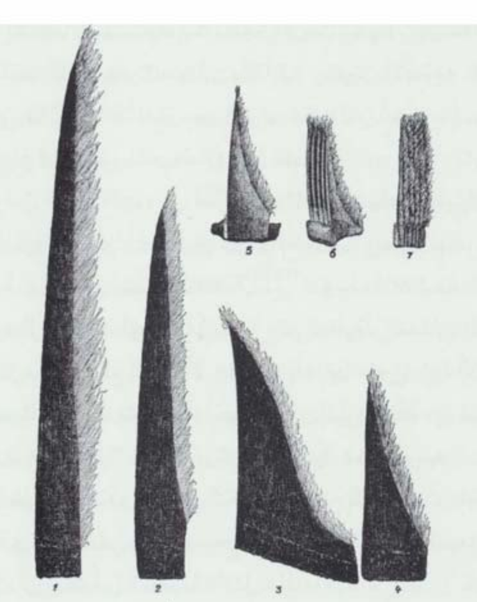
وتساعد في اختصار زمن الرحلة فقط، لكن لحم خنازير البحر عندما يُطبخ بشكل لائق، يصبح وجبة طعام ممتازة بالنسبة للبؤساء من طاقم الملاحة شبه الواقعين في مجاعة. وسببت حركة الأمواج امتعاضاً بين أعضاء الطاقم والقبطان. وقد كتب كلود في مذكراته في عام 1852:

«العمل لا يساوي شيئاً – لكننا لا نحصل على ما يكفي لنأكله! إن روح فينال (التي تستحق ألا تحتل إلا مكاناً صغيراً في مثانة بعوضة) موهوبة بقدر كبير من الأنانية! فهو يملأ طبقه بأفضل الأطعمة، في حين أن الطاقم لا يحصل على ما يكفي من الخبز القاسي واللحم

كل ما تبقى ليذكرنا بالحيتان التي تم اصطيادها في القرن التاسع عشر، بعد احتراق الزيت، هو صفحات السجلات فقط.

توضح هذه الصورة الأحجام النسبية لصفائح البيلين في عظم فك الحوت:

1 - الحوت المقوس الرأس.
2 - الحوت الصائب
3 - الحوت ذو الزعنفة
4 - الحوت الأحدب
5 - 7 الحوت الرمادي.



المملح! أهكذا سيكون صيد الحيتان؟!!!!»(cxl).

ليس مفاجئاً أن التوقف في جزر الغالاباغوس كان يُعامل بمتعة بالغة، وكان جميع من على المركب يعمل في صيد السلاحف، لأنه من الممكن تخزينها لأشهر، إذ إن سلاحف جزر غالاباغوس لها قيمة عالية عند صيادي الحيتان اليائسين للحصول على لحم طازج، وكذلك من قبل قبطان يأمل في إطالة رحلة غير محظوظة وعكس حظه. وعلى الرغم من أن الظن السائد كان بأن السلاحف لها منظر غير مقبول يشبه الثعبان الكبير، فإن لحمها كان يعد جيداً جداً(cxli). كانت الزواحف بطيئة الحركة طريدة سهلة جداً، فخلال خمسة أيام قام دانيل لنكولن بالقبض على 273 سلحفاة من جزيرة شاتام فقط. سرعان ما فرغت الكثير من الجزر من السلاحف البالغة بسبب إزالة صيادي الحيتان

لعشرات الآلاف منها، وقامت الجرذان الدخيلة بإزاحة البيوض المتبقية. لقد قام صيد الحيتان بالتأكيد بتغيير الأنظمة البيئية في المحيط من خلال إزالة المفترسين الكبار، لكنه كان أيضاً سبب انقراض بعض الأنواع على جزر المحيط الهادئ نفسها.

في موانئ البحر الجنوبي، مثل ساموا، كان صيادو الحيتان يعيدون ملء مخازنهم باليام[1]، والدواجن والخنازير وجوز الهند والفواكه الاستوائية والماء وخشب التدفئة[cxlii]. وبينما تصعد الخنازير يغادر الرجال الساخطون، وغالباً ما يتم توظيف السكان المحليين أو خطفهم لملء المضاجع الفارغة، وأقسم العديد ممن بقوا ألا يخرجوا لصيد الحيتان ثانية. وقد كتب أحد الشبان إلى والدته من على سفينة Junior في عام 1860: (إن الحيتان نادرة في هذا الموسم... والجميع محبطو العزائم وفقدوا جميع الآمال في هذه الرحلة... سيكون على الرجل الذي سيدفعني إلى الخروج لصيد الحيتان ثانية، بعد أن أعود إلى المنزل أن يعطيني السفينة لأفعل ذلك).

حتى القباطنة عانوا من مرور سنوات طويلة بعيداً عن منازلهم، وقد كتب تشارلز ويكز لزوجته من المحيط الأطلسي الجنوبي:

20 آذار، 1830

أفضل أن أعيش على وجبتين في اليوم وأكون مع زوجتي العزيزة على أن أحصل على كل الترف الذي يمكن لهذا العالم أن يقدمه، وأنا بعيد عنها تسعة أعشار الوقت، وأنا هنا أمام حامل هذه الرسالة أقول إن سفينة حيرام حصلت على 1500 برميل في تشرين الثاني الماضي وأن سفينة آيريس تحمل 1200 برميل.

24 تشرين الثاني، 1830

أنا مصمم على ألا يقوم المحيط بتفريقنا ثانية، طالما أن

(1) نوع من البطاطا.

باستطاعتنا أن نعيش بحب وتناغم مع بعضنا وألا نخسر الكثير من أملاكنا، وربما ستقولين إني كتبت لك مثل هذا الكلام من قبل... لكني لم أكن أشعر بالتعب من البحر كما أنا الآن، ليس من البحر فقط، ولكن من هذا الابتعاد عن زوجتي الحبيبة. ها هي تزفر، لذا يجب عليّ أن أتوقف عن الكتابة(cxliv).

على الرغم من الصراع داخله بين الإخلاص والزيت، فلعل ويكز كان صادقاً في كلامه، فلا يوجد هناك أي سجل يذكر أنه قاد سفينة مرة أخرى. وعلى أي حال فإن أغلب القباطنة الذين استطاعوا شق طريقهم من غرفة الطاقم في مقدمة السفينة إلى قمرة القيادة في مؤخرتها قد أمضوا أغلبية حياتهم وهم راشدون في البحر. ولعلهم كانوا يتطلعون قدماً نحو الرحلة التي قد تمكنهم من التقاعد، ولكن بالنسبة للكثيرين، فإن ذلك اليوم لم يأتِ أبداً. ووصف نعي القبطان ناثانيال سكيف سميث في صحيفة فينيارد غازيت حياة القبطان النمطية: (عاش منفياً عن منزله لمدة 35 عاماً تقريباً حيث أمضى ما يقارب 5 سنوات منها مع عائلته) وقد توفي القبطان سميث بعد رحلته الأخيرة بوقت قصير(cxlv).

ونظراً للوقت الطويل الذي يقضيه القباطنة بعيداً عن منازلهم وقمراتهم الفسيحة نسبياً، فقد قام بعضهم باصطحاب عائلاتهم معهم في الرحلات، وكان عليهم دفع قيمة هذا الامتياز لمالكي السفينة، والذي يكلف حوالي 1.000 دولار للزوجة بمفردها. وتتذكر ابنة ولدت في جزر إيزوريس[1] Azores على الطريق إلى مناطق الصيد في المحيط الهادئ: (ما إن يتم إحضار الحوت إلى جانب السفينة، حتى تبدأ أمي استعداداتها للأوقات القذرة التي ستمر بها السفينة، وكنت أرتدي ثوباً من الخيش البني الغامق (ودائما ما كان يبدو لي أنه لا يجب أن يكون بسيطاً هكذا) وزوجاً من الأحذية

---

(1) مجموعة من الجزر في المحيط الأطلسي.

القديمة)، وبعد عدة سنوات في البحر ستكون بقع زيت الحوت المغلي قد تغلغلت في جميع ثياب العائلة. وربما يكون الأمر السيئ من وجهة نظر زوجة القبطان، أن جميع ملابسها لم تعد متناسبة مع الموضة الدارجة منذ مغادرتها للمنزل [cxlvi].

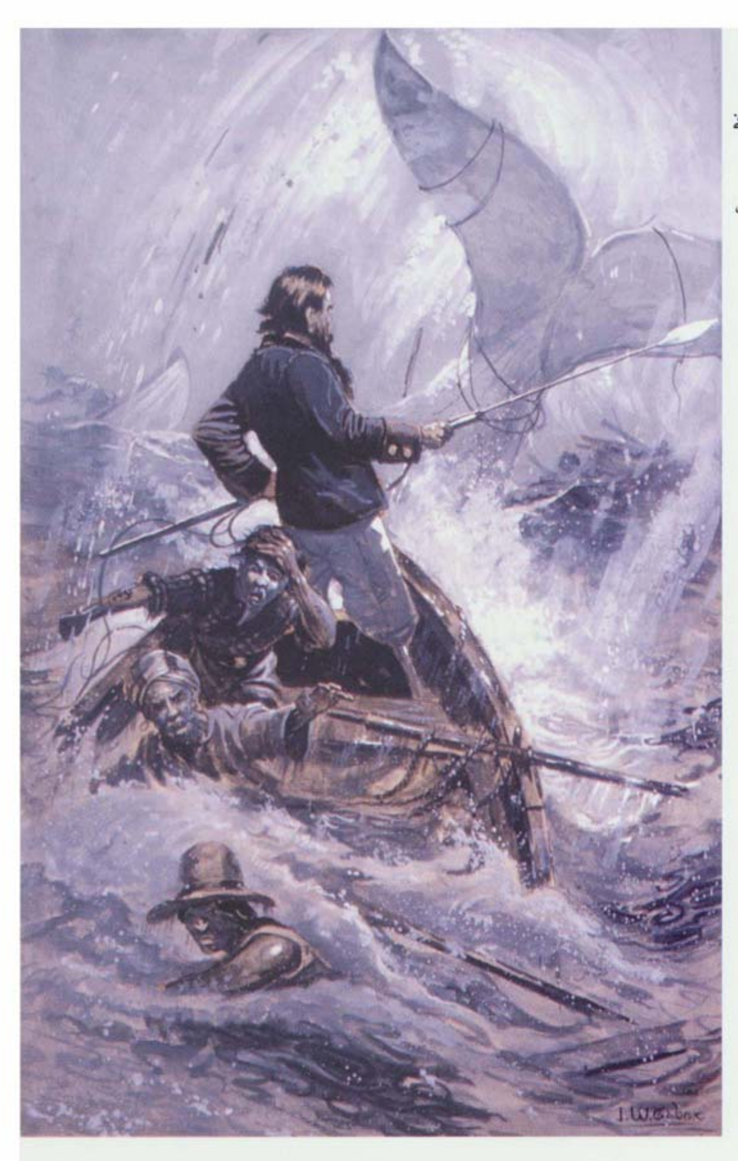
وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، حلّت نيوبيدفورد في ولاية ماساشوستس محل نانتوكيت في صيد الحيتان. وفي عام 1850 غادرت سفينة أماسيث[1] من نيوبيدفورد نحو المحيط الهادئ لتعود بعد 45 شهراً في البحر محملّة بحوالي 2.300 برميل من زيت الحوت، واستطاعت سفينة ليفربول التي غادرت أيضاً من نيوبيدفورد أن تجمع أكثر من 22.000 باوند من عظم فك الحوت وحوالي 2.000 برميل من الزيت، في حين أغرق حوتٌ سفينة آن ألكسندر من نيوبيدفورد بعد أن استطاعت أن ترسل إلى الوطن 115 برميلاً من زيت العنبر، وحطّم الجليد سفينة أميركا الثانية في بحر أنادير. وأبحرت سفينة جان هويز من بروفينستاون في ولاية ماساشاوستس في المحيط الأطلسي الشمالي لخمسة أشهر، وعادت وهي تحمل 160 برميلاً فقط من زيت العنبر. وغادر القبطان براون قبطان سفينة أود فيلو Odd Fellow من ميناء ساغ هاربر في لونغ آيلند ثم قُتِل لاحقاً أثناء تثبيت حوت على السفينة. كانت هذه الرحلات بعضاً من 203 رحلات غادرت في تلك السنة، حسب ما سجلّه ألكسندر ستارباك في كتابه الشامل History of the American Whale Fishery from its Very Inception to the Year 1876[cxlvii].

في عام 1850: كان إدغار آلان بو وجون جيمس أودوبون قد ماتا مؤخرا في مدينة نيويورك – بو مات في فقر مدقع، وأودوبون في منتصف عمله على Viviparous Quadrupeds of North America. ويعمل الملازم م. ف. موري على خريطة لتوزع الحيتان في

(1) اسمها يعني حجر الجمشت وهو من الأحجار الكريمة.

محيطات العالم، وهي من الكلاسيكيات التي لا يزال مؤرخو وعلماء الأحياء اليوم يعودون إليها. ويقوم تشارلز م. سكامون بالإبحار إلى كاليفورنيا من موطنه الأصلي ماين؛ وما إن تخلص من حمى البحث عن الذهب حتى وجد سفينة صيد حيتان ليقودها ومن ثم ليكتب فيما بعد واحدة من أفضل دراسات الحيوانات في القرن التاسع عشر عن الثدييات البحرية. يقوم ثورو بتنقيح روايته والدن، ويكتب والت ويتمان، الصحفي في بروكلين، أشعاراً ستصدر في ديوان صغير بعنوان Leaves of Grass، وتكتب هارييت بيتشر ستو، وهي من المتحمسين لإبطال قانون العبودية، روايتها كوخ العم توم Uncle Tom's Cabin، أو Life Among the Lowly، التي عندما تنشرها في السنة التالية، ستساعد في ترسيخ المعارضة الشمالية ضد العبودية، وتؤدي إلى الحرب الأهلية الأميركية. وتكتب الشابة ذات التسعة عشر عاماً إيميلي ديكنسون الشعر في مدينة إيمريست في ماساشوستس، إلى زميلة سابقة لها في المدرسة: (أبيا، إن الشاطئ أكثر أماناً لكني أحب مقارعة البحر - أنا أعُد الحطام المرير في هذه المياه السارة، وأستمع إلى زمجرة الرياح، ولكن، آه كم أحب الخطر!)(cxlviii)، ويقوم هيرمان ميلفيل، المؤلف المحتفى بروايته Typee، وهي رواية ترتكز على أسفار على متن سفينة صيد حيتان في جنوب المحيط الهادئ، بلملمة آخر قصصه عن صيد الحيتان، التي انقضى وقت تسليمها لناشريه في لندن. وبعد لقائه بناثانيال هاوثورن في جبال بيركشاير، انتقل إلى آروهيد ليقيم في مزرعة مساحتها 160 فداناً، قرب منزل هاوثورن، ويمضي ميلفيل عام 1850 وأغلبية عام 1851، في تحويل مغامرته الجديدة إلى رواية موبي ديك Moby-Dick.

ولأنه يجب علينا التحدث عنه، فإن كاتب الخيال المبدع، صاحب 900 باوند، لا، تلك التي تحمل اللوثيان الذي يزن 50 طناً إلى الغرفة: Moby-Dick. فسنتحدث عن ميلفيل الذي ولد في نيويورك عام 1819،



ظهر إيهاب في هذه الصورة وهو يواجه الحوت موبي ديك في واجهة رواية ميلفيل للنسخة التي صدرت عام 1899.

وعمل محاسباً، ثم خدم على متن سفينة تجارية، وعلّم في مدرسة في جرينبوش في نيويورك حتى تم تسريحه، لأن مجلس إدارة المدرسة لم يعد قادراً على دفع راتبه. وفي الثالث من كانون الثاني من عام 1841 أبحر على متن قارب صيد حيتان يسمى Acushnet أكيوشنت من ميناء فيرهيفن في ولاية ماساشوستس، متجهاً نحو المحيط الهادئ، واستمرت رحلة ميلفيل زهاء ثمانية عشر شهراً قبل أن يتخلى عن عمله، غير أن هذه الرحلة غيّرت مسار الأدب الأميركي.

اعتمد ميلفيل في رواية موبي ديك على تجاربه الشخصية على متن سفينة أكوشنيت Acushnet، لكن الكتاب كان أيضاً فرصةً لإحداث ثورة أدبية جديدة بالكامل. لقد تعمق في بحثه في المكتبات للإمساك بطريدته وهو يحبك مساره، مستخدماً الأدب المكتوب عن صيد الحيتان (بما في ذلك ما كتبه ويليام سكورسي، وتوماس بيال، وفرانسيس آلاين أولمستيد، وف.د. بينيت، وجي. روس براون)، وتجربته الخاصة، والتلميحات والإشارات التي تعصف بها الرواية[cxlix]، وبحلول أيار من عام 1850، كان ميلفيل مدركاً للفكرة الجديدة التي سيتعامل معها في رحلة صيد الحيتان الجديدة التي سيقوم بها. وكتب إلى ريتشارد هنري دانا الكاتب البحري يقول:

«ستكون هذه الرواية كتاباً من نوع غريب، ومع ذلك فلدي مخاوفي؛ فالدهن دهن كما تعلم ويمكنك أن تحصل على الزيت منه، لكن الشعر يأتي بصعوبة مثل جريان النسغ في شجرة قيقيب متجمدة، وحتى يمكن تجميع هذا الأمر معاً، فإن المرء يحتاج إلى إضافة بعض الخيال الذي هو في الأصل من طبيعة هذا الشيء، ويجب أن يكون خيالاً أخرقَ مثل قفزات الحيتان أنفسها. لكني رغم ذلك أعتزم أن أقدم حقيقة هذا الشيء[cl]».

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب الغريب استقبل بانتقادات

مختلطة، فقد أجمع معظم النقاد أن ميلفيل أوضح حقيقة شيء واحد ألا وهو الحيتان أنفسها. وبحسب ما أوردته مجلة أطلس Atlas التي تصدر في لندن، فإن رواية موبي ديك احتوت على كمية من المعرفة تلامس الحوت وعاداته وتاريخه وأدق التفاصيل عن طعامه ورياضته أو سباحته، وقد امتزجت بشكل غريب مع توقعات حاذقة وجريئة حول العادات والميزات الغامضة لهذا الحيوان الغامض، فالكتابات المتعلقة بالحوت لها نغمة خاصة من الإجلال والعاطفة الشعرية التي لها تأثير غريب على عقل القارئ [cli].

وحتى اليوم، لا تزال المقالات العلمية تشير إلى التفاصيل الدقيقة والتكهنات الجريئة التي أوردها ميلفيل عند التعامل مع حياة حوت العنبر وسلوكه.لقد بدت أكثر من مجرد كونها أعظم رواية أميركية، ورأى القراء الحوت الأبيض في كل مكان، كان الحوت قدراً [clii]، وفيه سيتجسد الكون [cliii]، وإبليس؛ أعظم شياطين البحر، وحتى الإله [cliv]، ولقد أصبح الحوت سامياً من خلال جعل البشر ضعفاء وغير مهمين، فهو القوة الطبيعية التي لا يمكن ولا يجب كبحها [clv]. كل ذلك مع الحمل السار لمجلد كبير كالإنجيل أو سن حوت عنبر.

انقسم النقاد الأول فالنقد المنشور في صحيفة Southern Quarterly Review مثلاً، قال عن الكتاب إنه (شيء حزين، ممل وكئيب أو سخيف). وقال بينتلي ميسيلاني إن الكتاب (واحد من أروع الكتب التي ظهرت منذ سنوات عديدة) [clvi]. لكنه كان فشلاً تجارياً، وقليلون من قراء القرن التاسع عشر هم الذين عرفوا بأمر هذا الحوت على الإطلاق. ولقد خرج موبي ديك من دائرة الوعي العام، وبعد وقت طويل على نفاد نسخه، عاد الكتاب إلى الظهور بعد قرن تقريباً من ولادة مؤلفه ميلفيل في عام 1919، على أنه من الكلاسيكيات الأميركية. ومنذ ذلك الحين نُشر حوله العديد من الأطروحات والنقود الأدبية والسير ومصطلحات البحر، ووصل

الأمر إلى إقامة معارض للصور المذكورة في الرواية، مما أدى إلى إفراغ المكتبات حول العالم من نسخ هذا الكتاب.

هل هناك حيوان اشتهر اسمه أكثر منه؟ لقد لجأت إلى موقع www.googlefight.com.. وظهر اسم موبي ديك في 588.000 موقع إلكتروني، متغلباً على باغز باني الذي ظهر اسمه فقط في (530.000) موقع، لكنه خسر أمام ميكي ماوس الذي ظهر في (1.250.000) موقع، وأمام كينغ كونغ الذي ظهر في (1.110.000) موقع. ولقد تغلب بسهولة على منافسه القديم إيهاب الذي ظهر اسمه في (193.000) موقع فقط، وكذلك على مؤلفه فقد ورد اسم هيرمان ميلفيل في (230.000) موقع إلكتروني، ويتوفر النص بكامله الآن على الإنترنت مجاناً، وتتوافر المشاريع الدراسية الفصلية كميزة إضافية.

ومنذ عام 1996، يجتمع المخلصون للحوت الأبيض، ويشمل ذلك أعضاءً في الكونجرس ومعلمين في المدارس وكهنة متقاعدين ومؤرخي صيد الحيتان، في نيوبيدفورد كل عام ليحيوا ذكرى مغادرة سفينة آكوشنت Acushnet. لقد تمت قراءة النثر الذي لا يموت الذي كتبه ميلفيل بالإنجليزية بالطبع، لكنه قرئ أيضاً باليابانية والبرتغالية والإيطالية والإنوبيت[1]. وتنتشر رائحة الحوت الضبابية بكثافة في الغرفة، وهي مزيج من الزيت والماء المالح، وفي بعض الأحيان ترشح قطرة من الزيت عبر أرضية الغرفة المصنوعة من الأردواز[2]. وبين التفرعات الكثيرة للكتاب، نرى أن لدى ستارباك، مساعد الربان الأول، وفلاسك، المساعد الثالث، منظورين مختلفين نحو طريدتهما. فيقول ستارباك: (أنا لن أقبل بأي رجل على قاربي لا يخاف من الحوت) [clvii]. فهو يخاف من الحوت ويهابه، في حين

---

(1) لغة بعض قبائل الإسكيمو.

(2) صخر رمادي يستخدم في صنع الأرضيات وأسقف المنازل.

أن فلاسك لا يتحمل خوفاً كهذا. وتنبأ ميلفيل، الذي كتب أروع وصف لعملية صيد الحيتان في بدايات القرن التاسع عشر، أيضاً بحقبة صيد الحيتان، باستخدام سفن تحمل مصانع منتجات الحيتان:

كان فلاسك فاقداً وبشكل كامل لاحترام الأعاجيب العديدة لأجساد الحيتان الجليلة وطرقها الغامضة، ولا يشعر بأي شيء نحوها مثل خشية أي خطر محتمل ينتج عن مقابلتها، إذ إن تفكيره الضعيف كان يخبره أن هذا الحوت الرائع ليس إلا نوعاً من الفئران الضخمة، أو أنه جرذ ماء، ويتطلب بعض المراوغة فقط، وتوظيف الوقت والجهد من أجل قتله وغليه(clviii).

علق الكاتب الإيطالي روبرتو كالاسو على المصطلحات التي يكتب بها ميلفيل، كالقتل والغلي والإنتاج والاستهلاك، في كتابه: The Ruin of Kasch، فقال:

«رفع ميلفيل الأدب إلى الجزارة، ودفعه إلى عتبة ما لم يسمع به، وفرض على الصفحة ما كنا جميعاً نعلم أنه يحدث، لكنه يحدث في الكواليس وخارج مجال الكلمات. (تتحول البيكود[1] Pequod العاجية إلى فوضى، وكل بحار يصبح جزاراً). من المعروف أن الأدب يزدهر بسبب التضحية، لكنه لم يصف أبداً من قبل عملية الجزارة، بل إنه كان يستعمل عبارات ملتوية مختارة ليملأ الفراغ. ولكن مع ميلفيل أصبحت الجزارة مركز الكتاب الفعلي(clix)».

وبالفعل فإن الجزارة أصبحت مركز العلاقة بين الإنسان والحيتان، منذ صعود نجم الصيد التجاري. لكن إسماعيل يفضل استعمال كنايات الحرب. (فما أسطح سفن صيد الحيتان الفوضوية الزلقة، بالمقارنة مع الجثث الخامدة في ميادين المعارك، التي يعود منها الكثير من الجنود ليشربوا نخب السيدات أجمعهن)(clx).

لكن بالنسبة للحيتان، فلا بد أنها كانت مجزرة. قد يشعر صياد

---

(1) اسم سفينة صيد الحيتان التي يقودها القبطان إيهاب في موبي ديك.

الحيتان بالملل والوحدة والبرد أو عدم الراحة، أو ربما يعاني من فورات غضب قبطان محبط، لكن الصيد بالنسبة للحوت، هو مطاردة مرعبة غالباً ما تنتهي بالألم الناتج عن الحربون، ومما يجعل الأمر أسوأ هو جر قارب الصيد له والطعنات التي يتلقاها الحوت عند كل محاولة للتنفس. وبالنسبة للحيتان المصابة، التي تمكنت من الهرب بالغطس العميق، فبعد أن يقطع الصيادون الحبل قد يأتيها الموت ببطء أكثر، بسبب الالتهاب الذي قد ينتشر أو أسماك القرش والحيتان القاتلة التي تنجذب إلى الجرح. وقد تكون أسباب الموت هذه قد حصدت عشرات الآلاف من الحيتان عبر مسار تاريخ صيد الحيتان.

وفي بعض الأحيان يقع اللوم في فقد هذه الحيتان على التصرفات والأفكار البذيئة للطاقم، كصدى غير متوقع لطقوس التطهير التي كان يتبعها الصيادون في الدائرة القطبية. وكتبت ماري كولسون، التي كانت على متن سفينة جورج وسوزان هي وزوجها القبطان هيربرت كولسون، في مذكراتها في تشرين الثاني من عام 1877:

«اليوم هو اليوم الخامس عشر الذي نشاهد فيه الحيتان، منها أربع مرات رأينا فيها حيتان العنبر، وحصلنا على اثنين حتى الآن. إنه أمر صعب علينا نوعاً ما، لكن الهدف النهائي أفضل كما أعتقد. يعتقد هيربرت أن بعضنا لا بد أن يكونوا أشراراً قبيحين كي نستحق مثل هذه العقوبة. لقد طاردنا الحيتان الصائبة في هذا الصباح، ثم حوت عنبر، ثم حوتاً صائباً مرة أخرى الليلة، لكننا لم نحصل على أي منها، أليس هذا مريعاً[clxi]».

كانت الأناجيل توزع عند بداية الرحلات في بعض الأحيان بهدف الوقاية من هذه الشرور، ويقوم بعض القباطنة بالقراءة من الإنجيل لطاقمهم في أيام الآحاد. غير أن القليل من سفن الأحد، وهو الاسم الذي كانت تُلقب به السفن المتدينة، التزمت حقيقة بيوم الأحد كيوم راحة وتأمل ديني، وعلى الرغم من أن الشعائر الدينية كانت مطلوبة

والشتائم كانت ممنوعة على متن بعض سفن الصيد، إلا أن يوم الأحد أصبح كما يقول فرانك: (مجرد يوم عمل آخر – وربما مع وجبة من حلوى الخوخ من أجل الرسميات فقط)[clxii].

كانت الحيتان الصائبة وحيتان العنبر هي الطرائد المفضلة للصيادين الأميركيين (اليانكي). ومع ذلك فيمكن لسرب كامل من حيتان العنبر أن يختفي كما لو أن ذلك بفعل السحر في مسار الشمس الغاربة[clxiii]. ويمكن لطاقم رحلة غير ناجحة أن يشن هجوماً على أي نوع من الحيتانيات يصادفهم، ربما بدافع الإحباط أو الملل. وقد كتب إينوك كلود:

«العاشرة صباحاً، مر حوت ذو زعنفة وزفر إلى جانب السفينة تماماً، واستمر في السباحة حول السفينة بعض الوقت، إلى أن اغتاظ القبطان فنال في النهاية من ألفته وصعد على حاجز السفينة وقذفه بحربة! اخترقت الحربة دهنه ولم تؤذه كثيراً، غير أنها (كانت كافية لتذكره بأن لديه موعداً في وسط المدينة!) وغادر نحو اتجاه غير معروف![clxiv]».

كان الملاحون يرحبون بسفينة عابرة لقطع هذه الرتابة، وهي فرصة للاختلاط الاجتماعي أو (الغام gam)[1]. في نانتوكيت الغام كانت عبارة عن مجموعة من صيادي الحيتان، لكنها في البحر تصبح مجموعة من سفن صيد الحيتان، التي تجتمع بغرض الثرثرة وتبادل الأخبار. وقد حصل ميلفيل على المعلومات المنشورة عن غرق سفينة الصيد إيسكيس Essex، خلال واحدة من هذه (الغامات) أو الاجتماعات، التي تستمر ربما عدة ساعات وأحياناً عدة أيام، وعندها تكون القوارب في حالة حركة مستمرة بين السفن. ويمكن للعاملين على الصواري الأمامية تبادل الهدايا، وبعض الفاكهة ربما، أو النبيذ والشكاوى مع شخص جديد. وفي المساء، يمكن أن يوجد

---

(1) كما تسمى في لغة البحارة.

بعض الموسيقى الغنائية والمجون، حسب ما كتبه جون مارتن على متن سفينة لوسي آن[clxv].

وعلى الرغم من ذلك، فإن السفينة العابرة في الغالب لم تكن أكثر من صيحة – كم عدد البراميل؟ – وبوجود الزيت والوقت المسجل في سجلات السفينة نرى: (سجلات سفينة الفرات Euphrates التي غادرت بيدفورد منذ 25 شهراً وعادت بـ 2700 برميل، وتتجه مباشرة إلى موطنها بحسب الرسائل التي وصلت منها). (سجلات سفينة أميرا ثمانية أشهر بحصيلة 350 برميلاً، ثم خروج مدة 25 شهراً بحصيلة 1700 برميل من العنبر).

كان الملل أحد أكبر التهديدات على متن المركب، فقد كتب موجه الدفة دين رايت في يومياته:

«أنا لا أعرف ما الذي أكتب وأقوم بهذا فقط لأنه لا يوجد شيء آخر لأفعله... وخلال الثلاثة أو الأربعة أشهر الأخيرة، بحثت عن الحيتان بجهد – وجدفت بقوة على القوارب، وعملت بجد على متن المركب – وكل ما فعلته كان بلا جدوى – وهذا أمر صعب جداً[clxvi]».

انبثق من الملل نوع من الفن الفطري على ظهور هذه السفن الغارقة في الزيت. ففي حوالي عام 1825 بدأ صيادو الحيتان في حفر صور ونحتها على عظام وأسنان طريدتهم الفائضة – وهو تقليد كانوا يدعونه سكريمشاو scrimshaw. وقبل هذا الوقت، كان سن حوت العنبر يُعد ذا قيمة عالية في بولنيزيا Polynesia – وهو سر تمت حراسته بعناية بين البحارة الذين كانوا يزورون موانئ المحيط الهادئ المقصودة. وخلال حرب عام 1812 قاد العميد البحري الأميركي ديفيد بورتر أسطوله حول رأس كايب، لمهاجمة صيادي الحيتان الإنجليز. ويؤكد تقريره المنشور على قيمة سن حوت العنبر – لكن سرعان ما انهار السوق. ونهض فن منحوتات صيادي الحيتان

المرتكز على الفوائض، وكان أساس لوحات فناني صيد الحيتان سن حوت عنبر على شكل دمعة مع وزنه الذي يعيد بعث الاطمئنان، أو ناب سن حيوان الفظ، أو عظم فك حوت، أو عظم البيلين. وكانت المطواة (سكين البحارة) الأداة الكلية القدرة اللازمة للبحار. وبحسب ما يقوله ميلفيل، فقد كانت هذه الأداة فرشاة رسمه[clxvii].

وفي هذا الشكل الفني من القرن التاسع عشر، كانت هناك بعض السوابق، لكن لا توجد قواعد. وعلى الرغم من أن الحيتان كانت الوسيلة فإنها نادراً ما كانت الرسالة. فقد رسم فنانو سكريمشاو الحياة المنزلية والرموز الوطنية والمشاهد العائلية، والمعارك البحرية والمرأة التي تنتظرهم في الوطن، أو أن الأكثر شيوعاً كانت المشاهد التي صادفوها في البحر. فبعضهم اعتمد في مواضيعه على تفاصيل الحياة التي تحيط بهم، حتى مجموعة قيطس (الحوت) ودلفي النجمية. وفي بعض الأحيان فقط، كان فنانو صيد الحيتان يحفرون مشهد صيد، وكان حول الصيد بلا جدال لا حول الحوت، ليحتل بذلك المكانة العظمى، فحاله فيها كحاله في أغنية البحارة، وغالباً ما تكون هذه الصور نسخاً أو تنويعات على عمل رجال آخرين على متن المركب.

حفر صيادو الحيتان الأسنان والعظام المقعرة من أجل الأقارب والأصدقاء، وبكرات للف الخيوط، وعجلات مسننة لتحديد أطراف الفطائر، موسعات للقفازات، وحتى الأدوات المساعدة لارتداء الأحذية الطويلة من أجل زوجاتهم، وأختام السجلات، وإبر رسم الأوشام، وأدوات قلع الأسنان، والكلابات (خطافات كبيرة من العظام تستعمل للقبض على الفقمات وحيوانات الفظ)، وأدوات حك الظهر (التي كانت أكثر من مجرد رفاهية نظراً لأعداد الحشرات الطفيلية على السفينة) لأنفسهم ولرفاقهم على السفينة[clxviii].

هذه المنحوتات هي ما بقي من وقت انتظار الحيتان اللانهائي في



هذه الصورة تعرض أسطورة (صيادي الحيتان الأشباح)، وهي تحكي عن قارب صيد وطاقمه ضاع في الضباب جنوبي المحيط الهادئ، وهي واحدة من الأساطير العديدة التي ازدهرت من مخاوف صيادي الحيتان في القرن التاسع عشر.

البحر، الوقت الذي كان يطول مع انخفاض أعداد الحيتان وزيادة طول الرحلات، وهي تقريباً كل ما بقي من الحيتان أنفسها؛ الحيتان التي أضاءت ظلام الليل، وقدمت الزيت للعجلات الأولى للثورة الصناعية واختفت في الأعماق. تحسسوا التربة في الخليج الأحمر وفي لابرادور فهي لا تزال زيتية بأثر من أعمال استخراج الزيت التي تمت على الشاطئ، واستمعوا إلى البرتغاليين على أرصفة موانئ ماساشوستس، وصدى السفن التي حملت العديد من سكان جزر الآزور[1] إلى الولايات المتحدة، ادخلوا إلى متحف صيد الحيتان في نيو بيدفورد وستغمركم رائحة الحوت الزيتية الطيبة. اذهبوا إلى الشوارع المرصوفة لميناء صيد الحيتان العظيم هذا، التي كتب عنها رالف والدو إيمرسون: (إنهم يعانقون برميل الزيت كما لو كان أخاً)[clxix]. فيما مضى اصطفت القصور على امتداد هذه الشوارع؛ ولا يزال الكثير منها موجوداً في شارع زيت حوت لندن الجديد New London's Whale Oil Row. ويتساءل ميلفيل: (من أين لهم

(1) جزر الأزور عبارة عن أرخبيل يقع في المحيط الأطلسي و يتبع دولة البرتغال.

هذا؟) اذهب وانظر بتمعن إلى رموز رماح الحربون الحديدية حول ذلك القصر الفاخر، وستجد إجابة سؤالك. أجل جميع تلك المنازل الرائعة وحدائق الأزهار أتت من المحيط الأطلسي والهادئ والهندي، جميع الحيتان التي كانت تعيش في هذه المحيطات تم صيدها باستخدام الحربون وجرها إلى الأعلى من قاع البحر[clxx].

وعلى ذكر المنازل، فهي مثل المنازل المصنوعة من عظام الحيتان على شواطئ الدائرة القطبية.

تمش بين المنحدرين من سلالة الحربون، ففي نيوبيدفورد، كما كتب ميلفيل: (يقولون أيها الآباء، امنحوا الحيتان كمهر للبنات، جزء منها لبنات الأخ أو الأخت مع بعض خنازير البحر لكل فرد)[clxxi]. امشوا على طول الشاطئ، حيث كان يوجد في كل كوخ تقريباً إنجيل (وغالباً لا يزال موجوداً في العديد منها)، يحوي إشارات إلى قصة يونس والحيتان العظيمة، وبعضها كما كتب ناثانيال هاوثورن: (لديه مداخل على شكل قوس قوطي، من خلال وضع عظام فك حوت)[clxxii].

بعد ثمانين عاماً من إبحار ميلفيل على متن أكوشينت Acushnet، زار جورج فرانسيس دو مدينة نيوبيدفورد وهي خالية من الأشرعة:

يعود الماضي إلينا فقط بطريقة واحدة، ومما يثير الفضول أن هذه الطريقة هي حاسة الشم، من خلال صفوف براميل زيت الحوت المغطاة بعشب البحر، كما كانت العادة، والتي احتلت فيما مضى الكثير من المساحة على أرصفة الموانئ، حيث كان الزيت بشكل أو بآخر يتسرب من خلال الشقوق في تلك البراميل، وينفذ من خلال




نقش يمثل (وايني)، أو امرأة من جزيرة هاواي، محفورة من قبل الرسام من صيادي الحيتان - scri shander: جورج هيليوت في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وعلى الوجه الآخر تبدو امرأة من نيو إنغلند، ربما تنتظر الرسام في الوطن وهي في ردهة منزلها.

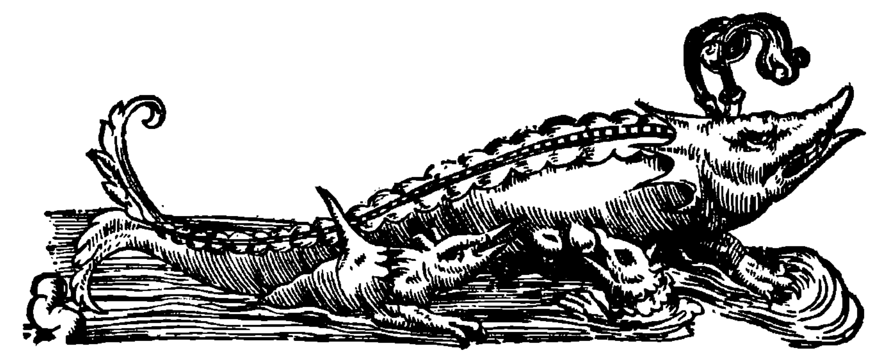
خشب الأرضية والتربة على أرصفة الموانئ. لا تزال الرائحة قوية، مثل رائحة زهرة الخزامى المحفوظة بين ورقتين من كتاب قديم نفضله، وهي تستدعي الماضي[clxxiii]. وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي تتم فيها مقارنة رائحة الحوت برائحة الورود.

5 - الثدييات الغاطسة

كان الحوت غالباً ما يُعد سمكة كبيرة أو لوثياناً أو وحشاً من الأعماق في أدب صيد الحيتان الذي كُتب قبل القرن العشرين. ومع ذلك فقد استطاعت العديد من الحضارات، وبعض علماء الحيوان الأوائل أن يروا الفرق بين الحيتان والأسماك التي تشبهها بشكل سطحي، فقد عد أرسطو في كتابه المهم: Historia animalium، أن الدلافين والحيتان تتمتع بأغرب حالة بين الحيوانات، ومن الصعب تصنيفها لأنها تعيش كحيوانات مائية، لكنها تتنفس الهواء، وتلد صغاراً أحياء مثلما تفعل حيوانات البر(clxxiv). وكذلك لاحظ الرومان أن الحيتان والدلافين والفقمات تنفرد عن الحيوانات المائية؛ فهي ترضع صغارها مثل الثدييات. وبالنسبة للإنويت، كانت الآلهة سيدنا Sedna الجدة الأعلى للثدييات البحرية، ولكن ليس للأسماك أو الطيور، وكانت حضارتهم تعتمد بالكامل على سلالتها.

وبشكل عام، فإن الفضل ينسب عموماً إلى عالم الطبيعة السويدي كارل فان لينيه (كارلوس لينوس) في القرن الثامن عشر لأنه قام بفصل الحيتان عن الأسماك بشكل دائم، ولاحظ في كتابه Systema naturae أن الحيتان لها قلب دافئ ببطينين، ورئتان وأجفان متحركة، وآذان مجوفة وأكثر ما تشتهر به هو الغدد الثديية. ورغم تأقلمها الكامل مع البيئة البحرية، فإن تركيبتها ليست كالأسماك على الإطلاق. ولكن لسنوات عدة استمرت أغلبية الناس في عد الحيتان أسماكاً. وفي القرن التاسع عشر كان لعالم التشريح المقارن جورج كوفير تأثير قوي على الرؤية العلمية للحيتان وكشف عن تركيب جسمها اللبون.

واعترف الاقتصادي والفيلسوف جون ستيوارت ميل على



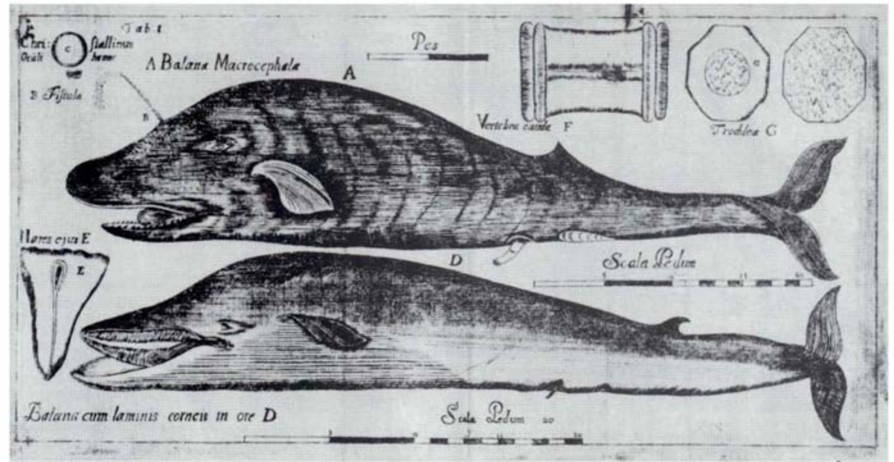
الصورة التي رسمها كونراد جينسير في حوالي عام 1560 لأنثى حوت وصغيرها في أثناء تعرضهما لهجوم من قبل أوركا (حوت قاتل). وهي واحدة من أوائل التعبيرات الفنية عن حوت مرضعة.

مضض، بأنه يمكن تصنيف الحيتان بين الثدييات من وجهة نظر علم الحيوان، لكنه أصر على كونها أسماكاً لأسباب تجارية: (سيرفض أي قاضٍ ذكي الادعاء بأن القوانين البشرية التي تذكر الأسماك لا تنطبقُ على الحيتان)[clxxv]. وهذه ليست المرة الأخيرة التي ستتضارب فيها المصالح الاقتصادية مع الاكتشافات الحيوية.

وبالنسبة لميلفيل، أو على الأقل بالنسبة للرجل على متن سفينة البيكود، فإن الحوت (كان سمكة تنفث الماء ولها ذيل أفقي)[clxxvi]. واستمرت هذه البلبلة طوال القرن التاسع عشر. وقد كان المستكشف القطبي تشارلز فرانسيس هال، عارفاً بأخطار الحوت الأزرق ومفاتن كل من الحيتان الصائبة والمقوسة الرأس، غير أنه لم يكن متأكداً من علاقتها بالحيوانات الأخرى.

لديَّ فكرة جيدة عن وحوش الأعماق هذه، في الوقت الذي تقع فيه ضمن مدى الرمي من على السفينة. كان منظراً مهيباً بالنسبة لي أن أرى سمكة (وهل الحوت سمكة؟) بطول 100 قدم وهي تدفع نفسها بهدوء عبر الماء، كما لو أنها مجموعة كبيرة من سمك السلمون الوديع[clxxvii].

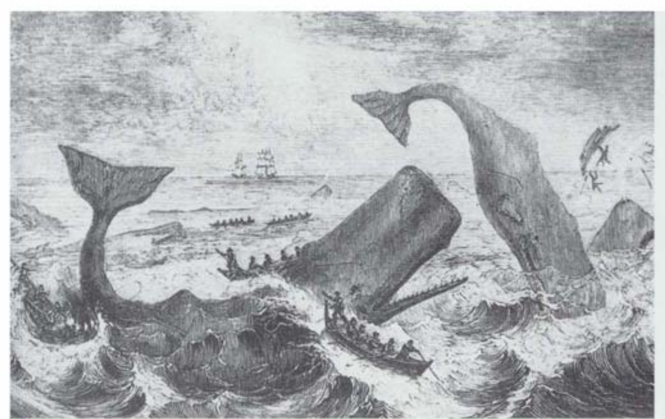
وبعد مرور قرن، كان لا يزال يوجد ما يسمى مسامك الحيتان، على الرغم من أنها كانت تُفهم على أنها تعني الصيد وليست خطأً



علمياً. ومع ذلك فإن المعارك الخاصة بتصنيف الحيتان بين العلماء والمصالح التجارية كانت صغيرة بالمقارنة مع موجات الغضب على صيد الحيتان، التي ظهرت في القرن العشرين. وفي الوقت الحالي، أصبحا متقاربين جداً.

اعتمدت أغلب التصاوير العلمية الأولى عن الحيتان، مثل روبرت سيبالد في كتابه: Phalanologia nova، الذي نشره في عام 1692، على الحيتان الجانحة لوضع الملاحظات والقياسات، وكانت الجوانب العريضة أساسية بالنسبة لدراسات الحيتان في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وأصبحت سفن صيد الحيتان في القرن التاسع عشر منصات مهمة للبحث العلمي. وكان كتاب ويليام سكوريسبي: Account of the Arctic Regions with a History and Description of the Northern Whale Fishery of 1820، أحد المحاولات الأولى لقبطان سفينة صيد حيتان لتسجيل التاريخ الحي لطريدته، ولقد كان الحوت المقوس الرأس في هذه الحالة.

إن طريقة الطبيب الاسكتلندي روبرت سيبالد في تصوير الحيتان في القرن السابع عشر، تظهر أحد أوائل التفسيرات الدقيقة للحيتانيات.



صورة مقدمة كتاب Natural History of the Sperm Whale (1839) لتوماس بيال.

قام بضعة أطباء وجراحين على متن سفن صيد الحيتان، لأن لديهم وقت فراغ أكبر مما لدى الطاقم، بالاحتفاظ بسجلات عن ملاحظاتهم الخاصة بالحيتان وتقنيات صيدها، وانبثقت هذه الدراسات من تقليد طبي، وهو الملاحظة الدقيقة للجسد البشري وتحركاته. وفي عام 1835، نشر الجراح البريطاني توماس بيال كتابه المدهش The Natural History of the Sperm Whale، والذي احتوى على أول وصف كامل لحوت العنبر، والذي لم يكن يُعرف عنه إلا القليل، بعيداً عن حافة مركب صيد الحيتان أو غرفة الدهن في سفينة الصيد.

كان تشارلز سكامون قبطاناً ناجحاً في صيد الحيتان على الساحل الغربي لأميركا الشمالية، وأصبح له تأثيره في حقل دراسة الحيتانيات على الرغم من أنه نشر كتاباً واحداً وأطروحة تقنية واحدة فقط. وبالإضافة إلى موبي ديك، يُعد ما نشره سكامون The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America مع An Account of the American Whale-Fishery (1874) من بين أعظم الكتب التي كتبت على الإطلاق

عن الحيتان وصيدها. ونظراً لأنه صياد حيتان متفان، وعالم قام بالتماس العينات وأخذ القياسات من الحيتان التي صادفها في أثناء صيده وبدأ بجمع البيانات – بما في ذلك الطول والحجم والسماكة ولون الدهن وعدد صفائح البيلين – من كل نوع بحري توفر له، وكانت الأبحاث العلمية التي تمت على متن سفن صيد الحيتان فيما بعد مدينة بالفضل لأعماله.

طارد سكامون بصفته صياد حيتان الحوت الرمادي في المحيط الهادئ، الذي كان صيده يتم على طول ساحل كاليفورنيا، (وهي ملاذ سار من الرحلات القاسية التي نعانيها على متن سفينة صيد الحيتان)[clxxviii]. وعلى الرغم من أن الصيد التجاري لهذه الفصيلة قد بدأ في عام 1795 عندما بدأ جون لوك في صيد الحيتان الضعيفة على السواحل في سفينة صيد بريطانية، فإن الفضل (أو



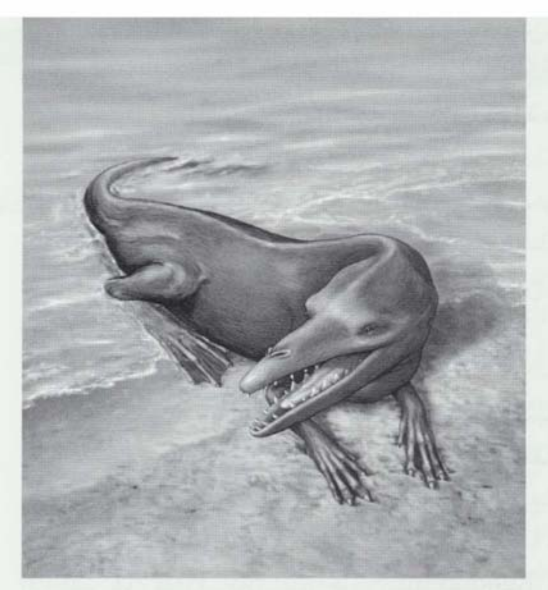


صورة للوحة محفورة في الخشب من مجلة Harper's Weekly تعرض لمحطة صيد حيتان على ساحل كاليفورنيا في عام 1877. لاحظ نقطة المراقبة في أعلى اليسار.

اللوم) عادة ما يعود إلى سكامون لاكتشافه مناطق التناسل في Laguna Ojo de Liebra لاغونا أجو دو ليبرا في باجا بكاليفورنيا، حيث كانت الإناث والصغار الهدف الرئيسي للصيد، ولكن مع تطوير الحربون الذي يُطلق من الكتف، أو مدفع القنابل في القرن التاسع عشر، بدأ عصر (kelp whaling) صيد الحيتان من السفن الراسية على طول مسار هجرة الحيتان الرمادية. كان صيادو الحيتان يثبتون مراكبهم في تجمعات الأعشاب البحرية على بعد بضعة كيلومترات من الشاطئ وينتظرون الحيتان الرمادية لتقترب. وعند رؤية حوت، يقومون بالتجديف نحو مساره حتى يتمكن المدفعي من الحصول على رمية قريبة. ووفقاً لما أورده سكامون (فإن السمكة الشديدة الملاحظة (السمكة الشيطانية) سرعان ما تعلمت عواقب الاقتراب من الشيء الطويل القاتم... الذي يرتفع وينخفض في حركة دائرية). وانتقلت الحيتان وتبعها الصيادون بعيداً عن الشاطئ، وبحلول الوقت الذي نشر فيه سكامون عمله في عام 1874، كانت أغلب الحيتان قد اختفت: (إن نوع الحيتان هذا تحديداً قد بدأ بالانقراض نتيجة الحاجة إلى هذه الحيوانات التي تزور الساحل، وحتى هذه الحيوانات قد أصبح من الصعب جداً الاقتراب منها)[clxxix]. كان أحد علماء الحيتانيات الرواد في القرن التاسع عشر مسؤولاً جزئياً عن اقتراب الحيوان الذي درسه من حافة الانقراض.

وبينما خمد الجدال حول تصنيف الحيتان في نهاية القرن التاسع عشر، ظهر السؤال التالي – أي نوع من الثدييات هي؟ هل تشكل الحيتانيات سلالة مستقلة انفصلت عندما نهضت الثدييات في العصر الطباشيري، أم أنها يجب أن توضع بين المجموعات الثديية الأخرى التي لم تغادر الأرض أبداً؟

اقترح عالم التشريح البريطاني دبليو. إتش فلاور في عام 1883



تظهر هذه الصورة حيوان Pakicetus الذي كان أحد أسلاف الحوت، بحجم الذئب، وعاش على حافة الماء منذ 47 مليون سنة.

أن الحيتانيات وذوات الحوافر أو الثدييات أو مجموعة الثدييات التي لها إصبع واحد متطور في كل قدم، بينها علاقة وثيقة. ولكن هذا كان منظوراً غير تقليدي، وحتى الخمسينيات من القرن العشرين كان أغلب علماء الأحياء يعتقدون أن الحيتان لها أصول قديمة جداً، وليس لها أقرباء بين الثدييات الحية الأخرى. تأخذ الأبحاث الجينية والدراسات الأحفورية تأكيدات فلاور خطوة أبعد: فالحيتانيات هي ثدييات أحادية أو مزدوجة الحوافر تأقلمت مع الحياة في البحر؛ وتقع من حيث تطورها بين الخنازير وحيوانات البقري الأميركية وفرس النهر والخراف والأبقار والجمال[clxxx].

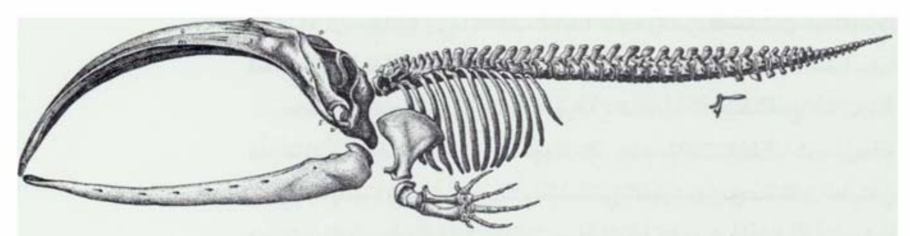
تم اكتشاف أحافير الحيتانيات حول العالم: وعُثر على الاكتشافات البارزة في مصر، ونيوزيلندا، وباتاغونيا، وخليج شيسابيك، وكاليفورنيا والبيرو، وأحد أقدم هذه الأحافير هو Pakicetus، وهو

أحفورة عمرها 47 مليون سنة تم اكتشافها في الباكستان، وهي بحجم الذئب الأميركي (القيوط) تقريباً، كان جد الحوت الحديث هذا مخلوقاً هامشياً تمكن بواسطة أرجله الخلفية المكففة من السباحة في مياه البحار الضحلة والتجول على الشواطئ. لقد كان حيواناً لاحماً يتغذى على الحيوانات الأرضية ويقطن في الجداول. وكما هي الحال مع خروف البحر الحالي، فإن حيوان Pakicetus كان يمتلك عظاماً كثيفة جداً تعمل كأثقال تمنع الحوت الأول من الصعود إلى سطح الماء.

وتم العثور مؤخراً على سلف آخر للحوت في آسيا. كان طول حيوان Rhodocetus زهاء ثلاثة أمتار، وله أرجل مكففة يستخدمها للتجديف في الماء وذيلٌ طوله متر يعمل كدفة. (لم يكن يستعمل حركة ذيله لدفعه خلال الماء مثل ثعلب الماء (القضاعة) كما اقترح علماء الأحافير من قبل). كان لدى حيوان Rhodocetus أرجل خلفية متقلصة، وهي خطوة صغيرة نحو الحيتان الحديثة التي فقدت أرجلها الخلفية بالكامل، وكل ما بقي منها عظام لا وظيفة لها.

ومن دون المساس بمثل هذه الأحافير الأثرية، فإن الفرق بين الخروف الداجن وحوت العنبر يبدو بالفعل واسعاً بشكل مريع، ومن الصعب أن نتخيل وجود جدٍ مشترك بين حيوان مجتر مكسو بالصوف ويزن حوالي 40 كيلوغراماً، ومفترس بحري ماهر يزن حتى 40.000 كيلوغرام، ويغوص إلى عمق يصل إلى 2000 متر، ويحبس أنفاسه لحوالي 75 دقيقة، ويتغذى على الحبار العملاق. وبوجود فجوة بهذا الاتساع، فإن أتباع نظرية الخلق استخدموا أصل الحيتان كنموذج يشرح استحالة نظرية التطور[clxxxi].

ومع ذلك فإن تحليل الحمض النووي DNA، وسجل الأحافير، يوضحان أن جميع الحيتان الحديثة، بفرعيها الحيتان ذات الأسنان



وحيتان البيلين، قد انحدرت من هذه الحيتانيات القديمة. وعلى مدى سنوات كان الاعتقاد سارياً بأن الخنازير هي أقرب الأقارب الحية إلى الحيتان. إلا أن علماء الأحياء اليابانيين اكتشفوا باستخدام تحاليل الحمض النووي DNA أن فصيلة فرس النهر هي المجموعة الشقيقة للحيتان. وعلى اعتبار أن أفراس النهر ثدييات بحرية، فإنها تفتقد للشعر وغدد التعرق، وبالكاد تشق سطح الماء لتتنفس، وبإمكانها التواصل تحت الماء. ومثل حيتان العنبر فإن الذكور من أفراس النهر تستخدم انقضاضاً رأسياً بفم مفتوح لتحدي خصومها، تتبعه مباراة في التدافع[clxxxii].

على الرغم من أن الحيتان قد فقدت أعضاءها الخلفية في أثناء التطور، فإنها لا تزال تحتفظ بعظام حوض لا وظيفية، كما يبدو أسفل الذيل في صورة الهيكل العظمي هذه لحوت مقوس الرأس.

ولطالما تم عد وجوه التشابه هذه متقاربة، وهي عبارة عن تأقلم منفصل للحياة تحت الماء. ولكن يبدو الآن أن هذه السلوكيات قد تطورت في الماضي السحيق، قبل أن تنفصل أفراس النهر عن الحيتان.

واليوم يتم عد الحيتان متوزعة على أربع عشرة فصيلة من الحيتان الكبيرة، على الرغم من أن مثل هذا التمييز لا يزال متقلباً، فربما تكون وحوش العصور الوسطى قد خلدت إلى الراحة، لكن الباحثين في الجزيئيات لا يزالون يكتشفون حيتاناً جديدة في أشكال مألوفة. فمثلاً كان الحوت الصائب الشمالي يعد فصلية واحدة تنتشر في مجال يمتد من خليج بسكاي إلى اليابان، لكن تحليل الحمض النووي DNA يقول لنا إن ساكني المحيط الهادئ والمحيط الأطلسي قد انفصلوا منذ ملايين السنين. وفي اليابان، يدّعي علماء

الأحياء أن حيتان زي sei قد تتألف بالفعل من فصيلتين مختلفتين تسبحان جنباً إلى جنب، ولكنهما لا تتزاوجان أبداً.

توفر موسوعة الثدييات البحرية: Encyclopædia of Marine Mammals الممتازة، والمنشورة في عام 2002 إرشادات، إن لم تكن إجابات راسخة على الأسئلة التي تدور حول تصنيف الحيتان وبنيتها التشريحية وتأثير البشر عليها. لكن من المحتمل أن يبقى الجدال بشأن تصنيفها محتدماً لسنوات، ولاسيما بين علماء أحياء الثدييات البحرية. وبالاعتماد على من تسأل، فهناك حوالي 70 – 80 فصيلة من الحيتانيات، تنقسم حالياً إلى تسع عائلات، وجميع الحيتان الكبيرة ماعدا واحدة تسمى ميستيسيتيس mysticetes أو حيتان البيلين، وهي تُشكل سلالة تطورية واحدة، وكلمة mysticetes مصدرها الكلمة اليونانية mystax أو الشارب، نسبة للصفائح القرنية الصلبة والمرتبة في صفوف، التي تقوم بتصفية الأسماك والقشريات من مياه البحر.

هناك أربع عائلات من حيتان البيلين: Balaenidae أو الحيتان الصائبة وتضم حوت شمال الأطلسي الصائب، وحوت جنوب المحيط الهادئ الصائب، والحوت الصائب الجنوبي، والحوت المقوس الرأس القطبي. وكانت فصائل الحيتان هذه هي الأولى التي وقعت ضحية الصيد التجاري، وهي الآن بين أكثر الحيتانيات المعرضة للخطر. وهناك حوالي 350 من الحيتان الصائبة في المحيط الأطلسي الشمالي وعدد أقل في شمال المحيط الهادئ على الأرجح. وفي رواية موبي ديك يقارن ميلفيل بين شكل رؤوسها والقالب الذي يستخدمه صانع الأحذية، وهو حذاء (يمكن للمرأة العجوز من حكايات الأطفال، مع الأطفال المحتشدين، أن تخزنه بكل راحة)[clxxxiii].

إن كلاً من نيوبالينيدا Neobalaenidae وإشريكتيدا Eschrictiidae فصيلتان أحاديتان – وهما تمثلان من خلال

فصيلة واحدة متبقية، فالحوت الصائب القزم، وهو الوحيد من نوع نيوباليند neobalaenid، لم يُدرس إلا قليلاً وبالكاد تم استغلاله، إذ إن الحوت القزم كامل النمو لا يكاد يصل إلى حجم رضيع الحوت الصائب. والحوت الرمادي Eschrictius robustus أو حوت سكراج Scrag يوجد فقط في المحيط الهادئ، على الرغم من أن الحيتان الرمادية وجدت في المحيط الأطلسي الشمالي حتى القرن التاسع عشر.

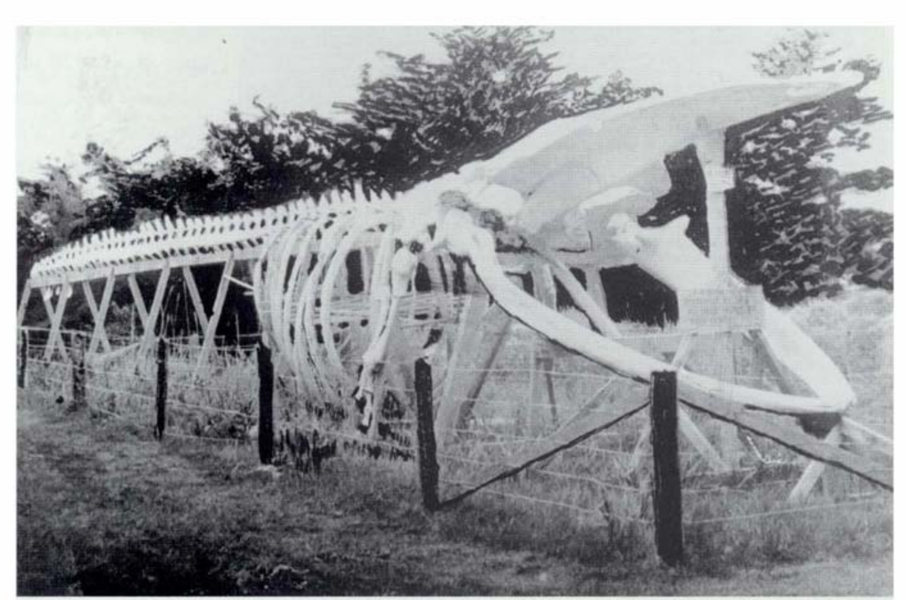
وتتضمن حيتان الروركوال (ذوات الزعنفة الظهرية) أو ما يدعى بالاينوبتيريدا Balaenopteridae، حوت المينك المعروف وحوت المينك القطبي الجنوبي وحوت زي sei وحوت برايد Bryde والحوت الأزرق والحوت ذا الزعنفة، والحوت الأحدب، ويعود مصدر كلمة rorqual إلى الكلمة النرويجية rörhval، التي تعني الحوت ذا الأخاديد – وكذا فجميع حيتان الروركوال تمتلك صفائح طويلة على الجانب السفلي من بلعومها، وتمتد لحوالي ثلاثة أرباع طول جسمها. وتُمكن هذه الصفائح الحوت من توسيع بلعومه عندما يأسر طريدة صغيرة – كالقشريات وأسراب الأسماك مثل أسماك الرنكة، وتقوم الحواف الشعرية على صفائح البيلين بالإمساك بالطعام، بينما يتم إخراج الماء.

ينتمي حوت العنبر إلى الحيتان ذات الأسنان، أو ما يسمى أدونتوسيتي Odontocete، وهو من أقارب الحيتان ذات المناقير والدلافين التي لها أنوف كالزجاجات، وعلى الرغم أن غالبية الفصائل السبعين، أو ما يقاربها من الحيتان ذات الأسنان أصغر حجماً من حيتان mysticetes ميستيكسيس، إلا أن حجم حيتان العنبر (يمكن أن يصل طول الذكر إلى 18 متراً ويزن حوالي 50 طناً) ودورها المهم في تاريخ صيد الحيتان يتنازع من أجل ضمها إلى التاريخ الثقافي إن لم يكن التطوري للحيتان الكبيرة.

لم تعد الحيتان مقيدة بالجاذبية عندما تركت وراءها الأرض الجافة، ولم يعد على أعضائها الخلفية أن تحمل وزنها، وتدلت هذه الأعضاء في تجويف جسدها، ولأنها كانت تعيش حياة العوم فقد نمت لتصبح ضخمة جداً. إذ يصل طول ذكر الحوت الأزرق البالغ إلى 25 متراً، وغالباً ما يصل طول الإناث إلى 30 متراً، وهو ما يقارب طول طائرة بوينغ 737 (clxxxiv). تكون الحيتان الصغيرة عند ولادتها بحجم قارب صيد الحيتان، وعندما يكتمل نموها يمكن أن تصل تقريباً إلى حجم سفن الصيد أنفسها. وحجم جسدها هذا هو تأقلم أساسي بالنسبة لحيوان ذي دم حار في البحر البارد. ففي المحيط تتبدد الحرارة بسرعة أكبر مما يحدث على اليابسة، والحيوان الأكبر يتعرض جزء أصغر من جسده للبيئة المحيطة. وحتى أصغر الثدييات البحرية لها حجم أكبر بقليل من أقاربها الأرضية. ولا يوجد فئران بحر أو ما يشبهها في البيئة البحرية، فقط ثعلب الماء، والذي يتمتع بفراء سميك، تمكن من استيطان البحر بنجاح. ومعظم الثدييات البحرية ليس لديها شعر وذات حجم كبير ومليئة بالدهن.

والدهن طبقة من النسيج الشحمي تحتوي أوعية دموية تحت الجلد مباشرة، وهي أساسية في الحفاظ على هذا المستوى من الدفء. تتمتع الحيتان القطبية المقوسة الرأس بأكثر طبقات الدهن سماكة، وهي طبقة من الشحم بسماكة 50 سنتيمترا، وتشكل حوالي نصف كتلة الجسم في بعض الحيتان، والدهن أكثر من مجرد عازل: إنه الموقع الرئيسي لتخزين الطاقة، وهو ضروري للحيوانات التي قد تصوم تقريباً نصف السنة.

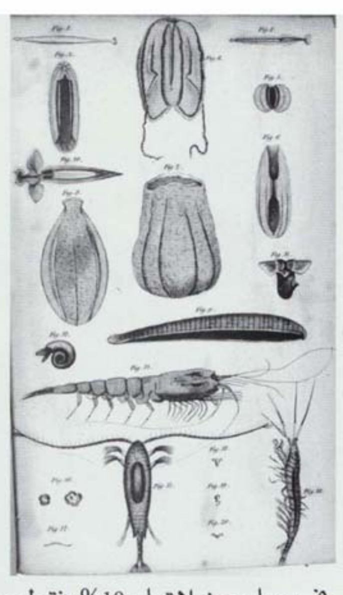
ويشكل الدهن، الذي تنفرد به الثدييات البحرية، طبقة مستمرة من الشحم على طول جسد الحوت، ويستقر فوق العضلات مباشرة. وتمتلئ الخلايا الشحمية، Adipocytes، بالشحم بينما يتناول



توضح هذه الصورة هيكلاً عظمياً لحوت تم تجميعه بين عامي 1900 و 1930 تقريباً.

الحوت طعامه، وتفرغ في أثناء صيام الشتاء الطويل. ويوفر استقلاب الدهن الطاقة والماء للحوت الصائم، إذ يتم إطلاق كيلوغرام من الماء في مقابل كل كيلوغرام من الشحم يتم حرقه. وإلى جانب هذه الخلايا الدهنية، فإن طبقة الدهن هذه غنية بالكولاجين، مما يمنحها القوة والمرونة، وكذلك بالأوعية الدموية المهمة لضبط الحرارة[clxxxv]. تقوم هذه الطبقة الدهنية بمنح الحوت الانسيابية وتعمل كنوابض تتمدد عند الغوص[clxxxvi].

عندما تغطس الحيتان الحدباء والصائبة وحيتان العنبر فإن زعانفها الذيلية — أو ذيولها ترتفع فوق سطح الماء — وتلك الحركة توفر قوة دفع عمودية لهذه الكائنات العائمة، التي تصبح في بعض الأحيان من الحيتان التي تغطس عميقاً. وعندما تغطس الحيتان، فهي تترك الأوكسجين خلفها، ولهذا فهي تخزن هذا الجزيء الضروري



وصف ويليام سكورسبي في عام 1820 لمصائد الحيتان القطبية، وهي واحدة من أوائل الصور في التاريخ الطبيعي والتي كتبها قبطان سفينة صيد حيتان، وتوضح هذه اللوحة أنواع فرائس الطريدة (الحوت) من العوالق. وغالباً ما يقتات الحوت المقوس الرأس على مجدافيات الأرجل وبراغيث البحر، الحيوان القشري الذي لديه مجسات طويلة ويظهر في أسفل يمين الصورة.

في دمها وعضلاتها و10% فقط من الأوكسجين يتم الاحتفاظ به في رئتي حيتان العنبر عندما تغطس. ويمكّن مخزون الأوكسجين الموجود في العضلات، الحيتان من الغطس أكثر من كيلومترين، وهو أكبر عمق يمكن أن تصل إليه أيٌّ من الثدييات[clxxxvii].

ما الذي تأكله الحيتان حقاً؟ إن الجواب المعروف هو العوالق – العوالق الحيوانية – كي نكون أكثر تحديداً، التي يمكن أن تكون أي حيوان يجرفه البحر، بدءاً من الأوليات وصولاً إلى الفقاريات، وأغلب حيتان البيلين تتغذى على كل شيء. وفي شمال المحيط الهادئ وبحر بيرنغ تم العثور على ست فصائل من براغيث البحر، وأربع فصائل من مجدافيات الأرجل، وفصيلة واحدة من البراغيث الرملية وفصيلة واحدة من القريدس وفصيلتان من السلطعون وعشر فصائل من الأسماك وأكثر من فصيلة من الحبار في معدة حيتان البيلين[clxxxviii].

توضح هذه الصورة عملية إفراغ معدة الحوت من براغيث البحر إلى ظهر سفينة المعمل.



وفي المحيط الأطلسي الشمالي، فإن أحد أكثر فصائل العوالق التي تتغذى عليها حيتان الروركوال هي فصيلة Meganyctiphanes norvegica، أو برغوث البحر الشمالي. وهي تشكل أيضاً الغذاء الرئيسي لبراغيث البحر، وكذلك أغلب الطعام الذي يستهلكه الحوت الصائب الشمالي: فكل من القشري الذي طوله 3 سنتيمترات والحوت الذي وزنه 50 طناً يعتمدان على الأعداد الهائلة لعوالق Calanus finmarchicus أو مجدافيات الأرجل ليستمرا في الحياة.

وقال بول دودلي في مقالته التي نشرها في عام 1725 عن الحيتان في نيوانغلند، إن بلعوم الحوت الصائب:

«ليس أكبر بكثير من بلعوم الثور، لكن الحوت ذا الزعنفة لديه أكبر بلعوم: لأنه يعيش على السمك الصغير، مثل الماكريل Mackeral والرنكة والأسراب الكبيرة للسمك الصغير، التي يمكنها أن تمر في بلعومه، ومن خلال انعطاف حاد يتسبب في إحداث دوامة تجمع قوتها الأسماك الصغيرة على شكل عنقود، حتى يتمكن الحوت بفم

مفتوح من التهام عدة مئات منها في وقت واحد[clxxxix]».

كانت هذه الملاحظة مدهشة في عام 1725، وعلى الرغم من أن الحيتان ذات الزعانف قد لا تقوم بإيجاد دوامة، فإنها تقوم بالإحاطة بأسراب السمك وتستعمل بطونها البيضاء كجدار، ثم تخترق هذه الأسراب بأفواهها الكبيرة مثلما يقوم صيادو الأسماك باستخدام الشباك لمحاصرة أسراب أسماك الرنكة أو أسماك الاسقمري ثم شفط طريدتهم إلى مخزن السفينة.

إن أسلوب الصيد الذي يتبعه الحوت الأحدب هو أحد أكثر أساليب الصيد تعقيداً، فهو يقوم بنفخ فقاعة أسفل سرب سمك مثل الرنكة مما يدفع السرب للتجمع بإحكام، وعندها يرتفع الحوت في الشبكة الفقاعية ويقضم ملء فمه من الطعام. ولكن أغلب المعارك الأسطورية تقع بين حيتان العنبر والحبار، وهو نزاع يمكن معرفته من الآثار التي تتركها مجسات الحبار العملاق على حيتان العنبر. ويصف بولين صراعاً بين هذين العملاقين رآه في إحدى المناوبات الليلية في المحيط الهندي:

«ونظرت عبر نظارات الرؤية الليلة من نافذة القمرة... وركزت نظري على البقعة المضطربة، وشعرتُ بالرضا التام بعد تفحص قصير أنه ليس لبركان أو لزلزال علاقة بما يجري هناك... كان حوت عنبر كبير جداً عالقاً في نزاع مميت مع حبار يكاد يماثله في الحجم، وتبدو مجساته المتطاولة وهي تحيط بكامل جسده، وكان رأس الحوت بشكل خاص يبدو محاطاً بشبكة من الأذرع الملتوية — وبشكل طبيعي كما أعتقد، كان الحوت قد قبض على ذيل الحيوان الرخوي بفكيه، وكان يشق طريقه خلاله بطريقة عملية منهجية. وإلى جانب رأس الحوت الأسود العمودي الشكل ظهر رأس الحبار العملاق، وهو شيء قبيح لا يمكن للمرء أن يتخيله حتى خلال أحلام

المحموم... كانت عيناه استثنائيتين بسبب حجمهما ولونهما الأسود المغاير للون الرأس الأبيض النابض بالحياة... وأحاطت بالمتحاربين أعداد لا تحصى من أسماك القرش ومن كل مكان، مثلما تحيط بنات آوى بالأسود، في انتظار المشاركة في الوليمة[(cxc)]».

إن الحيتانيات وخراف البحر وأفراس النهر، هي الثدييات الوحيدة التي تلد تحت الماء. وقد تكشف أجنة الحيتان أصولها الأرضية: إذ إن جنين الحوت لديه أرجل، ومنخر على قمة أنفه وأعضاء تناسلية خارج سطح الجسم، ولكن عندما تختفي الأرجل الخلفية تهاجر فتحة المنخر إلى أعلى الرأس، لتصبح الفتحة التنفسية وتنسحب الأعضاء التناسلية إلى خلف الفتحات، لتعطي انسيابية للجسم وتبقي الأعضاء المنتجة دافئة، ثم يخرج الحوت إلى الحياة.

وبعد الولادة، تبقى الحيتان الصغيرة قريبة من أمهاتها، وتقوم بالكثير من التلامس الجسدي وفي بعض الأحيان تركب على قمة الزعانف الذيلية لأمهاتها. إن مشاهدة رضيع في البحر هو أحد أفضل الفرص لمراقبة الحيتان. فخلال رحلة بحث علمي في جولف ستريم على شواطئ فلوريدا، تتبعت أنا وبعض من زملائي أماً ورضيعها من الحيتان الصائبة، وعلى مدى ساعات كان الرضيع يدور حول أمه ويقفز قفزات سريعة – رافعاً رأسه الصغير على شكل الحذاء فوق سطح الماء وينظر إلى العالم الهوائي في الأعلى – ثم يستريح على ظهر والدته. وسبح نورس بونابرت بالقرب منهما ثم نزل على خاصرة الأم بينما كانت ترعى صغيرها. والحيتان الصغيرة كثيرة الفضول أيضاً وليس أمراً مستغرباً لحوت يافع أن يقترب من سفينة الأبحاث وينظر إلى ملاحيها قبل أن تستدعيه الأم ليرجع.

وعلى الرغم من شكوك الصيادين بشأن الأصل الثديي لطريدتهم، إلا أنهم كانوا يفهمون ميزة واحدة مشتركة بين الثدييات وهي رابطة الأمومة. فالصغار الرضيعة بطيئة الحركة ومن السهل

رؤيتها، ومقاومتها ضعيفة لسلاح الحربون، وهي تمضي الكثير من الوقت وهي تتغذى، فصغار الحوت الأحدب تشرب حتى 450 لترا من الحليب في اليوم أي ما يعادل أربعة براميل[cxci]. وفي المحيط الكاريبي كانت الثنائيات التي تتألف من الحوت الأنثى ورضيعها هي الطرائد المختارة لصيادي الحيتان التقليديين والحديثين. وفي عام 1907 وفي أثناء البحث عن الحيتان الصائبة كتب عالم أحياء الحيتان إي. أ. ويلسون: «يبدأ الصيد بالقضاء على الصغير... لأنه من المعروف أن الأم ستصبح عندها سهلة المنال، لأنها لن تغادر الخليج دون رضيعها». ولعل هذا النوع من صيد الحيتان كان (الأسلوب الأسرع والأكثر كمالاً لإبادة حيوان ما تم استخدامه على الإطلاق)[cxcii].

إن إناث حيتان البيلين أضخم من الذكور، لتتمكن من تخزين مقادير هائلة من الطاقة التي تحتاجها لمدة حمل الجنين ومن ثم إرضاع وليدها الذي يزن عدة أطنان خلال فترة الصوم الشتوية الطويلة[cxciii]. وكان صيادو الحيتان الذين يستهدفون الحيوانات الأضخم عارفين بدورات التناسل لدى الحيتان، وكانت الإناث الحوامل مرغوبة جداً، ولكن بعد فطام صغارها فإنها (جلودها الجافة) قليلة القيمة بالنسبة لصيادي الحيتان.

وسجّل صيادو الحيتان أن إناث الحوت المقوس الرأس والصائب والأحدب والحوت ذا الزعنفة ستتحدى الإصابة أو حتى تضحي بنفسها من أجل صغارها، لكن ثمة فصيلة واحدة أثبت قتل الصغار فيها أنه أمر خطير. فبالنسبة للصيادين، كانت الحيتان الرمادية هي السمكة الشيطانية – فعندما تتم مهاجمة صغارها تستجيب الإناث الساخطة فتقلب القوارب وتقتل الصيادين. كان صيادو الحيتان يتعلمون بسرعة، فبدلاً من أن يتركوا مكان الصيد، كانوا يحولون حراب الحربون نحو الأم، فيصبح الصغير اليتيم فريسة سهلة.

وعلى العكس، تركز صيد حيتان العنبر على الذكور الكبيرة، التي تنتج كميات أكبر من الزيت. وقد تصور ميلفيل حوت العنبر الذكر – وهو بنصف طول الأنثى – على أنه (سيد الحريم)[cxciv].
وبعد سنوات من المراقبة في البحر، اقترح عالم الأحياء الكندي هال وايتهيد أن العلاقة بين ذكور الحيتان وإناثها يتم تنظيمها بالرضا المتبادل، وربما بالوساطة من خلال وجود ذكور ضخمة أخرى في المنطقة[cxcv].

وعلى مدى ملايين السنين خدمت حيتان العنبر طبيعتها الاجتماعية بشكل جيد، فالإناث تعيش في جماعات، مما يمكنها من مجالسة صغار غيرها. ولا يمكن ترك الحيتان الصغيرة، التي تجبر على الصعود إلى السطح بسبب قدرة رئتيها الصغيرة، وحيدة خلال الغطسات الطويلة التي تقوم بها البالغة في بحثها عن أسماك الأعماق وحبار المياه العميقة، لهذا تتناوب الإناث في الرعاية بالرضع: وهي تقوم بالإرضاع الجماعي – وغالباً ما يكون هناك عدد من الإناث المرضعات أكبر من عدد الصغار في المجموعة بشكل دائم – وتبقى متيقظة للحيوانات المفترسة الأخرى مثل أسماك القرش والحيتان القاتلة[cxcvi].

ومع ذلك فإن استغلال الإناث يمكن أن ينجم عنه موت المجموعة بكاملها، بما أن الهجوم على رضيع أو على الأنثى الأم الراعية يمكن أن يجذب المجموعة بكاملها لمساعدتها، وعادة فإن حيتان العنبر عندما تشعر بالتهديد تتجمع في دائرة وتضرب بأذيالها على الحافة الخارجية من الدائرة، وتقنية الدفاع هذه، التي وصفها أحد الباحثين اليابانيين بأنها تشبه زهرة المرغريتا (اللؤلؤية) أو زهرة الربيع، يمكن أن تنجح في مواجهة الحيتان القاتلة، غيرأن صيادي الحيتان الحديثين يتعمدون إصابة أضخم حوت في المجموعة بحراب الحربون، وهم يأملون أن يحرض هذا الحيتان على تشكيل الحلقة،

وعندها يقوم الصيادون بقتل الحيتان من جهة البحر، واحداً بعد الآخر[cxcvii].

قد تكون المسافة بين مناطق التغذية ومناطق التناسل هائلة، ففي النصف الشمالي من الكرة الأرضية، تهاجر بعض الحيتان الحدباء من أيسلندة إلى المحيط الكاريبي في كل شتاء، وفي النصف الجنوبي، تهاجر من المنطقة القطبية الجنوبية إلى كولومبيا. في حين أن الحيتان الرمادية تقوم بأطول هجرة بين الثدييات على الكوكب، أي حوالي 20.000 كيلومتر من بحر بيرنغ إلى باجا في كاليفورنيا وتعود كل سنة.

وبينما تقترب من مناطق التناسل، تبدأ ذكور الحيتان الحدباء بالغناء وتبدأ أعداد الحيوانات المنوية لدى الحيتان ذوات الزعنفة بالارتفاع. وكما يتوقع المرء من أضخم حيوان على الكوكب فإن التفاصيل تبعث على التواضع. ففي القرن السادس عشر كتب عالم الطبيعة الفرنسي غيوم رونديليه:

«بما أن الحيتان المتزاوجة لا يمكنها الالتحام من مسافات قريبة بسبب أجسادها الهائلة، فإن أعضاءها الذكرية بطول 13 ذراعاً، وما إن رأيت عضو حوت بهذا الحجم ملقىً على كتف رجل طويل، وهو يجر نهايتيه على الأرض، فباستطاعتك أن تتخيل كم سيصبح كبيراً عندما تكون الحيتان الذكور في حالة الإثارة للتزواج في أثناء مطاردة الإناث[cxcviii]».

وعلى الرغم من أن طول العضو الذكري للحوت لا يصل إلى 13 ذراعاً (أكثر من 6 أمتار) وهو غير قابل للتمدد، فإن العضو الذكري للحوت الصائب والذي يصل طوله إلى 2.5 متر يمكن تحريكه بخفة مثل إصبع كبير جداً. وعلى عكس حيتان العنبر التي تستعمل رؤوسها الضخمة والأعضاء المنتجة للعنبر للتغلب على منافسيها، تتنافس الحيتان الصائبة باستخدام أعضائها التناسلية والنطاف.

ففي مجموعة يمكن أن تضم حوالي 30 خاطباً، تتبع الذكور الإناث لساعات وكل عملية ولوج هي محاولة لإزاحة نطاف من سبقوه، وتكون الخصي التي تزن طناً في حجم الغسالات.

جذبت الحيتان البشر لسبب التأقلم نفسه الذي جعلها ناجحة جداً في المحيط، فقد جعل حجمها الهائل من حيوان واحد وليمة لقرية بكاملها، وشجع على التجارة بين المجتمعات. وتمكن الصيادون بفضل رابطة الأمومة من مضاعفة غنائمهم، وسمحت لهم المجموعات المتوالدة بزيادته من خلال تسلسل الحجم، وقد يتسبب مجرد تنفس الحوت في وضعه في طريق الحربون.

وسمح ارتحال الفتحات التنفسية إلى أعلى الرأس للحيتان بالتنفس من دون أن تطفو على سطح الماء، فيكفي أن تخرج الفتحات القاذفة للماء وجزء بسيط من جسده عندما يتنفس الحوت. وإن قدرة رئتي الحوت هائلة، فيستطيع حوت أزرق بالغ أن يستنشق 5.000 ليتر، أو ما يعادل غرفة مليئة بالهواء، قبل أن يغطس[(cxcix)].

ويكون الزفير السريع مرئياً بسبب البخار وماء البحر المندفع على شكل عمود من الهواء، والذي يمكن للمراقب على الشاطئ رؤيته، ومن أعلى صواري السفينة كذلك، ولا يهم إن كانت رسالة مرمزة صادرة عن فيغا (نقطة المراقبة) أو النداء (إنها تزفر!)، ذلك أن الاستجابة قاسية لا ترحم.

6 - الزيت والعظم

الحيتان والنار: في بعض مجتمعات الدائرة القطبية، كان يتوجب على زوجة قبطان سفينة صيد الحيتان أن تُبقي النار مشتعلة في المنزل حتى انتهاء الصيد، وكان عليها البقاء في خيمتها، وألا تستقبل أي زوار حتى يتم صيد الحيتان أو أنها ستهرب (ربما في محاولة لمنع نار من نوع آخر من الاشتعال)[cc]. وفي أوروبا وآسيا، انتشرت قصص برندان[1] والسندباد اللذين أشعلا النار على ظهور حيتان نائمة. وفي الصين، كان العنبر هو بصاق التنين. وبالنسبة لإيهاب، فإن (اللهب الأبيض الشوكي) هو الحوت، إذ إن موبي ديك و(إصبع الرب الحارق)، أي البرق الذي يلمع فوق سفينة البيكود، كلاهما يتطلبان نفس الدرجة من التبجيل: (تلك الروح النقية من النار الصافية، التي تسطع على هذه البحار، والتي لم أعبدها كفارسي... أنا الآن أعلم أن عبادتي الصحيحة هي المواجهة)[cci].

وفي فيلم والت ديزني بينوكيو الذي ظهر في عام (1940)، يقوم الفتى الدمية الشجاع بإنقاذ نفسه ووالده جيبيتو عبر إشعال نار في بطن الحوت مونسترو – (حوت الحيتان)، وفقاً لجيمي كريكت، وهذا الحوت اعتاد ابتلاع السفن بكاملها بالأحياء الذين على متنها) – ويسبح مقلداً الحوت الغاضب الذي صادف السندباد، إنه خطرٌ على جميع من في البحر، فهو كتلة متجهمة من الدهن لها مظهر عابس لزج. إن الحوت الخيالي مونستر مزيج من حوت الروركوال وحوت العنبر، وجزء منه يرتكز على قصة يونس، لكنه في النهاية من عمل ديزني. إن الحوت عبارة عن سجن تحت الماء ويحتوي على تجويف فيه هواء يوفره الوحش. وفي رواية كارلو لورينزيني مغامرات

---

(1) عاش (حوالي 484 – 578) وهو قديس أيرلندي وبطل رحلة أسطورية في المحيط الأطلسي.



تبدو في هذه الصورة براميل زيت العنبر على رصيف ميناء نيوبيدفورد، فقد كان الزيت المستخرج من دهن الحوت أساسياً في العلاقة بين البشر والحيتانيات لقرون.

بينوكيو Adventures of Pinocchio، التي كتبها في عام 1882، يبتلع كلب البحر جيبيتو وبينوكيو، وبدلاً من أن يقوما بإشعال النار، يتمكنان من الهرب من الوحش وهو نائم.

ولعل ارتباط الحيتان بالنار ينتشر في العديد من الحضارات، ولكن بالنسبة للحوت، فإن الخطر الحقيقي من الاحتراق يكمن في حقل الزيت تحت جلده مباشرة. وأدى السعي التجاري للحصول على زيت يحترق بنظافة من دهن الحوت إلى تغيير العلاقة بين الحيتانيات والبشر بشكل كبير. وقد كتب ميلفيل: (إن هذا الغطاء الدافئ الذي يحيط بجسد الحوت يسمح له من البقاء مستريحاً مهما كانت طبيعة الطقس، وفي جميع البحار والأوقات ومهما كان ارتفاع الأمواج)[ccii]. وبالفعل فإن هذا الغطاء يُبقي الحيتان مرتاحة، لكنه جعل منها أيضاً مصدراً كبيراً للأرباح. وبالنسبة لصيادي الحيتان الأميركيين (اليانكي) فقد كان هذا الغطاء يعني شريطاً دهنياً بوزن 500 كيلوغرام.

في البداية، قامت الحيتان الصائبة بتوفير زيت الحوت. فزيت

الحوت يحتوي على الغليسرين الناتج من الحموض الدهنية – وهو الشحم المستخرج من الدهن، وهو مطابق للمركبات الموجودة في الشحم البشري. كان زيت الحوت يُستخدم لأغراض الإضاءة والتشحيم وللتنظيف على شكل صابون.

حل زيت العنبر محل زيت الحوت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وعلى عكس الغليسرين الموجود في زيت حيتان البيلين، فإن حيتان العنبر وغيرها من الحيتان ذات الأسنان تُخزن سلسلة طويلة من الجزيئيات والمعروفة بالشمع الملحي العضوي. ولأن هذه الشموع تتألف من الكحول والحموض الدهنية فإنها مستقرة وتحترق بنظافة وتقاوم التآكل. وسرعان ما أصبح زيت العنبر هو الزيت المختار للإضاءة وهو منتج متفوق حلّ محل مخزون زيت الحوت المتدني[cciii]. وكمكافأة لصيادي الحيتان فإن العنبر الذي يملأ الرأس الهائل الحجم، صنع أفضل أنواع الشموع في العالم. وتتألف كلمة Spermaceti من كلمة sperma، اللاتينية والتي تعني السائل المنوي أو النطاف، وكلمة cetus التي تدل على وحش البحر أو الحوت، وهو المفهوم الإنجليزي المبكر والخاطئ الذي استمر إلى يومنا هذا. ويمكن فهم الارتباك هنا، فقد قيل إنه عندما يتبلور العنبر يبدو مثل مني الثدييات المقذوف، وبحسب ما أورده عالم الأحياء ريتشارد لوز: (كل من رأى رأس حوت عنبر مفتوحاً يعرف أن للعنبر رائحة قوية مثل رائحة المني)[cciv]. وقد لا ينتج العضو العنبري المني، ولكنه بالإضافة إلى المخلفات والأكياس الهوائية ونظام الرنين في مقدمة رأس الحوت، فإنه يساعد في تشكيل فعالية الحوت وتركيزه والذي بواسطته يتمكن من تحديد موقع فريسته بواسطة الصدى ويمكنه من التواصل بين أفراد عائلته[ccv]، وهو لا يلعب دوراً في عملية التناسل – فالحيتان الذكور تقاتل من أجل

الحصول على الإناث باستخدام رؤوسها.

وما إن استطاع الصيادون التواصل مع سكان الجزر في المحيط الهادئ، حتى تبعهم المبشرون. وقد كتب صياد الحيتان والكاتب ناثان كول هالي أن الكاهن على جزيرة روتما[1] Rotumah: (قام بتوجيه بعضهم واستطاع إصلاح القليل من أخلاقهم ولكن لا يزال أمامه عمل كثير لينجزه في وقت فراغه)[ccvi]. وتأقلمت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مع الوضع: فقد كانت جميع الشموع الشعائرية، حتى الوقت الذي تأسست فيه الأبرشيات في جنوب المحيط الهادئ، تُصنع من شمع النحل، إلى أن تسلّم رعاة هذه الأبرشيات الذين يزورهم صيادو الحيتان في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية[ccvii] أمراً بابوياً، يسمح باستخدام شموع العنبر على مذابح الكنائس نظراً لصعوبة العثور على شموع النحل بالقرب من مناطق صيد الحيتان البعيدة عن روما.

وعلى الرغم من أن أعداد الحيتان ارتفعت بشكل نموذجي خلال فترة الحرب – عندما كان البحارة مشغولين بتدمير بعضهم بدلاً من قتل الحيتان – فإن مجموع ما تم اصطياده موسمياً في النصف الجنوبي ارتفع إلى أكثر من 11.000 حوت في السنة خلال الحرب العالمية الأولى. وكان الهدف من الصيد هو الغليسرين، وهو منتج ثانوي ينتج من هدرجة زيت الحوت، ويحول إلى سمن صلب صالح للأكل (مارغرين). وهذا الكحول الحلو الطعم كان المكون الأساسي في تصنيع النيتروغليسرين، المكون المهم في صناعة الديناميت من أجل الحرب والمفيد في علم أمراض القلب. وشُجع صيادو الحيتان على قتل حوت في إثر آخر للحصول على الغليسرين حتى عندما لا يوجد معمل على مدى البصر[ccviii].

وفي كتاب مرآة الملك King's Mirror، الذي كُتب في القرن

---

(1) وهي جزيرة تتبع لفيجي.

الثالث عشر، كان الاعتقاد السائد أن البيلين يمكن أن يسبب موت الحيتان ويمنعها من إغلاق أفواهها. واقترح الجراح الفرنسي أمبرويز باري في الدراسة التي كتبها حول الوحوش في القرن السادس عشر أن صفائح البيلين تعمل مثل الشوارب، (حتى لا يصطدم الحوت بالصخور)(ccix). وكان بول دودلي أحد الأوائل الذين فهموا الأمر بشكل صحيح في عام 1725: (لقد اعتقد بعضهم أن القسم الشعري من عظم فك الحوت والمجاور للسانه، يقوم بعمل المصفاة لطعامه). ومرة أخرى استبق دودلي عصره عندما لاحظ أوجه التشابه بين الحيتان والثدييات ذات الحوافر: (إن أحشاء هذا الحوت مكونة ومرتبة بطريقة تشبه أمعاء الثور)(ccx).

يمتلك جنين الحوت في كل من حيتان البيلين والحيتان ذات الأسنان براعم سنية، ولكن يعاد امتصاصها ثانية في أجنة حوت البيلين، وهي تطوّر سلسلة من الأثلام الطولانية على الفك الأعلى تتألف من طيات من البشرة. وتتقرن هذه الطيات إلى صفائح البيلين المتقرنة (الكيرياتينية).

لاحظ شعب الإنويت التشابه بين البيلين وبين التقرنات التي تطورت لدينا نحن البشر: ففي بعض الروايات، يعود أصل البيلين إلى أظافر سيدنا Sedna. وكما هي الحال مع أظافرنا، يمكن استخدام السماكة النسبية لصفائح البيلين لتقييم الحالة الغذائية للحوت: إذ إن التبادل بين التغذية الصيفية والصوم الشتوي في أغلب الحيتان يترك مناطق نمو تشبه قليلاً الحلقات التي تتكون على الأشجار، ولكن بما أن الصفائح تتآكل بعد خمس أو ست سنوات فلا يمكن تحديد عمر الحوت بسهولة بهذه الطريقة(ccxi).

وكان يمكن العثور على البيلين أو عظام فك الحوت في جميع أرجاء المنزل: كأطواق التنانير، وكاشطات اللسان، ونعال الأحذية، وسنارات صيد الأسماك، وأدوات التنقيب، والعصي وسياط ركوب

الخيل. وكان يتم استخدام أفضل الحواف لصنع المكانس وفراشي تنظيف المداخن. ولعل دهن الحوت قد أضاء العالم، غير أن أكثر منتجات البيلين أهمية كان محفوظاً في الظلام، فقد تم تصميم مشد عظم الحوت ليمنح النساء الأنيقات أصغر قياس ممكن لخصورهن. وتم توظيف أعواد البيلين في البداية لثني خصر الفتيات الشابات في إنجلترا خلال حقبة ماري ثيودور. وحتى لا يتفوق عليها أحد في عالم محيط الخصر، أعلنت كاثرين دو ميديتشي ملكة فرنسا، أن محيط الخصر المثالي هو 13 إنشاً[(ccxii)].

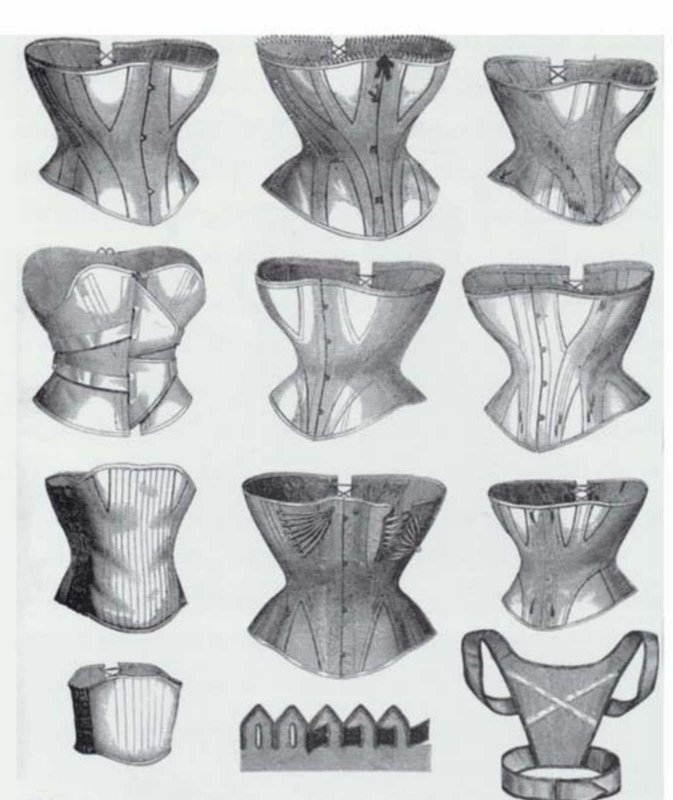
في القرن التاسع عشر، غالباً ما كان يتم قطع الجوانب الصلبة من عظام فك حوت العنبر بالمنشار، ليتم إدخالها في الجانب الأمامي من المشد النسائي لضمان المظهر المستقيم. وعلى السفن، كان الصيادون يقومون بحفر نماذج تفصيلية على هذه العظام، إذ سيكون من الصعب تخيّل هدية أكثر حميمية يحضرونها معهم لأحبائهم بعد سنوات قضوها في البحر.

وكم كانت قاسية تلك الصدارات التي أوصى باستخدامها



تبدو في هذه الصورة طريقة تحضير عظام فك الحوت أو البيلين في يوركشاير عام 1813.

تبدو في هذه الصورة بعض المشدات من القرن التاسع عشر، فقد كان هناك مشدات من عظام الحيتان مخصصة للصيف، وأخرى للشتاء، ومشدات لكل شكل وقياس. حتى إن المشد الذي يظهر في أسفل يسار الصورة مصمم لطفلة عمرها يتراوح بين السنة والسنتين.



الطبيب الفرنسي نيكولاس اندري في القرن الثامن عشر، لمعالجة الجنف وتقوس العمود الفقري. لقد دفعت النساء ثمن إبقاء خصورهن رفيعة كخصور العارضات الشهيرات، إذ تشوهت أضلاع القفص الصدري، وكان على بعض النساء إزالة أضلاعهن السائبة. ومع ذلك فإن المشدات النسائية كانت أكثر من مجرد إساءة للجسم عن طريق الموضة: فقد استعادت القوام اليافع للسيدات في منتصف العمر، ومنحت جواً من الأرستقراطية للطبقات المتوسطة، واستمر تقليد ارتداء المشدات لقرون. وفي عام 1853، في ذروة الصيد



اعتمدت النساء الأنيقات على عظام الحوت لتحصلن على شكل الساعة الرملية. وتبدو في هذه الصورة ملابس الشاطئ الصيفية التي تحتوي على جميع الأربطة والعظام المشدودة والموجودة في الأثواب العادية.



تُظهر هذه الصورة صفائح البيلين المستخرجة من الحيتان المقوسة الرأس، وهي معروضة في الشمس لتجف على رصيف السفن في شركة زيت الدائرة القطبية Arctic Oil Works في سان فرانسيسكو.

الأميركي للحيتان (اليانكي)، تم تفريغ 5.652.300 رطل من البيلين في موانئ الولايات المتحدة بقيمة تعادل 1.950.000 دولار[ccxiii].

لم تكن عظام الحوت مصدر ألم للنساء وحسب، لكنها استخدمت أيضاً لتأديب أطفال المدارس الجامحين - فعندما يتعرض طفل للضرب بعصا مصنوعة من عظم الحوت، فإن الفعل هو Whale، (أي اسم الحوت)، وفي رواية كوخ العم توم Uncle Tom's Cabin، ينهال سيمون ليغري ضرباً على عبده مستخدماً سوط ركوب الخيل متهكماً حين يقول: (ألا يعجبك أن تضرب بطريقة Whaling، يا توم؟)[ccxiv] وبحلول أواخر القرن العشرين، تحرر الفعل من أصله القرني (الكيرياتيني) - لم يعد له علاقة بعظام الحوت، على الرغم من أن الضرب بالسياط احتفظ بكلمة Whale، كما في قولهم ولا يزال الشاعر (يسوط نقاده بعنف)[ccxv].

وأصبح لأهمية الحوت مساوئها نتيجة المبالغة باستخدامها، وأصبحت المقارنة بالحوت إطراءً أكبر من الحياة نفسها، وكتب ج. ب. بريستلي في عام 1954: (صديق كالحوت في جرأته، مثل طياري سلاح الجو الملكي). وأصبح باستطاعة المرء أن يقول: (حوت في الجغرافية)؛ أي أنه خبير بها، أو حتى الأفضل من ذلك: (أتمنى لك حوتاً من الوقت الجيد)، ؛أي الكثير منه[ccxvi].

ومن بين جميع منتجات الحيتان، كان العنبر أكثرها غرابة وأغلاها سعراً، وكانت له قيمته كمحفز جنسي، وملين للأمعاء وبهار وكبخور واستعمل في مواد التجميل. وكان المصريون يقومون بسكب القهوة على العنبر المذاب لإضافة النكهة إلى شرابهم. وفي الصين، كان العنبر رفاهية نادرة ويساوي قيمته ذهباً. وقد باعه التجار الصينيون على أنه منتج آت من البحر الغربي للرومان، حيث يمكن العثور على التنانين بأعداد كبيرة. (عندما يكون التنين مستلقياً على صخرة وهو نائم، فإن لعابه يطفو على سطح الماء ويتجمع ويصبح

صلباً، ويقوم الصيادون بجمعه على أنه أكثر المواد قيمة)[ccxvii].
وفي الغرب، كان العنبر هو روث أو مني الحيتان، أما في الشرق الأوسط، فقد كان رذاذ البحر المتحجر، أو فطراً من البحر العميق، كما لو كان كمأة على الأرض أو شمع نحل يسيل إلى البحر[ccxviii].

كتب عالم النبات الفلمنكي كارلوس كلوسيوس أول وصف عن المصدر الحقيقي للعنبر، وهو أمعاء الحوت في عام 1574. وبعد صعود نجم الصيد الأميركي (صيد اليانكي) للحيتان، لوحظ أن حيتان العنبر التي تعيش في المياه العميقة فقط هي التي تصنع هذا المنتج الثمين، الذي أصبح له قيمة كبيرة كمثبت للرائحة في العطور. وعلى الرغم من أنه تم العثور كثيراً على مناقير الحبار بين كتل العنبر، فلا يزال سبب تشكله غير معروف حتى الآن. وهو يوجد في أقل من 5٪ من الحيتان[ccxix]. وعادة ما يكون وزن الكتلة أقل من 10 كيلوغرامات، على الرغم من أن أضخمها سجلت وزناً مقدراه420 كيلوغراماً[ccxx]؛ واحتاج الأمر إلى رافعة لإزالتها من حوت عنبر ذكر في المحيط الجنوبي في عام 1953.

وعلى الرغم من أن المتسكعين على الشواطئ قد يعثرون على كتل غامضة على الشاطئ، فقد قال عالم الحيتان دال رايس إنه يندر العثور على العنبر من دون وجود جثة الحوت، وقد اقترح الاختبار التالي لتأكيد هوية الكتل التي يتم العثور عليها قرب البحر:

«قم بتسخين سلك أو إبرة على لهب، ثم اغرزها إلى عمقٍ بحوالي السنتيمتر، فإن كانت هذه المادة عنبراً بالفعل ستذوب فورا وتتحول إلى سائل غير شفاف له لون الشوكولاتة القاتمة. وعندما يتم سحب الإبرة فإن العنبر سيترك أثراً لزجاً عليها[ccxxi]».

وتبدو رائحة العنبر الطازج مثل غائط الحوت؛ رائحته نتنة وحادة، لكنها تصبح أفضل بمرور الوقت، ولقد تمت مقارنة رائحتها برائحة السيجار الممتاز. وكتب كيميائي صيد الحيتان كريستوفر آش



(حوت حقيقي بالتأكيد): بالنسبة لهؤلاء الذين لم يصعدوا على متن سفينة صيد حيتان من قبل، فإن جثث الحيتان المنقولة على عربات السكك الحديدة تمثل الفرصة الوحيدة لرؤية حوت حقيقي وشم رائحته.

يقول أن هذه الرائحة ذكرته (برائحة الخشب الإنجليزي اللطيفة في الربيع، وبالعطر الذي تشمه عندما تزيل الطحالب لتكشف التربة القاتمة تحتها)[ccxxii].

كانت الحروب البشرية عبارة عن فترات راحة ترحب بها الحيتانيات، فخلال الحرب الأهلية الأميركية، هاجم القائد الحليف جيمس وادل أسطول صيد الحيتان، وأسر وأحرق السفن من داكار إلى أستراليا والمنطقة القطبية الشمالية. وكانت سفينته التي صنعت في بريطانيا تتمتع بقوة بخارية إضافية مكنته من التغلب على سفنِ صياديِ الحيتان بطيئة الحركة. ومما يُشهد له أنه لم يقتل رجلاً واحداً في أثناء إنجازاته بل كان يقوم بإيصال طاقم السفن الأميركية بأمان إلى أقرب ميناء. وتمكن الحلفاء المهاجمون من تدمير 40 سفينة حيتان، وقاموا بإغراق 40 سفينة أخرى لإغلاق موانئ في الجنوب.

لم تتعاف صناعة صيد الحيتان الأميركية (صيد اليانكي) من هذا أبداً، ومع خسارة الكثير من السفن، فقد كان أمام المالكين فرصة لتحديث أسطولهم بعد الحرب، غير أنهم لم يتبنوا التقنية

الجديدة أبداً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تم اكتشاف البترول في بنسلفانيا في عام 1859. ومما يدعو للدهشة أن هذا الوقود البديل الرخيص يتشارك المصدر الأولي مع زيت الحوت – ألا وهو العوالق – حتى ولو كانت هذه العوالق قد تحجرت، كما في حالة البترول. وانخفض سعر زيت الحوت إلى 31 سنتاً للغالون الأميركي في عام 1905، بعد أن كان قد وصل إلى ذروته في عام 1865 بسعر قدره 1.45 دولار للغالون الأميركي الواحد. وكان رد فعل المهنة الأول على هبوط الأسعار هو القيام بصيد المزيد من الحيتان.

وعلى الرغم من أن النساء قد حُشرن في المشدات للحصول على شكل الساعة الرملية حتى نهاية القرن التاسع عشر، إلا أن المعايير بدأت بالتراخي. وأصبحت مشدات الخصر المعدنية الممتازة المصنوعة على نموذج الجمال الطبيعي للهيئة البشرية واسعة الانتشار. ومع انسحاب الخصر الصغير من عالم الموضة، انتفت الحاجة إلى إضاعة النقود على عظام الحيتان في محاولة الحصول على الشكل غير الإنساني تقريباً. وانخفض سعر المفرق (التجزئة) للبيلين من 5 دولارات إلى 50 سنتاً للرطل الواحد. وتم إنتاج النوابض الحديدية في عام 1907، لتحل بسرعة محل البيلين كمادة رخيصة وأكثر مرونة.

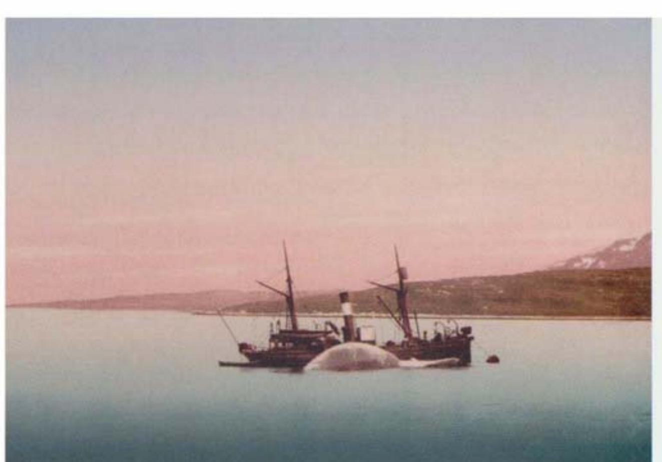
ربما كان اكتشاف الوقود الحجري وصناعة النوابض الحديدية بالإضافة إلى تغيّر الموضة، المسمار الأخير الذي دُق في نعش صيد الحيتان التجاري. وبدلاً من ذلك، فقد قامت المدافع والبترول والمنتجات الصناعية الجديدة بفتح المجال لصيد مجموعة مختلفة تماماً من الحيتان.

7 - المصانع العائمة

في قديم الزمان كان صيد الحيتان عملية تُدار على نطاق ضيق، وله جذور عميقة منذ ما قبل التاريخ في المنطقة القطبية الشمالية. وساعد الصيد في عرض البحر والتطورات الأخرى في تغيير منظور البشر نحو الحيتانيات، لتسمح بقتل الحوت ومعالجته بدون العودة إلى الشاطئ. ولكن الستينيات من القرن التاسع عشر كانت نقطة تحول في تقنية صيد الحيتان، وهو انقسام عميق جداً لدرجة أن بعض المؤرخين قسّموا صيد الحيتان إلى صيد الحيتان القديم والتقاليد الحديثة في ذلك الوقت.

في ذلك الوقت، كان كل من البحار النرويجي سفيند فوين والأميركي توماس رويز يعملان بشكل منفصل على سلاح الحربون المتفجر. وقام رويز بتسجيل مدفع الحربون المحمول على الكتف الذي اخترعه في عام 1861، وقد أصر أن هذه الأداة: (تثبت بشدة على الحيتان حتى مسافة 100 قدم، وأن انفجار الغلاف بعد ثمانية ثوان من ثباتها على الهدف يؤدي إلى الموت الفوري). ربما لم تحدث الوفاة مباشرة ولكن تنبؤات رويز – أن التقنية الجديدة (ستثبت أن مهنة صيد الحيتان لا تزال في مراحلها الأولى) – كان صحيحاً تماماً[ccxxiii].

ولقد أصبح مدفع فوين المرتكز على مقدمة السفينة معياراً للحرفة. ففي عام 1863 تمكن من قتل حوت أزرق؛ لوثيان، باستخدام مدفع يزن طناً موضوعاً على سفينة بخارية. وكان رمح الحربون الذي يصل طوله إلى المتر وله شكل كالماسة، يحتوي على قنبلة متشظية في رأسه، تنفجر عندما يخترق الحربون الحوت. ومن ثم يتم جرّ السلك المرتبط به إلى السفينة باستعمال القوة البخارية، ليجلب معه الحوت المحتضر. وقد كتب عالم الأحياء البحرية البريطاني



تبدو في هذه اللوحة سفينة نانسي غراي، سفينة صيد الحيتان مع طريدتها بالقرب من سكاكرو في النرويج حوالي العام 1890.

أليستر هاردي: (أنه أصبح بالإمكان الإمساك باللوثيان وسحبه مثل سمكة على خيط الصنارة)(ccxxiv). كان هذا الحربون من القوة بحيث يستطيع سحب حوت غارق إلى السطح، حيث يتم ضخ الهواء المضغوط إلى داخل الجثة.

وفجأة أصبحت جميع الأنواع في العالم معرضة للاستغلال، فقبل اختراع قنبلة الحربون كانت الحيتان الزرقاء الحية سريعة الحركة والميتة منها، تغرق بسرعة كبيرة بحيث لا يمكن صيدها بفعالية. ومع وصول التقنية الجديدة، أصبحت هي المقياس التي تُقارن به جميع الحيتان الأخرى. وكان أضخم حيوان على الإطلاق تم الإمساك به عبارة عن أنثى حوت أزرق معافاة اصطيدت بالقرب من ساوث جورجيا، وكانت بطول 33 متراً وبوزن 190 طناً تقريباً. وعلاوة على ذلك فحتى الحوت الأزرق العادي جدير بالاعتبار؛ حيث يتراوح وزن جسم البالغ منها بين 80 إلى 150 طناً. إن أوعيتها الدموية ضخمة لدرجة تسمح لسمكة سلمون مرقطة كاملة النمو أن تسبح خلالها(ccxxv).

تبدو في هذه الصورة بعض حيتان الروركوال الميتة وهي مملوءة بالهواء المضغوط تمهيداً لنقلها إلى السفينة المعمل في الفترة حوالي 1935 - 1945.



حتى إن زفراتها هائلة وتصل إلى ارتفاع 9 أمتار نحو السماء، وهذه الزفرات الطويلة المستدقة جعلت رؤيتها أكثر وضوحاً من قبل الصيادين. وقد تزامن تصاعد صيد الحيتان الصناعي مع اكتشاف أغنى مناطق الصيد على الأرض[(ccxxvi)]. ففي عام 1904 أبلغ صياد الحيتان النرويجي سي. ف. لارسن عن رؤيته للحيتان الزرقاء وذات الزعنفة والحدباء والصائبة لدى وصوله إلى جزيرة ساوث جورجيا في المحيط الأطلسي الجنوبي فقال: (لقد رأيت أعدادها بالمئات والآلاف)[(ccxxvii)]. وعلى الرغم من أنه واجه صعوبة في جمع المال في أوروبا، إلا أن لارسن قام بتأسيس محطة لصيد الحيتان على الجزيرة بأموال تم جمعها في الأرجنتين. وكان نجاحاً فورياً، فخلال عقد من الزمان تم افتتاح ثماني محطات لصيد الحيتان على جزيرة ساوث جورجيا، وتم القضاء على أكثر من 18.000 من الحيتان الحدباء في السنوات العشر الأولى، وزهاء 40.000 حوت أزرق قتلت خلال العقود الثلاثة الأولى من هذه العملية التجارية، وانهارت أعداد الحيتان في المنطقة ولم تتعاف أبداً[(ccxxviii)].



تُظهر هذه الصورة طبقة من الدهن في أثناء إزالتها من جثة حوت روركوال في حوالي عام 1935 - 1945.

ولم يتوقف الابتكار عند مدفع الحربون، ففي عام 1924 قام المدفعي النرويجي بيتر سورل من فيستفيلد باختراع مؤخرة سفينة تنزلق، وباستخدام كلابات هيدروليكية خلفية، أصبح بالإمكان رفع حيتان بكاملها إلى سطح التقطيع، حيث يتم استخدام مراجل عالية الضغط للتعامل مع الحيوانات. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر كانت عملية استخلاص المنتجات من حوت عنبر بالغ تتطلب 36 ساعة، ولكن في العشرينيات من القرن العشرين أصبح بالإمكان التعامل مع حتى أضخم الذكور في أقل من ساعة[ccxxix]. وتم استبدال الحاويات الخشبية التي لها شكل البرميل والتي كانت تصطف سابقاً على أرصفة الموانئ بخزانات كبيرة في مخازن السفينة. واختفى البرميل الخشبي رمز صيد الحيتان لقرون طويلة.

تم تعديل السفينة التي حملت اسم سي. ف. لارسن في النرويج في عام 1926 وكانت تزن 13،246 طناً، وقال تقرير إخباري: (إن هذه هي أضخم سفينة حتى اليوم يتم توظيفها في خدمة صيد الحيتان، وهناك احتمال قوي بأنه قد تم الوصول إلى أقصى الحدود)



[ccxxx]. ساعدت سفن المعامل هذه في فتح المحيطات الجنوبية أمام الاستغلال، ففي عام 1914 كان المحيط المتجمد الجنوبي مصدراً لحوالي نصف كمية زيت الحوت في العالم، وبحلول عام 1938 كان ما نسبته 92٪ من الزيت يأتي من الجنوب[ccxxxi]. وتم تجاوز حجم السفينة لارسن خلال بضع سنوات فقط، وبحلول الستينيات من القرن العشرين كان متوسط وزن المعامل العائمة أكثر من 19،000 طن، وتم توظيف سفن للصيد، وهي غالباً بحجم سفن صيد الحيتان في القرن التاسع عشر، للقيام بعملية القتل، وتم تزويدها بقنابل الحربون، وقد استعمل ملتقطو الحيتان الأوائل القوة البخارية لتتبع طرائدهم وجرّ جثثها. وتم تقديم محركات الديزل (المازوت) إلى هذه الصناعة في ثلاثينيات القرن العشرين، ورفض صيادو الحيتان التقنية الجديدة في البداية، معتقدين أن الضجة الهائلة التي تصدر

يبدو في هذه الصورة صياد الحيتان الياباني يوشين مارو وهو يطلق الحربون على حوت في المحيط الجنوبي، حوالي عام 2001-2002.

عن محرك الديزل ستخيف الحيتان. وقد كانوا على حق، ففي زمن المجداف والشراع وحتى في عصر البخار، كان باستطاعة صيادي الحيتان التسلل ومفاجأة الحيوان الغافل. وأصبح ملتقطو الحيتان مجبرين على مطاردة فريستهم وإنهاكها قبل أن يتمكنوا من إطلاق النار عليها.

وترافقت التغييرات التي حصلت في عملية الصيد مع التغييرات في استخدام زيت الحوت - إذ تحوّل من مصدر للوقود إلى طعام. وعلى الرغم من كونه صالحاً للأكل فإن للزيت رائحة قوية يعدها أغلب الغربيين مقززة. ومع تطور عملية الهدرجة - حيث يتم إضافة ذرتين من الهيدروجين إلى حامض الأوليك، وهو المكون الشحمي الأكثر شيوعاً في زيت الحوت - تم إنتاج دهن صلب خالٍ من الرائحة، ألا وهو المارغرين. تم تطوير الهدرجة من أجل الدهن البقري في القرن التاسع عشر، وبدأ استخدامها على المستوى الصناعي في حوالي عام 1909، وارتفع إنتاج زيت الحوت بسرعة[ccxxxii].

إن تصفح الصور المتعلقة بمعامل تصنيع الحيتان هو تجربة مقيتة، وكأنها جولة في مسلخ. فقد اختفت قوة الطبيعة تلك التي أثارت الرعب في قلوب المستجدين في الحرفة إبان القرن التاسع عشر، وحتى الصيادون ذوو البصر الحاد لم يعودوا مهمين لتحديد موقع زفرة الحوت: أصبحت طائرات المراقبة تحلق الآن لتتبع آثار الحيتان التي تم اصطيادها، وكانت قوارب الالتقاط عالية الفعالية، وقد وصف الكاتب الكندي فارلي موات أحد هذه القوارب بالقرب من ساحل كندا:

«كان قارب ثورانين Thoranin، بطول 200 قدم، ويزن 800 طن، وبقوة 2000 حصان، عبارة عن آلة قتل كهربائية تعمل على الديزل، تحمل مدفع حربون بسماكة 9 ملم وقد وضع على أعلى مقدمتها

المُدَمِّرَة، التي قامت حتى الآن بسلب حياة الآلاف من الحيتان العظيمة في المياه الجنوبية، ويمكن أن يصل مداها إلى 300 ميل بعيداً عن القاعدة، وباستطاعتها أن تقتل وتحمل في جعبتها ثمانية أو تسعة حيتان كبيرة، وتعيدها إلى الشاطئ وتنطلق مجدداً خلال بضع ساعات إلى موجة دمار جديدة[(ccxxxiii)]».

هل كان صيد الحيتان على المستوى الصناعي هو ما حط من الرغبة في صيد الحيتان كرياضة؟ هناك بضعة سجلات فقط عن صيادين يطاردون الحيتان لمتعة الانتصار فقط، وكان أحد أوائلهم يعيش في القرن الحادي عشر الميلادي، وهو صياد شره، اصطاد الثيران والفيلة والأسود، إنه الملك الآشوري تيغلاث بيليسير الأول Tiglath pileser i الذي عد قتل حوت عنبر أكبر إنجازاته في الصيد[(ccxxxiv)]. وعند بداية القرن قامت مجموعات صيد الأسماك بهدف الاسترخاء بمطاردة الحيتان ذات الزعنفة ببنادق صيد الفيلة والحربون المخصص لصيد أسماك أبو سيف. وبين حين وآخر كان محب للرياضة يصعد على متن سفينة صيد الحيتان. وفي عام 1905، وصف عالم الطبيعة البريطاني جي. ج. ميليس تجربته على متن سفينة صيد حيتان تصطاد الحيتان ذات الزعنفة بالقرب من شواطئ نيوفاوندلاند:

«كان هناك شعور بالانتعاش بينما نسرع نحو الشمال، وكان الرذاذ يتطاير من مقدمة المركب بينما تقفز السفينة من موجة إلى أخرى في البحر المتلاطم. لقد استمتعت باندفاعات أسماك السلمون التي تزن ثلاثين أو حتى أربعين رطلاً في المياه المتلاطمة في نهر تاي[1]، وهي اللحظات الأسمى في حياة الصياد بالصنارة، ولكن ذلك كان مجرد لعب أطفال أمام الإثارة الشديدة التي اختبرناها خلال الساعات الثلاث القادمة. أن تكون بصحبة حوت جامح هو

---

(1) نهر في اسكتلندا.

أمر يختبره المرء ويتذكره حتى يوم مماته، فأنت تشعر أنك حي، وأنك هناك تمارس رياضة الملوك[ccxxxv]».

ولكن هذه الرياضة لم تشتهر فعلاً، فعلى عكس صيد أسماك القرش الذي اجتذب الصيادين بغرض الاستجمام في القرن العشرين، لم يكن هناك بطولات في صيد الحيتان – ربما لأنه لا يمكن صيد الحيتان باستخدام الطعم، أو هل كان السبب ارتباط صيد الحيتان الوثيق ببيوت استخراج الدهن وأعمال تذويبه والمعامل العائمة؟

عبّر صيادو الحيتان عن ندمهم على أفعالهم، وقال مدفعي اسكتلندي، يدعي أنه قتل 2000 حوت، لموات: «نحن لم نرغب أبداً في أن نعرف الكثير عنها... فقد كان الأمر جريمة قتل كما هو. أعتقد أني لو امتلكت هبة البصيرة التي يتمتع بها السلت واستطعت النظر إلى عقول هذه الوحوش، لكان عليَّ التخلي عن البحر والعودة إلى الشاطئ للأبد. هناك أوقات يمكن فيها للمعرفة الكثيرة أن تقف عقبة في طريق المرء[ccxxxvi]».

وصف عالم الحيوان البريطاني ف.د. أوماني موت حوت تم اصطياده بالحرب من قارب الالتقاط، من على بعد 500 متر، ومن ظهر مركب يرتفع بضعة أمتار عن سطح البحر، والصيادون على مسافة من طريدتهم:

«لو كان باستطاعة الحيتان إطلاق الصرخات التي تدمي القلب، فسيكون الموت أقل هولاً من هذه المعركة الخاسرة، التي كان حوتنا متورطاً فيها الآن في صمت لا يقطعه إلا صرخات طيور البحر البعيدة. لم يكن باستطاعتنا حتى أن نسمع قعقعة الزبَد القرمزي بينما الحوت يتلوى ويغطس، وهو يزفر رذاذاً دموياً في البداية ثم يفور منه الدم وتتبعه فقاعات في منتصف جزيرة من الدماء تكبر باستمرار... وينتهي النزاع، ويهدأ الزبَد الأحمر وأصبح بإمكاننا

رؤية جسده يتمدد ساكناً تماماً. وشغلت الطيور أنفسها بصرخات حادة فوق الجثة وحولها[ccxxxvii]».

وكما كانت الحال خلال الحرب الأهلية الأميركية، فقد حصلت الحيتان على راحة قصيرة خلال الحرب العالمية الثانية، فقد تم تحويل المعامل العائمة إلى ناقلات، وحملت الأسطح الهائلة الحجم والتي كانت مخصصة لتقطيع الحيتان مواد أكبر من أن تتمكن من نقلها أغلب وسائل النقل الأخرى. وتم استخدام مطاردي الحيتان الألمان لتعقب الغواصات والكشف عن الألغام. وفي عام 1941 أطلق اليابانيون غواصات مصغرّة من الحواف المنزلقة لسفن صيد الحيتان لمهاجمة بيرل هاربر[ccxxxviii]. ومع توقف الصيد تمٍ استخدام الزيت المعدني بدلاً من زيت الحوت كلما كان ذلك ممكناً.

ربما أنقذ هذا بعض الحيتان من أن تقع فريسة للصيد في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، ولكن موات يجادل أنه بسبب استخدامٍ قنابل الأعماق والقذائف الأخرى، فإن (عشرات آلاف الحيتان قتلت من قبل الرجال الذين كانوا يلاحقون الغواصات بالسفن أو بالطائرات)، وقال إن نسبة عالية من قنابل الأعماق التي تم إطلاقها من السفن كانت موجهة نحو الحيتان بدلاً من الغواصات. (كانت الجثث المنجرفة لحيتان أصابتها القذائف أو قنابل الأعماق منظراً مألوفاً بما يكفي لأي ناظر من على متن السفن العسكرية والتجارية)[ccxxxix]. ولم تنته هذه الممارسة مع انتهاء الحرب، فحتى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، استخدمت البحرية الأميركية الحيتان كأهداف تدريبية خلال دورياتها الاعتيادية بحثاً عن الغواصات السوفييتية.

بالكاد كان لدى الحيتان القطبية الجنوبية الوقت لتطفو على سطح الماء قبل عودة صيادي الحيتان، فقد حصل عجز في الشحوم خلال الحرب العالمية الثانية، وكانت الأمم التي تقتات على صيد

الحيتان مصممة على الاستفادة من المحيطات الجنوبية ما إن يصبح الإبحار آمناً[ccxl]. وحتى الستينيات من القرن العشرين تمت إزاحة حوالي 50.000 حوت من المحيط المتجمد الجنوبي كل سنة [ccxli]. وجعل الرادار الذي تم تطويره في أثناء الحرب الصيد أكثر فاعلية، وما إن يمت الحوت حتى تضبط ألوان الشركة وشاشة الرادار على ظهر الحوت الميت، وأصبح بالإمكان العثورعلى الجثث حتى خلال الضباب والظلام، وأصبحت فرصة الحوت في النجاة من المطاردة ضئيلة للغاية في وجود طائرات الرصد وقوارب الملاحقة وشاشات الرادار.

اجتمعت الأمم التي تصطاد الحيتان مدفوعة بروح التعاون الدولي بعد الحرب، في واشنطن العاصمة في عام 1946، في واحدة من أوائل المحاولات الرسمية للسيطرة على موارد المحيط المفتوح. فقبل ذلك كانت البحار التي تقع خلف الخط الساحلي لدولة ما تعد مياهاً لا ملكية لها aqua nullius. إذ إن الحيتان الساحلية فقط، مثل الحيتان الصائبة والرمادية، هي التي تم تنظيم صيدها. ولكن اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC الحديثة العهد، ستحاول السيطرة على صيد الحيتان خلف حدود الدول بمسافات، في المياه النائية مثل المياه القطبية الجنوبية. وكي تكون هذه اللجنة فاعلة، سيتطلب الأمر تعاوناً غير مسبوق بين الدول.

وتألف مجموع الأعضاء الأولي بشكل كامل تقريباً من الدول التي تصطاد الحيتان: كالنرويج، وجنوب أفريقيا، وبريطانيا العظمى، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، واليابان، وهولندا، وأستراليا، والبرازيل، وكندا، والدنمارك، وفرنسا، وأيسلندة ونيوزيلندا. وكان للدول الأخرى مصلحة في صيد الحيتان، لكنها لم تكن تقوم بالصيد عملياً. وكان الهدف هو المحافظة على الإنتاج الأعظم المستدام من الحيتان عبر تحقيق (المستوى المثالي من مخزون الحيتان بأسرع ما

يمكن من دون التسبب بأزمات اقتصادية وغذائية). وكان الشأن المسيطر في هذه السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية هو أنه لا يجب على البشر أن يعانوا بسبب حدوث انخفاض في صيد الحيتان.

وحُددت الحصص العالمية بوحدة تعرف باسم وحدات الحوت الأزرق BWUs، التي قدمها النرويجيون كمقياس في عام 1931 (ccxlii). كل حوت يُقتل يُقاس في مقابل ما ينتجه الحوت الأزرق البالغ من الزيت، أي ما يعادل 110 براميل. إذ يعادل اثنان من الحيتان ذوات الزعنفة وحدة حوت أزرق واحدة (1 BWU)، ويعادل حوتان ونصف من الحيتان الحدباء وحدة حوت أزرق واحدة (1 BWU) ويتطلب الأمر ستة من حيتان زي sei للوصول إلى وحدة حوت أزرق واحدة (1 BWU). ولو كان التاريخ الحضاري للحيتان على شكل الساعة الرملية (أو المشد النسائي) – ولديه ماض غني بالأساطير والتقاليد، وتوسع حالي للاهتمام العلمي بالحوت – لكانت الفترة من عشرينيات إلى ستينيات القرن العشرين هي القسم الأضيق مما يشبه الخصر. لم تعد وحوش الأعماق أكثر من وحدة حوت أزرق، وكما كتب جالاسو مع وصول الثورة الصناعية، (يمكن وصف كل شيء بدقة في دائرة الإنتاج والاستهلاك) (ccxliii). ولم تكن الحيتان استثناء من ذلك.



هذه صورة سماد سائل مأخوذ من الحيتان، بحلول منتصف القرن العشرين، تم استبدال الكثير من منتجات الحيتان بمواد بتروكيماوية ونوابض فولاذية، وأصبح وحش الأعماق أكثر بقليل من حصة عالمية يتم التعبير عنها بوحدة الحوت الأزرق.

كانت وحدة الحوت الأزرق BWU منذ بدايتها فشلاً إدارياً، وبانخفاض أعداد الحيتان الزرقاء، توسع صيد الحيتان ذوات الزعنفة حتى أصبح استغلالها زائداً عن الحد، وكانت حيتان زي هي التالية. وعلى اعتبار أن الحصص كانت عالمية، بمعنى أن هناك حداً مشتركاً واحداً لكل الدول – فقد نشط النظام التنافسي، فمع كل موسم صيد حيتان يبدأ السباق لإمساك أكبر عدد ممكن من الحيتان في أقصر وقت ممكن. والعجلة تولد الخسارة، ولم تعد

الحيتان تستخدم بالكامل. وارتفع عدد قوارب الالتقاط من 129 قارباً في عام 1946 إلى 263 قارباً في عام 1951[ccxliv].

لم يكن المنظور الضيق نحو الحيتان محصوراً بالمجتمعات الصناعية. ففي الدائرة القطبية الشمالية، لم يكن متوقعاً من الحوت أن يعاني أكثر من معاناة الصيادين خلال الطقوس الشعائرية والتضحية بالنفس. ولكن مثل هذا التقليد ضاع بسرعة مع اختراع الأسلحة النارية. واشترى الصيادون بضائع من الجنوب: كالبنادق، والذخائر، والسكاكين، والسكر، والشاي، والطحين، والتبغ والقدور المعدنية[ccxlv]. وأحضروا أيضاً أمراض العالم القديم والمنظور الأوربي نحو صيد الحيتان. فبعد وصول الصيادين إلى غرب الدائرة القطبية الشمالية، سرعان ما تم اصطياد الحيتان المقوسة إلى حدود الانقراض.

وكعمل شتوي، قد يحصل صيادو الإنويت على أوكورديون صغير أو كمان وبعض الطعام وبندقية. وفي بعض المناطق، بدأت الأدوات الموسيقية الغربية تحل محلّ الطبول المصنوعة من جلد الأيل والمستخدمة في طقوس الاستشفاء والمهرجانات. وغيرت الموسيقى



الصورة التي التقطتها إدوارد س. كورتيز لأحد الإنويت، وهو يقوم بتجفيف لحم الحوت في خليج هوبر في ألاسكا حوالي العام 1929.

الجديدة والأسلحة النارية المفهوم السائد عن الصيد، سواء كان صيداً للحوت المقوس الرأس أو لكركدن البحر أو لسمك البيلوجا belugas، ويتذكر أحد السكان الأصليين لجزيرة بافين:

«كان الغناء مجرد طريقة معتادة للصيد؛ فقد اعتاد الإنويت أن يؤلفوا الكثير من الأغاني - جميع أنواع الأغاني المختلفة لتجعل صيد الحيوانات أكثر سهولة. فقد كانوا يغنون ليجعلوا الحيوان يعتاد على الصيادين، وكان أولئك الناس أذكياء جداً، فقد استخدموا أصواتهم فقط، بدون الغيتار، ومع ذلك!(ccxlvi) ».

كان سكان المنطقة القطبية أنفسهم يتغيرون، وتم عد أغاني صيد الحيتان التقليدية سراً في بعض المجتمعات، لكن بعد وصول صيادي الحيتان التجاريين، كان مسافرو الإنويت يشعرون بالصدمة أحياناً لدى سماعهم لأغاني قريتهم وهي تؤدى على بعد مئات الأميال من موطنهم. في ألاسكا، قد تكون بعض هذه الأغاني قد تم تعلمها في جيبرتاون، وهي موقع متعدد اللغات بالقرب من بوينت هوب(ccxlvii). وفي غرب المنطقة القطبية، مُحيت الحدود القبلية القديمة وانتقلت الأقاليم عندما قام الصيادون التجاريون بنقل عدد لا يستهان به من شعب الإنويت إلى خليج هدسون ليصطادوا الحيتان وحيوانات الفظ(ccxlviii). وقد كتبت المراسلة الكندية دورثي إيبر: (لعل تأثير السنوات التي أمضاها صيادو الحيتان بين شعب الإنويت لم تتم ملاحظتها بشكل كامل بعد... فقد كانت العلاقة بين الإنوك[1] والصيادين قريبة وحميمة، فندرة هم الإنويت الذين ليس لديهم جد من صيادي الحيتان)(ccxlix). وبشكل تقليدي، فقد تطلبت قوة الشامان الرغبة في مواجهة الخطر - فقد يقوم الشامان أو angakoq بإطلاق الحربون على نفسه ليمارس قوته

(1) فرد من شعب الإنويت.

على الموت. كانت قوته تنتج من خلال الأحلام والرؤى والمرض. وفي أوائل عشرينيات القرن العشرين أخبر إكينيليك، وهو صياد عجوز من قبيلة كاريبو من الأسكيمو، كنود راسموسين عن التغيرات التي حدثت بين شعبه.

لم يعد الأنكاكوك angakoqs لدينا يعرفون الكثير، إنهم يتحدثون كثيراً فقط وهذا كل ما باستطاعتهم فعله، لم يعد لديهم وقت خاص للدراسة أو التلقين.. سألت أحد الرجال مرة إن كان من الأنكاكوك angakoq فأجاب: (إن نومي خالٍ من الأحلام ولم أمرض في حياتي أبداً!)[ccl].

وأكمل إيكينيليك: غادرت الابتهالات مع الأحلام.

يبدو أننا في الغالب لم نعد بحاجة إلى الشامان أو المحرمات، بما أننا الآن نمتلك أسلحة نارية، فالآن لم يعد من الصعب جداً الحصول على الطعام كما في الأيام الماضية... لقد نسينا الأمور التي لم نستخدمها. حتى إننا نسينا أغاني الأرواح القديمة التي كان يغنيها الشامان مع جميع رجال ونساء القرية، نسينا جميع الابتهالات لاستحضار (سيدنا Sedna) إلى الأرض حتى يمكن للوحوش أن تخرج منها – لم نعد نتذكر كل ذلك[ccli].

8 - الاستنزاف والإخفاق

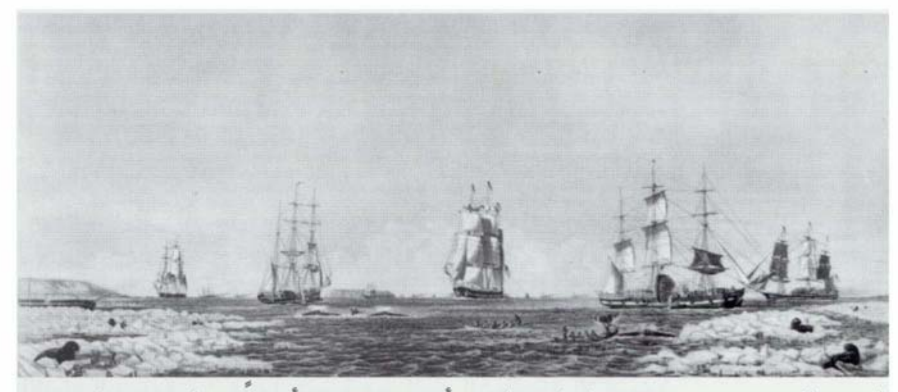
قام الإنسان بتعكير صفو السلام الذي تعيش فيه الحيتان في محيطها الواسع، واقتحم ملاجئها وأباد جميع الحيتان غير القادرة على التسلل إلى المناطق المائية التي لا يمكن الوصول إليها في البحار القطبية المتجمدة، كل ذلك لأن الثروات التي يمكن أن تأتيه من القضاء على الحيتان أغرته... وهكذا، وقع عملاق العمالقة فريسة لأسلحة البشر. وبما أن الإنسان لن يتغير أبداً، فلن تتوقف هذه الأنواع الضخمة عن كونها ضحية مصالحه الشخصية إلا عندما تختفي من الوجود. فالحيتان تهرب من أمامه ولكن من دون جدوى، فقد استطاع دهاء الإنسان نقله إلى نهاية الأرض، والموت هو ملاذها الوحيد الآن.

بيرنارد جيرماين لاسوبود، مؤرخ طبيعة فرنسي، 1804[(cclii)].

لن يكون الرخام جيداً بما يكفي لنضع الجثة عليه، فالمنظر عجيب، بغض النظر عن تشوهه. هذه هي البقايا القليلة، ومع ذلك يمكن للعين حتى في هذا الوقت أن تستبدل ما فُقد... أين ذهبت تلك الروح التي جالت بتألق – والتي جعلت هذا الجبل يقفز ويلهو، واسترعت البصر، واستدركت ذلك البالون من على لسان رفعَ ذلك الفك المتدلي؟ كانت هذه كتلة استطاعت أن تحل بعضاً من معادلات العناصر البرية. فهذه الهيئة الوحشية والجمال الدهني قد شقّ طريقه عبر الموجات المتلألئة في الصيف، وفي الليالي المظلمة التي لا تنيرها إلا الغيوم المضيئة الصادرة عن تنفسه، وهو يغرق بصمت سهل بشكل حلزوني ليصل إلى أعماقٍ لم يرها أحد، بسبب رغبات غير معروفة... إنه أكثر جمالاً وإذهالاً من طائر العنقاء.

ف. في. مورلي، صحفي، 1926[(ccliii)].

وبحلول نهاية القرن العشرين، تبين للكثيرين أن تكهنات لاسوبود



نجم عن الصيد في المنطقة القطبية الشمالية تخفيض كبير لأعداد الحيتان الصائبة والمقوسة الرأس بحلول نهاية القرن التاسع عشر.

حول زوال الحيتان قد أصبحت حقيقة أخيراً. وساعد مدفع الحربون الذي اخترعه فوين، والمؤخرة المنزلقة لسفينة المعمل واكتشاف آخر ملاذات الحيتان الكبيرة في المحيط الجنوبي، على استنزاف كل السلالات في جميع مناطق العالم. ويبدو أن حوت المينك الصغير وحده يتواجد بأعداد كافية ليتجنب الانقراض.

لاحظ أوماني التواتر المألوف لصيد الحيتان حول العالم: يبدأ الأمر باكتشاف جديد ومؤسسة مليئة بالأمل، ثم يمر عبر مرحلة من المنافسة الضارية والاستغلال الذي لا يرحم مع تقدم في التقنيات المستخدمة وينتهي أخيراً بتناقص الموارد والإعياء والإخفاق) [ccliv]. كان الصيد في أغلب مناطق صيد الحيتان كثيفاً ولم يدم لفترة طويلة. وجد مؤرخا صيد الحيتان جون بوكستوس وجوت بيرنز خلال دراستهما عن صيد الحيتان المقوسة الرأس في شمالي المحيط الهادئ، أن ثلث مجموع الحيتان التي قتلت بين عامي 1848 و 1915 قد تم في السنوات التسع الأولى من الاستغلال، وأن ثلثي المجموع تم قتله خلال العقدين الأولين [cclv]. وسرعان ما استنزف الصيادون أعداد الحيتان، وحصلت السفن التي استمرت في الصيد في أواخر القرن التاسع عشر على عوائد متناقصة باستمرار، وفي النهاية

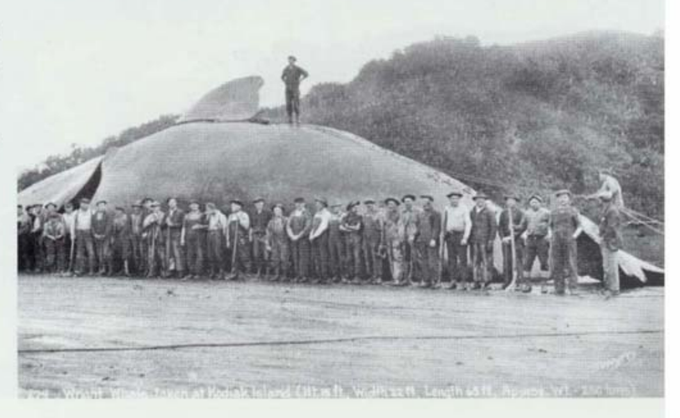
كانت جهودهم لا طائل منها.

تسبب الصيد التجاري للحيتان المقوسة الرأس بالمجاعة على جزيرة سانت لورانس في بحر بيرنغ. وقد سجل عالم الجنس البشري كاج بيركيت سميت، الذي سافر مع كنود راسموسين في العشرينيات من القرن العشرين، تأثير الصيد على المنطقة القطبية:

«منح صيد الحيتان في الأيام الأولى للأسكيمو مخزوناً من اللحم والدهن، والذي من دونه سيكون قضاء الشتاء صعباً، إذ كان يمكن قتل زهاء العشرين من هذه العمالقة خلال موسم واحد، ثم حصل الانخفاض السريع في أعداد الحيتان الصائبة عندما بدأ الصيادون البيض مذابحهم المنظمة والتي أجبرت حكومة الولايات المتحدة على إدخال غزال الرنة إلى تلك المناطق، التي أصبحت تقريباً خالية من وسائل المعيشة [cclvi]».

اختفت الحيتان ومعها الصيد التقليدي من شمالي المحيط الهادئ، وانتهى صيد قبائل الكورياك Koryak في بحر أوكهوتسك عندما أباد صيادو الحيتان مجموعات الحيتان المقوسة الرأس المحلية في نهاية القرن التاسع عشر [cclvii]. وفي الشمال الغربي للمحيط الهادئ تخلت قبائل الماكا عن صيد الحيتان في الوقت تقريباً نفسه.

يقف العمال لالتقاط صورة لهم مع حوت مقوس الرأس طوله 20 متراً في كودياك بآلاسكا.



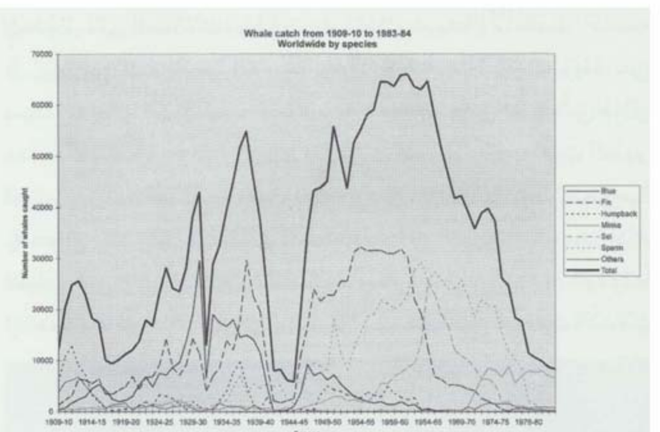
فقد قام الصيادون التجاريون باصطياد الحوت الرمادي، الذي كان مهجوراً في أحد الأيام، إلى حافة الانقراض في مناطق تناسله على بعد 3.000 كيلومتر تقريباً جنوب مناطق صيد قبائل الماكا.

كيف أثّرت هذه الاعتداءات على المخلوقات في المحيطات؟ اقترح العالم أ. م. سبرينغير من ألاسكا وزملاؤه أن الحيتان القاتلة قد تحولت نحو أكل الفقمات وثعالب الماء كنتيجة للصيد التجاري، كانت حيتان البيلين، قبل أن تتم إبادتها من بيئاتها، مصدراً مهماً لطعام مجموعات من هذه الحيوانات اللاحمة الملساء ذات اللونين الأبيض والأسود، التي كان تهتم بشكل خاص بلسان الحيتان. وما أن أزاح البشر الحيتان الكبيرة حتى تأقلم هؤلاء المفترسون وانتقلوا لالتهام وجبات أخرى أصغر [cclviii].

ومع استنزاف الصيد في المنطقة القطبية الشمالية، انتقل الصيادون الصناعيون إلى النصف الجنوبي من الأرض، حيث قُتل

أصبحت العديد من محطات الصيد التجاري خرائب بعد أن فقد الصيد التجاري أهميته، مثل هذه الطباخات التي تظهر في الصورة على جزيرة ساوث جورجيا في جنوب المحيط الأطلسي.





يوضح هذا المخطط البياني الأعداد التي تم صيدها من الحيتان على مستوى العالم بحسب الفصائل، من عام 1984. وحدث التراجع في أعداد الحيتان التي تم صيدها في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين كنتيجة للحرب العالمية الثانية.

ما يقارب مليوني حوت في العقدين التاليين، وهي وفقا لما يقوله عالما الأحياء سكوت باكر وفيل كلابهام: (مذبحة لها نظائر قليلة في تاريخ استغلال الحياة البرية)(cclix). وبشكل عام، قُتل أكثر من 350.000 حوت أزرق في الجنوب (cclx)، وبحلول عام 1958 كان هناك حوالي 4.000 منها، وهي كل ما بقي في المحيطات الجنوبية. ومع اختفاء الحيتان الزرقاء، بحث الصيادون عن طرائد أصغر: مثل الحوت ذي الزعنفة وحيتان زي sei الأصغر وما بقي من الحيتان الحدباء. وتراجعت أعداد الحيتان الحدباء بسرعة شديدة حتى أنها في بعض المناطق انخفضت إلى أقل من مئة.

وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر صيادو الحيتان بالمجادلة من أجل استمرار هذا العمل، وفي عام 1958 ادعى مؤرخ صيد الحيتان الفرنسي بول بودكير أنه:

«لا يزال هناك أعداد لا بأس بها من الحيتان - مثل حيتان الروركوال وحيتان العنبر. وعلاوة على ذلك، فمن الممكن أن تستفيد الحيتانيات الأكبر من القوانين التي تم وضعها بعناية للتخطيط

للحفاظ على السلالات بينما يتم استغلال غيرها[cclxi]».

وأصبح هذا القول اللازمة في الأغنية القصيرة الحزينة عن صيد الحيتان الصناعي – إذ يمكن الحفاظ على السلالات خلال عملية الاستغلال. وعلى الرغم من أن الطلب على زيت حوت العنبر قد تراجع بعد اكتشاف الوقود الحجري، إلا أن التطورات التكنولوجية في مجال اكتشاف الفضاء في الخمسينيات من القرن العشرين زادت الطلب على الشمع الملحي العضوي، ونظراً لتورط كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بالسباق نحو الفضاء، ارتفعت الأسعار



(NEWS foto by Petrella)

Beauty's Diet. Pretty Billie Williams looks over cargo of spermaceti wax brought in aboard Anglo Norse. Once a useless byproduct of whaling, it is now prized as base for cosmetics. —*Story on page 46*

تم استخدام العنبر وهو شمع ملحي عضوي ثابت، كأساس لصناعة مستحضرات التجميل في القرن العشرين.

خمسة أضعاف، وأصبحت مطاردة حيتان العنبر مدرة للربح من جديد. وبحلول عام 1963 كان أكثر من 20.000 حوت عنبر يُقتل في عام من أجل توفير الشحوم للآلات المتخصصة[cclxii].

ولم تتمكن اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC من السيطرة على المذبحة: فاستنزفت أعداد الحيتان الحدباء بشدة وانخفضت أعداد الحيتان الزرقاء إلى أقل من 1 بالمئة من مستوياتها التاريخية. شكلت الحيتان ذات الزعنفة أكبر قسم من الطرائد في العالم حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين، حيث تم قتل 20.000 – 30.000 حوت منها سنوياً[cclxiii]. وكان الصيد أكبر بكثير من الإنتاج المحتمل، واتبعت الحيتان ذات الزعنفة ومن ثمّ حيتان زي sei النمط المألوف من الارتفاع والانخفاض، وسرعان ما انتقل الصيادون لاستهداف آخر حوت عظيم كانت أعداده كبيرة على كوكب الأرض.

كانت حيتان المينك، التي يتراوح وزنها بين 5 – 10 أطنان، صغيرة جداً بالمقارنة مع الطرائد التقليدية من الحيتان الزرقاء وذات الزعنفة، حتى إن الصيادين اضطروا لإعادة تأهيل سفنهم. (على الرغم من أن حيتان المينك لم تكن مشمولة بالحصص العالمية للزيت، إلا أنه يلزم حوالي 20 حوتاً تقريباً للحصول على وحدة حوت أزرق واحدة BWU). وكان في استطاعة مدفع الحربون من قياس 9 مليمترات، والذي طوره الصيادون لصيد حيتان الروركوال الكبيرة، القضاء على حوت المينك بضربة واحدة. وتم تنصيب مدافع حربون جديدة على سفن الصيد اليابانية، وتم الإمساك بـ 3.000 من هذه الحيتان الصغيرة في الأيام 85 الأولى من بدء العملية. كانت الحيتان تذبح على مقياس واسع من أجل وجبة لحم الحوت لليابانيين، من أجل طعام الحيوانات الأليفة في أوروبا وشمال أميركا، ومن أجل وجبة العظم، ومن أجل مستحضرات التجميل وسمن المارغرين.

ولعل عدم قدرة اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC على تطبيق القوانين التي وضعتها، فلقد تم فضحها بوضوح على يد مالك السفن اليوناني أرسطو أوناسيس، إذ قام بتجهيز أسطول لصيد الحيتان دربه النرويجيون مع ملاحين ألمان، وقد حمل هذا الأسطول عدة أعلام، بما في ذلك علم دولة بنما. وعلى الرغم من أن هذه الدولة في أميركا الوسطى كانت عضواً في اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC، فإنها لم تكن قادرة على ممارسة سلطتها على قطب الملاحة أوناسيس. ووفقاً لما أورده إيللز، فإن سفينة أوناسيس أولمبك تشالنجر Olympic Challenger، (اصطادت الحيتان الزرقاء المعرضة للخطر وإناث وصغار الحيتان الحدباء، وحيتان عنبر صغيرة جداً لدرجة أن أسنانها لم تتمُ بعد)(cclxiv).

وبشكل ما، ساعدت مخالفات أوناسيس الفاضحة هدف المحافظين على الطبيعة. فهنا كان رجل ثري بشكل لا يصدق، وهو مصمم على تدمير الحيتان من دون سبب واضح – فهو لم يكن بحاجة للمال. ولم يمتثل أوناسيس للضغط الدولي، ولم يلتزم بالمعاهدات الدولية. لقد كان أوناسيس كابوس علاقات عامة بالنسبة للجنة الدولية لصيد الحيتان IWC، وبالنسبة لصيادي الحيتان الذين كانوا يدّعون أن حرفتهم تتم السيطرة عليها بشدة وأنها أساسية لأعداد البشر المتزايدة. وبدا أن أوناسيس يستمتع بدور الخارج على القانون الدولي، فدعا رجال أعمال أميركيين وأشخاصاً بارزين في المجتمع لمشاهدة صيد الحيتان من على متن سفينة تشالنجر. كانت أطراف المقاعد على متن يخته مغطاة بجلد الأعضاء الذكرية لحيتان العنبر، واستخدمت أسنان الحيتان كمساند للأرجل(cclxv).

وفي عام 1956 تم إرسال سفينة أولمبك تشالنجر للصيد بالقرب من ساحل أميركا الجنوبية، في الوقت الذي كانت فيه البيرو وتشيلي قد أعلنتا أن حد الصيد هو 200 ميل من الساحل. واستهزأ أوناسيس

بهذه المطالبة، التي كانت حدثاً على القانون الدولي الذي كان لا يزال يرتكز على حد الثلاثة أميال، وتم إطلاق المدافع المتمركزة على الشاطئ ما أن وصلت السفينة إلى المدى الأقصى للمدافع. واستولت القوة البحرية للبيرو على سفينة تشالنجر، واحتفظت بها حتى دفع أوناسيس غرامة مقدارها 3 ملايين دولار. وبما أن لديه عقد تأمين للسفينة ضد مثل هذه الاحتمالات لدى شركة ليودز اللندنية، فقد جنى 12 مليون دولارعلى وثيقة التأمين. لكن الدعاية العالمية بالإضافة إلى أمر من المحكمة النرويجية بمصادرة السفينة وكل ما عليها من زيت الحوت – دفع بأوناسيس لأن يبيع سفينة تشالنجر لليابان. وقامت السفينة التي أعيد تسمينها باسم كيوكيو مارو 2 Kyokuyo Maru II بصيد الحيتان ضمن الأسطول الياباني حتى عام 1970.

طوال أغلبية القرن العشرين، كان العلماء في حالة تحالف مع صيادي الحيتان؛ فالكثير من أبحاثهم كان يتم إما على متن أسطح تقطيع الحوت على سفينة الصيد أو على الحيتان التي تجنح في بعض الأحيان. ومولت الضرائب المفروضة على زيت الحوت في الأراضي البريطانية الثرية في منطقة القطب الجنوبي الأبحاث المكثفة في المحيط الجنوبي، بما فيها رحلات التاريخ الطبيعي على متن سفينة آر. آر. إس ديسكفري، سفينة المستكشف روبرت فالكون سكوت الخاصة بالمنطقة القطبية الجنوبية [cclxvi].

وحتى السبعينيات من القرن العشرين كان الهدف المعلن من هذا البحث هو جمع المعلومات الحيوية للمساعدة في الصيد. وفي بعض الحالات، كان الهدف من هذه الدراسات هو زيادة الفاعلية. وتم تقديم طريقة صيد الحيتان بالكهرباء لأول مرة في بريمن بألمانيا في الخمسينيات من القرن التاسع عشر – وهي عبارة عن تمرير شحنة كهربائية قاتلة خلال الحربون. ونشطت الأبحاث المتعلقة بهذه

الطريقة مرة أخرى في الثلاثينيات من القرن العشرين، في محاولة للإسراع في شل حركة الحوت، واختصار الوقت اللازم للموت والتسبب في فقدان سريع للوعي[cclxvii]. وفي السنوات التالية، ضغط اتحاد الجامعات البريطانية من أجل صالح الحيوانات نحو استعمال الصيد بالكهرباء، على أمل أن يسبب ذلك فقدان وعي مباشر للحوت ويقلل من معاناته، ولكن ظهرت هناك مشكلة بالنسبة للدول التي تستهلك لحم الحوت: فقد سببت الصعقات الكهربائية تحول اللحم إلى اللون القاتم بسبب التخثر الدموي مما أفسد طعمه[cclxviii]. وفي عام 1977، اقترحت شركة أدوية سويسرية أنه يجب دراسة مثبطات الأعصاب والمهدئات لدى الأسماك بغرض تخدير الحيتان التي يتم اصطيادها، ولكن لم يتم إقرار هذه الخطة أبداً وساد اعتراف عام بأنه لا توجد طريقة لإعدام الحوت من دون ألم وأصبح هذا الأمر حقيقة واقعة في هذا السجال المرير.

وبين عامي 1959 حتى 1969، مُنحت أذونات خاصة لاصطياد 316 حوتاً رمادياً – والتي اختفت من المحيط الأطلسي الشمالي وكادت تنقرض من المحيط الهادئ. وعلى الرغم من أن المسوحات الجوية قامت بإحصاء الحيتان، فإنه تم قتل الحيتان التي أصبحت محمية منذ عام 1946 بهدف جمع المعلومات مثل قياسات الجسم: «كالطول، والعرض، وسماكة الدهن، وحجم صفائح البيلين، وعدد الطبقات النامية حول سدادات الأذن (وهي مؤشر على العمر)، وحالة الغدد الثديية، ووزن الخصيتين ومحتويات المعدة». كان الغرض من هذا البحث هو أن يتم استخدامه في برنامج إدارة حكيم حول وجوب العودة إلى الاستغلال التجاري للحيتان[cclxix]. وبعد الصيد، تمت معالجة لحم الحوت وبيعه مما شكل سابقة أزعجت اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC لعقود.

في عام 1960 تشكلت لجنة مستقلة من علماء تم تكليفهم

للتحقق من أعداد الحيتان، تألفت اللجنة من ثلاثة أشخاص هم: دوغلاس شابمان من الولايات المتحدة الأميركية، وك. رادوي آلان من نيوزيلندا وعالم الأحياء البريطاني سيدني هولت ممثلاً عن الأمم المتحدة، وقاموا بتحليل أعداد الحيتان في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، وكانت النتائج التي توصلوا إليها مأساوية. فقد كان هناك أقل من 1.000 حوت أزرق في العالم، وكانت أعداد الحيتان الحدباء قليلة جداً لدرجة أن العلماء اقترحوا أنه سيلزم 80 سنة من الحماية لاستعادة أعدادها. ومع ذلك لم يتوقف القتل: ففي موسم صيد الحيتان في 1960-1961 اصطادت اثنتان من سفن المعامل من الاتحاد السوفييتي 13.000 حوتاً أحدب من المياه جنوب أستراليا ونيوزيلندا[cclxx]. وقُتل مئتان وخمسون حوت أزرق في موسم صيد الحيتان في 1962-1963.

أثبت اجتماع اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC في لندن في عام 1963 أنه نقطة تحول، وتم تخفيض الحصص العالمية بعد استلام عدد كبير من التقارير العلمية التي تُظهر أن الحيتان يتم صيدها أكثر من الحد المحتمل. وقامت دولتان بتجاهل القوانين الخاصة بحيتان المنطقة القطبية الجنوبية مراراً، فلم يُراع اليابانيون القيود الموضوعة على الحجم وقام الصيادون السوفييت بصيد الحيتان خارج مواسم الصيد وقتلوا الحيتان المحمية.

وعلى الرغم من أن السوفييت أنكروا جميع التهم الخاصة بصيد الحيتان غير المشروع، إلا أنه عقب عملية التحرير[1] ونهاية الحرب الباردة، كشف علماء من الروس تنفيذ حملة هائلة لصيد الحيتان غير المشروع منذ أربعينيات القرن العشرين. وأظهرت سجلات صيد الحيتان السرية أن أسطول سفن المعامل السوفييتي قام بقتل كل حوت صادفه، بغض النظر عن الحجم أو العمر أو حالة الحماية

(1) السياسة التي اتبعها غورباتشوف.

. وتم قتل أكثر من 700 حوت صائب في بحر أوكهوتسك[cclxxi]، على الرغم من أن هذه الأنواع تخضع للحماية منذ ثلاثينيات القرن العشرين. وفي النصف الجنوبي من الأرض، كان الفرق بين أعداد الحيتان التي تم اصطيادها والإبلاغ عنها وبين الأعداد الحقيقة أكثر من 100.000 حوت[cclxxii]. وفي بعض الأوقات، بلغ الخداع السوفييتي حد الإبلاغ عن أرقام أكبر من حجم صيدهم الفعلي، كي يتم إغلاق موسم الصيد مبكراً. وبينما تقبع سفن صيد الحيتان للدول الأخرى في موانئها، يحظى صيادو الحيتان السوفييت بالمحيطات لأنفسهم كي يقوموا باستكمال حصادهم.

(الأرقام التي تم الإبلاغ عنها في مقابل الأعداد الحقيقة للطرائد التي تم صيدها من قبل الاتحاد السوفييتي).

نظراً للحال التي وصلت إليها صناعة صيد الحيتان وكل تلك الأدلة على الصيد غير المشروع، لماذا لم يتم وضع اتفاقيات دولية لمنع الاستغلال الزائد عن الحد للحيتان المتبقية؟ لقد لخّص ج.

	الأرقام التي تم الإبلاغ عنها	الأرقام الحقيقية
الحوت الأزرق	3651	3642
الحوت الأزرق القزم	10	8439
الحوت ذو الزعنفة	52931	41184
حوت زي sei	33001	50034
الحوت الأحدب	2710	48477
حوت برايد	19	3212
حوت المينك	17079	14002
الحوت الصائب	4	3212
حوت العنبر	74834	89493
غير ذلك	1539	1745
المجموع	185778	261646

بعد وصول صيد الحيتان السوفييتي إلى نهايته، كشف العلماء الروس أن الاتحاد السوفييتي كان متورطاً بشكل منهجي في عمليات صيد الحيتان غير الشرعية (من مقالة باكر وكلابهام في موسوعة التغييرات البيئية العالمية Encyclopædia of Global Environmental Change, 2002)

ن. تونيسين و أ. أو. جوهانسون المشكلة في كلمة واحدة في كتابهما الضخم History of Modern Whaling، ألا وهي: الريبة. لم يكن صيادو الحيتان يثقون بالعلماء، وبغياب المراقبين المحايدين، فإن الدول التي تتبع الحصص الدولية لم تثق بأن الدول الأخرى ستلتزم بذلك. وكان يُنظر إلى التطبيق الصارم لنظام الحصص على النفس وكأنه منح أفضليات للدول الأخرى.

في القرن التاسع عشر جادل جون ستيوارت ميل، أن الحيتان تعد أسماكاً في السوق، ولا يهم ما يقوله علماء الحيوان. ففي عصر صيد الحيتان الصناعي، اتسعت الفجوة بين علم الأحياء والتجارة، وكتب تونيسين وجونسون: (كان من المستحيل وضع المصالح الحيوية على مسار المصالح التجارية نفسه)[cclxxiii]. فقد كانت اليد العليا للمصالح التجارية. نظر العديد من علماء الأحياء إلى صيد الحيتان على أنه أمرٍ يتناقض مع واقع المحيطات، لكن عدداً متزايداً رأى في ذلك إخفاقاً أخلاقياً كذلك، وبحسب ما أورده العالم ديفيد غاسكين المتخصص بالحيتان:

كان بإمكاننا الحفاظ على مصادر عديدة أخرى غير سلالات حيتان البيلين الكبيرة فقط، لو كان بالإمكان تجاوز الفلسفة ذات النهاية المسدودة لأخلاقيات النمو الاقتصادي الصناعي، ولو كانت الأوراق التي تحمل رقم واحد في مجموعة ورق اللعب التي نلعب بها، عبارة عن مكتسب اقتصادي ثابت على المدى القصير ونفعية سياسية[cclxxiv]. وجادل هولت أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار التوتر والألم الناجمين عن المطاردة، وكذا الحزن الذي تتسبب به لمرافقي الحوت الذي تم صيده، عند تقييم تأثيرات الصناعة[cclxxv].

وماذا بشأن الصيادين كيف سيبحرون إلى بحر فارغ. وقد سجل فارلي موات كلمات آرثر بينك، الصياد من نيوفاوندلاند، الذي قال:

«كان هناك الآلاف من الحيتان الكبيرة على الساحل في تلك الأوقات... كما كانت كثيرة في مناطق الصيد التي كنا نذهب إليها، لم أشعر بالخوف أبداً من أي شيء، لا، ولم أشعر بأنني وحيد كذلك. لكن بعد مرور الوقت، عندما قضي على جميع الحيتان بالموت، كنت أذهب إلى مناطق البطريق ولا أرى أي شيء حيّ وينتابني شعور بالغثاثة، كما لو أن العالم قد أصبح فارغاً. أجل يا بني، لقد افتقدت تلك الحيتان عندما اختفت.

من الغريب أن يقول بعضهم أن الحيتان هي مجرد أسماك، إنها أكثر ذكاءً من أن تكون أسماكاً. أنا لا أقول إنها أذكى المخلوقات في محيطات الرب[cclxxvi]، ربما كان عليها أن ترى ما ستؤول إليه الأمور، ولو أن الدول التي تصطاد الحيتان ضبطت أنفسها في وقت أبكر، فربما لم يكن صيد الحيتان ليصبح أمرا مهماً هكذا في أواخر القرن العشرين.

وفي النهاية، فإن قوى السوق – مثل انخفاض المخزون وظهور المنتجات البديلة كزيت النخيل – قامت بإنقاص الصيد على أي حال[cclxxvii]. لكن نظراً للتهديد بانقراض الحيتان، فقد تجاهلت هذه الدول التحولات التي طرأت على الرأي العام.

ومع ذلك، لم يستطيعوا رؤية ظل الحوت البرتقالي المنتفخ الساطع في أثناء اقترابه من الأفق».



ما إن استطاع البشر النزول إلى ما تحت سطح الماء، مصطحبين معهم آلات التصوير، حتى تغير مفهومهم عن الحيتان.

9 - أنقذوا الحيتان

قبل ستينيات القرن العشرين، كانت الصورة المألوفة عن الحوت في معظمها هي صورة حوت عنبر يقاوم – بوصفه الخصم الأعظم الذي هزمته الشجاعة والمهارة – أو ربما مجموعة من الحيتان الميتة مصفوفة مثل قتلى الحرب إلى جانب قارب الالتقاط. وربما رأى قلة من الناس حوتاً جانحاً على الشاطئ أو في أحد المعارض. ولكن في ستينيات القرن العشرين، قام الفنانون والمصورون والعلماء أخيراً بالكشف عن الطريقة التي تقضي بها الحيتان 90 بالمئة من حياتها.

وكان صناع الأفلام مثل جاك كوستو، يكشفون خبايا الحياة البحرية كما لم يرها أحد من قبل. وباستخدامه تقنية الغطس التي ساعد في تطويرها، استطاع كوستو أن يجعل البيئة البحرية مألوفة لملايين من الناس. وتابع مشاهدو التلفاز، مأخوذين بلكنته، القروش الهائجة وأسماك الباركودا المتخفية، وهم آمنون في غرف معيشتهم. وفي الوقت المبكر الذي صدر فيه كتابه الأول في عام 1953، كان كوستو قد ساعد في إزالة الشعور بالخوف من المحيطات. وقد كتب في كتابه العالم الصامت The Silent World: (إن الوحوش التي التقينا بها تبدو أصنافاً غير مؤذية على الإطلاق)(cclxxviii).

اكتشف المصور المستقل جيمس هودنال مناطق تزاوج الحيتان الحدباء في هاواي في السبعينيات من القرن العشرين باستخدام معدات الغطس، وآلة تصوير تعمل تحت الماء. وقدمت صوره رؤية عين الحوت لحيتان الروركوال هذه، التي تزن 30 طناً، التي وصفها على أنها (كائنات رقيقة وذكية وهادئة وعقلانية)(cclxxix).

وثبتت الصفات التي أطلقها، بغض النظر عن أن ذكور الحيتان الحدباء يمكن أن تصبح عدائية جداً مع بعضها في مناطق التزاوج، أنها رقيقة ومعرضة لخطر الانقراض، وتستحق الاهتمام. كتب

ديفيد هيل في مجلة Audubon في عام 1974:

«لم تكن أزمة الحيتان عصيبة هكذا من قبل، في كل عام ترتفع كلفة قتل الحيتان بينما تنخفض أعداد هذه الحيوانات. وتسبب الضغط الاقتصادي في دفع أغلبية الدول التي تصطاد الحيتان إلى البطالة. وتشبثت اليابان والاتحاد السوفييتي، وهما دولتان تمتلكان أسطولاً كبيراً لصيد الحيتان، بالصيد بعناد. لا يتوجب على مهنة ابتليت عبر التاريخ بسوء التدبير الناتج عن الجشع إزاء الموارد، أن تلتفت إلى مستقبل هذه المهنة لأنه ليس هناك مستقبل. لكن يبقى سؤالان مهمان هما: هل سيتوقف صيد الحيتان من تلقاء نفسه قبل انقراض هذه الأنواع أم بعده؟ وهل ستمتنع الأغلبية العظمى من الدول التي لم تعد تصطاد الحيتان عن بذل أي مجهود وتسمح بانقراض هذه الحيوانات؟»[cclxxx]

في خمسينيات القرن العشرين، وبينما كان أغلب المختصين بالحيتان يعملون على أسطح التقطيع في سفن صيد الحيتان، بدأ بعض علماء الأحياء، مزودين بميكروفونات تعمل تحت الماء – بتسجيل الأصوات المعقدة التي تصدرها الحيتان. وقام مهندس الصوت ويليام شيفيل بعمل التسجيلات الأولى لأصوات الحيتانيات في البيئة الطبيعية تحت الماء، وهي تصف نداءات أكثر من 30 نوعاً من الثدييات البحرية – من حيتان العنبر إلى حيتان البيلين والدلافين والفقمات. كانت معرفة شيفيل بهذه الأصوات التي تصدر تحت الماء واسعة جداً لدرجة أنه ساعد في نزع فتيل لحظة حرجة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي خلال الحرب الباردة؛ إذ تم رصد ومضات مستمرة منخفضة الموجات في المحيطات، واشتبه الأميركيون أن السوفييت ربما يستخدمون هذه الأصوات لتحديد مواقع الغواصات الأميركية. وعثر شيفيل وزميله ويليام واتكنز على مصدر هذه الأصوات فكان مجموعة من الحيتان ذات الزعنفة، التي

تصدر سلسلة من الومضات لزهاء 15 دقيقة، تتبعها وقفة لدقيقتين أو ثلاث عندما تطفو هذه الحيتان لتتنفس[cclxxxi]. قد تستعمل هذه الأصوات لتحديد المواقع بالصدى ولكن الحيتان ذات الزعنفة لا تعد تهديداً قومياً.

تبع النمو في فهم الحيتان الكبيرة دراسات لأقربائها الأصغر حجماً. ولقد وصف طبيب الأعصاب جون ليلي العمل الذي قام به في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين على الدلافين الأسيرة في جزيرة سانت آيلند في المحيط الكاريبي قائلاً:

«كان شعورنا بأننا في مواجهة حافة منطقة مجهولة ونوشك على دخولها مع قدر كبير من الشك بعدم ملاءمة المعدات التي نمتلكها... وبدأ الشعور بالغرابة ينتابنا عندما بدت أصوات هذه الحيتان الصغيرة كما لو أنها تشكل كلمات بلغتنا أكثر فأكثر[cclxxxii]».

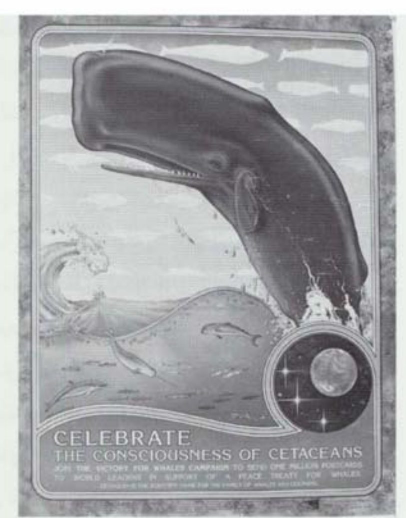
ومضى ليلي في وصف مواضيعه في كتابه The Mind of the Dolphin الذي أصدره عام 1967:

«كم أتمنى أن أحكي ما تعلمناه من مجموعة من العراة الماجنين الذين لم يرتدوا ثياباً قط... وليس لديهم مواقد، ولا أفران، ولا أي نار على الإطلاق... إن لديهم أدمغة كبيرة و... هم يقدروننا بما يكفي لينقذوا كل واحد منا عندما يرون أننا في مشكلة[cclxxxiii]».

شرح مؤرخ الحيتان بول فوريستل سبب انجذاب الشباب نحو منظوره الجديد عن الحيتانيات في ستينيات القرن العشرين فقال: (متحررون جنسياً، وغير ماديين، ومعادون للحرب، ومكتفون ذاتياً، وأذكياء ويحبون الآخرين... إن رسالة ليلي واضحة – الشمس، وركوب الأمواج وممارسة الجنس – مع وجود أدمغة ضخمة، ومن دون شعور بالذنب. هل يمكن أن تكون الحياة أفضل من ذلك؟) [cclxxxiv]

وبالنظر إلى أدمغة حيتان البيلين وحيتان العنبر، بإمكانك أن

تبعت دراسات سلوك الحيتان الكبيرة الأبحاث التي جرت على أقاربها الأصغر، مثل الدلافين الأسيرة. ولعب الوعي بشأن الحيتانيات دوراً مهماً في الضغط من أجل حمايتها.



ترى أنه لا يوجد شك في قدراتها. يعرض متحف الحوت في فرايدي هاربر في واشنطن دماغ حوت ذي زعنفة ودماغ إنسان، ويبدو دماغ الحوت ذي الزعنفة مثل ديك حبش بدين، في حين أن الدماغ البشري قد يبدو مثل دجاجة مطهوة أكثر من اللازم. إن أدمغة الحيتانيات فيها التفافات كثيرة، مثل أدمغتنا، ولكن على عكس البشر، كان لدى الحيتان وقت طويل لتعتاد على المادة الرمادية ذات الحجم الهائل في أدمغتها، فقد كان أول تطور لدماغ الحيتانيات الذي يبلغ من واحد إلى اثنين كيلوغرام منذ حوالي 30 مليون سنة، بينما حصلنا نحن على دماغنا الذي يزن 1.3 كيلوغرام منذ حوالي 100.000 سنة فقط.

إذاً ما الذي تفعله في الأسفل هناك مع كل تلك الخلايا الدماغية؟ بالتأكيد ساعد تعقيد دماغها في السمع وتحديد المواقع بالصدى (على الرغم من أنه يجب ذكر أن الخفافيش تتمتع بحاسة سمع

استثنائية وقدرة على تحديد المواقع بالصدى، مع أن أدمغتها لا تزن إلا أكثر من غرام واحد بقليل). أثّرت أفكار ليلي حول أهمية التواصل وذكاء الثدييات البحرية في العديد من مختصي الحيتان الناشئين. لكن عندما تحول من كونه طبيب أعصاب ليصبح عالماً بالغيبيات، شعر الكثير من علماء الأحياء هؤلاء بالخجل من الاعتراف بفضله عليهم. إن إرث أعمال ليلي يستمر في حبنا للحوت الذكي اللعوب، بدءاً من الدلافين وحتى الحيتان الحدباء.

كانت الدلافين؛ هذه الحيتانيات الملساء ذات الابتسامة الدائمة، سفراء النية الحسنة الرواد للحيتان الكبيرة. وكان لفيلم فليبر Flipper في عام 1963 جذوره في قصص الرومان واليونان القديمة عن صداقة نشأت بين دولفين بري وصبي. قبل ظهور فليبر، كانت غالبية الحيتان في السينما مجرد أهداف للحربون أو مجرد حيوانات غبية مثل مونسترو، يمكن التحكم بها بالنار. ومع بعض الاستثناءات، أصبحت الحيتان أبطالاً في الأفلام التي تبعت فيلم فليبر مثل ويلي الطليق Free Willy، وStar Trek iv: The Voyage Home and The Core، فهي تساعد في إنقاذنا.

في عالم المحيط المظلم، تعتمد الحيتان على الصوت لتحديد اتجاهها. ولأنها تفتقد للأذن الخارجية، فإنها تستكشف الموجات الصوتية من خلال وسادة شحمية بين الفك الأسفل والأذن الوسطى. وبما أنها تتغذى غالباً تحت المنطقة التي يخترقها الضوء؛ منطقة سطح المحيط حيث يكون الضوء كثيفاً بما يكفي لعملية التمثيل الضوئي، فإن الحيتان تستخدم الصوت للعثور على فرائسها وتحديد مواقع أقرانها والإبحار في البحر.

تستطيع حيتان العنبر وأغلبية الحيتان ذات الأسنان تحديد المواقع بالصدى – إنها ترسل أصواتاً تمكنها من تحديد المسافات والأشكال. وهذه القدرة مهمة لمفترسي أعماق البحر، إذ تنخفض

الإضاءة بشكل كبير، فثمة واحد بالمئة فقط من ضوء السطح ينتقل إلى عمق 100 م، وعلى عمق 600 م تعادل الإضاءة ضوء النجوم البعيدة[cclxxxv]. ومن غير المؤكد إن كانت حيتان البيلين التي تتغذى من خلال مصفاة البيلين في فمها، تمتلك هذه القدرة. اختبر بيتر باميش المختص بالحيتان قدرة الحيتان الحدباء على السباحة في الظلام. فبنى متاهة في خليج نيوفاوندلاند لحوت أحدب تم إنقاذه من شبكة صيد أسماك، ثم غطى عيني الحوت بمكابس الغطاسين المطاطية، وقبل أن يعاد إطلاق سراح الحوت الأحدب تمكن من الإبحار خلال المتاهة.

يحب الشعراء الفكرة التي تقول إن الحيتان يمكنها رؤية العالم من خلال غنائها الخاص. وكتبت الشاعرة الأسترالية ليس موري عن حوت عنبر قائلة:

أنا أرى بصوتي...
حين أطلقه من الغرفة
المعطرة في رأسي. وألتهم حياة البعض
وأبطئ وأغسل فمي. ثم أصعد إلى السطح
أتنفس، وأغطس إلى الأعماق ثانية[cclxxxvi].

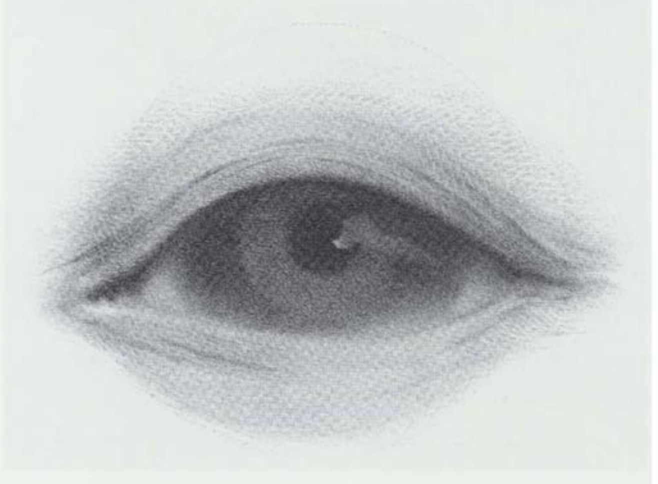
والحيتان الكبيرة بالنسبة للشاعرة الأميركية آمي كلامبيت...
تبتكر الحسابات الرنانة لجبال الجليد، وتُنافس كثافة السفن في تجربة سمع صافية...[cclxxxvii]

في عصر صيد الحيتان، كان جميع العاملين على متن السفينة يعرفون أصوات النفخات، هذه الزفرات العميقة والتي يمكن أن تكون محبطة في أثناء الضباب، وعندما تكون الحيتان قريبة غير أن من المستحيل العثور عليها. ولقد أصيب بعض المراقبين بالحيرة من تجاوب سرب من الحيتان البعيدة مع حوت مصاب بالحربون

وهي لا تراه بالتأكيد. في بعض الأحيان، وخلال فترات من الهدوء الاستثنائي، قد يتمكن صيادو الحيتان من سماع أصوات الحيتان الضعيفة من خلال قاع السفينة الخشبي [cclxxxviii].

في عام 1967، بدأ عالم الأحياء روجر باين تسجيل أصوات الحيتان الحدباء بالقرب من شواطئ جزيرة برمودا وتحليلها. وبعد العمل على مئات الساعات المأخوذة من مناطق تزاوج الحيتان على أشرطة التسجيل، توصل باين وسكوت ماكفاي إلى أن هذه الأصوات التي سمعاها ليست مجرد ثرثرة عادية. لقد وصفا الأصوات على أنها نغمات (تُلفظ بالتعاقب... لتشكل تسلسلاً ملحوظاً أو نمطاً في الزمن)، وبكلمات أخرى، فقد كانت أغنيات لها مواضيع منفصلة [cclxxxix]. وبدا أن جميع الحيتان في مجموعة التزاوج تغني نفس الأغنيات مراراً وتكراراً.

وتشبه إيقاعات الحيتان الحدباء تلك الموجودة في الموسيقى البشرية. وتدوم أغانيها لفترة أطول من أغانينا الراقصة، لكنها أقصر من السيمفونيات. هل لديهم سعة الانتباه التي نمتلكها؟ هل



تظهر في هذه الصورة عين الحوت الأحدب، من كتاب تشارلز سكامون: Marine Mammals of the North western Coast of North America (1874).

يستخدمون تقنيات مشابهة، ويعيدون اللازمة التي تشكل الإيقاع ليتذكروا الأغاني؟ اقترح باين وزملاؤه أن هذا ما يحصل. فقد انفصل مسارنا التطوري عن مسار الحيتان منذ 60 مليون سنة، وربما كنا متأخرين في الوصول إلى الموسيقى ولسنا من اخترع الأغنية[ccxc].

ونظراً لأن الحوت الأحدب يعيش قرب السواحل ويسبح ببطء فقد كان ودوداً مع الصيادين. وبالنسبة لسكامون، فإن الحوت الأحدب يمتلك (نزعة التجوال)[ccxci]. ووصفه ميليفل على أنه (أكثر الحيتان طيبة ومحبة للعب بين جميع الحيتان، وهو يحدث من الزبد الممتع والمياه البيضاء أكثر مما يحدثه أي من الحيتان الأخرى بشكل



ساعدت شعبية تسجيلات روجر باين للنداءات التي تصدرها الحيتان الحدباء تحت الماء في تغيير المنظور نحو الحيتان.

عام)[ccxcii]. ولقد كانت حركة الحوت الأحدب على سطح الماء هي ما جعلته أحد أوائل الحيتان التي تلفت نظر مراقبي الحيتان. إن اسمه العلمي ميغابترا نوفايانغلي Megaptera novaeangliae مشتق من الكلمة اليونانية التي تعني الجناح الكبير – إذ يتمتع الحوت الأحدب بزعانف طويلة بشكل استثنائي – ومن الكلمة اللاتينية التي تعني نيوإنغلند أصل نموذج العينة[ccxciii]. وقد جعلت هذه الزعانف من الحيتان الحدباء، أكثر حيتان البيلين شبهاً براقصي الباليه. وقد أظهر مهندسو البحرية أن الحافة الرئيسية ذات النتوءات المدورة لذيولها ترفع قوة الرفع وتخفض من قوة الجر – وهو شكل يمكن أن يساعد في تصميم الطائرات والغواصات.

في عام 1970 أطلقت شركة كابيتول للتسجيلات Capitol Records ومجلة ناشينوال جيوغرافيك National Geographic ألبوم Songs of the Humpback Whale. وأصبحت "تسجيلات باين" رائجة جداً، وأدهشت المستمعين حول العالم، وسرعان ما أصبحت الحيتان الحدباء تعرف على أنها (نجوم أوبرا الأعماق)[ccxciv]. وبعد ثلاثين عاماً، وبينما أنا أستمع إلى الأغاني التي أعيد إصدارها على قرص مضغوط، وقف الشعر على رقبتي. وبجاذبية نداءات الذئاب الغريبة، لم تفقد التسجيلات أياً من إبداعها المسكون. وفي الوقت نفسه، تستحضر الصرخات الحادة والتنهدات ضعفاً، من المفاجئ وجوده في مخلوق بهذه الضخامة. وأعلن أحد صيادي الحيتان الأستراليين أنه لو سمع هذه الأغاني، لما (أطلق طلقة واحدة على حوت)[ccxcv]. ومن جهة أخرى فإن المؤرخ بارثلميس يتذكر أنه استمع مع الملاحين إلى تسجيلات باين على جسر سفينة صيد حيتان أيسلندية بينما كانوا متجهين إلى أراضي الصيد، وهو يصر على (أنها مسألة ثقافة)[ccxcvi].

قد تكون الحيتان الحدباء نجوم موسيقى البوب في المحيط، إلا أن الحيتان الزرقاء تصدر أعلى الأصوات التي يمكن إن تصدر عن مخلوق حي، وهي التي تمكنها من التواصل على مسافات تتجاوز 3.000 كيلومتر. تصدر الحيتان الزرقاء تنهدات وتدفقات صوتية أدنى بأربعة ثُمانيات من نغمة سي المتوسطة، وهي منخفضة جداً لتسمعها الأذن البشرية. ويقترح بعض العلماء أن هذه النداءات تُمكّن الحيتان الزرقاء من تحديد المواقع بالصدى، باستخدام الأخاديد والنتوءات الموجودة على قاع المحيط للإبحار في الماء.

في السبعينيات من القرن العشرين انضم موسيقيون مشهورون مثل جودي كولنز وبول وينتر إلى الفرقة، وسجلوا بصحبة الحيتان الحدباء. ووقف الملحن الأميركي جورج كرمب ضد مزج التسجيلات مع موسيقى حية. وفي ألبوم Vox Balaena (صوت الحوت) يقوم كل من الناي الكهربائي والكمنجة الكبير (تشيلو) والبيانو بسرد قصة نشوء الحيتان الحدباء. وتبدأ بنفخات تشبه نغمات الناي، استخدم كرمب أصواتاً ترتكز على نداءات طائر النورس المائي، وأغاني الحيتان والترانيم الإفريقية ليستحضر الماضي الجيولوجي في خمسة تنوعات. وتتمتع الحركة الأخيرة (Sea-Nocturne) (إلى نهاية الزمان) بصفة رثائية، وتتلاشى في الصمت، أو كما يصفها الموسيقي أندرو روسو (تموت الموسيقى وتتبخر إلى الغد)[ccxcvii].

في عام 1977، لم تكن أغاني الحيتان الحدباء تسمع فقط على أجهزة الأسطوانات، بل إن الأغاني الأصلية من عام 1970 سُجلت على أسطوانة حاكي ملبسة بالذهب، بالإضافة إلى التحيات بأربع وخمسين لغة، وصوت فيل وهدير إطلاق صاروخ. وتم تثبيتها على جانب مركبتي الفضاء فويجر 1 وفويجر2، في حال تم اعتراضهما من قبل كائنات فضائية ذكية. ووفقاً لما يقوله باين فإن هذه الأغنيات

الآن ملتزمة بالقيام برحلة طولها بليون سنة (لتنشر رسالتها عبر المجرة)[ccxcviii]. وفي طريقه سيعبر المسبار كوكب سيدنا Sedna، وهو كوكب بارد ذو لون أحمر داكن تم اكتشافه خلف كوكب بلوتو في عام 2004 وسمي على اسم الآلهة القطبية.

وبالنسبة لباين، فإن هذه الرسالة المجرِّية تترافق مع وعي جديد، وتكاد تكون نقلة في علم الإنسان:

عندما نتعلم أن نمنح باقي الكائنات الحية على الأرض حقوقاً متساوية، فبإمكاننا أخيراً أن نحتل مكاننا في بلاط التشاور المجري، وبينما نرفع أيدينا عالياً فإننا نقول: (أجل، هناك كائنات ذكية على الأرض، وإن نوعنا هو الذي يُظهر أن قوة التطور العمياء ليست قادرة فقط على التدمير الذاتي، بل على التنوير الذاتي أيضاً)[ccxcix].

في موبي ديك، يحل يوم القيامة على متن البيكود. وفي كتاب باين "بين الحيتان" Among Whales، سيحدث هذا اليوم في بلاط التشاور المجرِّي. ولا تزال القوى الدينية المألوفة تعمل. هناك معاناة (من قبل الحوت)، وبعث (فالحيتان على وشك الاختفاء) وفداء – علينا أن ننقذ الحيتان من القتل بالحربون، وأن نعترف بأنها تتمتع بحقوق متساوية معنا. إن وجهة النظر هذه تتحدى مفهوم صيادي الحيتان، الذي يقول إن الحيتان والحيوانات الأخرى ليس لديها حقوق، وهو تقليد يعود في القدم على الأقل إلى الفيلسوف اليوناني بورفاري Porphyry، الذي كتب أن الناموس؛ أي القانون، لا ينطبق إلا على البشر ولا يمتد إلى بقية الطبيعة.

وفي فيلم ستار تريك 4: الرحلة إلى الوطن Star Trek iv: The Voyage Home، لا يسير يوم القيامة في المستقبل البعيد بشكل جيد في البداية. حيث يقترب أنبوب أسود من الأرض – وقد تم وصفه في أحد التقييمات على أنه (أحمر شفاه ضخم) – متجاهلاً كل محاولات الأرضيين للتواصل معه. وبعد إرسال بعض الأصوات

الغريبة، يقوم الأنبوب بإيجاد عاصفة هائلة عبر محيطات الأرض، تهدد بمحو جميع أنواع الحياة. يتمكن سبوك وكيرك من فك رموز النداءات الصادرة عن الأنبوب لتبدو وكأنها نداءات الحيتان الحدباء، وهو نوع انقرض منذ وقت طويل. فيسافر الطاقم عائداً في الزمن إلى عام 1986 لإنقاذ زوج من الحيتان الحدباء ليتمكنوا من الإجابة على نداءات المسبار. وعلى الطريق، يلتقي كيرك بعالمة أحياء بحرية جذابة، ويسبح سبوك مع الحيتان (ليطلب إذنها كي يتمكنوا من اصطحابها إلى المستقبل). ولا تتأخر الموافقة – ويسرع صيادو الحيتان الذين يتكلمون لغة أجنبية ويرتدون السواد نحو الحيتان، وتعترض السفينة الفضائية الحربون في منتصف الطريق.

وفي فيلم ديزني، Finding Nemo، الذي ظهر عام 2003، تتحدث الأسماك والسلاحف وحتى جاك؛ القريدس الذي يعمل بالتنظيف، اللغة الإنجليزية. لكن الحوت – الذي يبتلع مارلين؛ سمكة البهلوان الذي يبحث عن ابنه نيمو – يتحدث لغة الحيتان. ولحسن حظ مارلين، كذلك رفيقته دوري. وبعد فشل محاولتها الأولى للتواصل، تقوم بتجربة لهجة مختلفة – لهجة الحيتان الحدباء. ويقوم اللوثيان الودود بنقل الثنائي إلى ميناء سيدني في فمه ذي الستائر البيلينية. لقد قطعنا شوطاً طويلاً من مونسترو: فلا يفرض الحوت الأحدب إلا تهديداً صغيراً على الراكبين الصغيرين، ويسمح لهما بالهروب من خلال فتحته التنفسية.

ومنذ ستينيات القرن العشرين، ابتعدت الأفلام والكتب عن إبراز وجهة نظر صياد الحيتان، التي كانت الفكرة المسيطرة في السابق. وكان اسم كتاب كريستوفر آش الذي صدر في عام 1962 عن الحيتان والأساطيل التي تطاردها: The Whaler's Eye. كتب آش واصفاً الحوت: (إنه مخلوق جميل عندما يطلق العنان لمرحه، ومن الرائع

مشاهدته وهو يهرب لإنقاذ حياته)(ccc). ولم يكن آش يمزح، ففي نهاية العقد، قام عالم الأحياء فيكتور شيفير بتتبع الرحلة الخيالية لحوت عنبر أنثى مع صغيرها في كتابه The Year of the Whale. وساعد كتابه في إضعاف المجموعة التي تضغط لصالح صيد الحيتان في الولايات المتحدة، والتي كانت قد بدأت في التلاشي فعلاً.

نتيجة لشعوري بالحاجة الماسة فأنا أكتب عن نوع آخر من الحيتان قبل أن تصبح الحيتان ذكريات على الصور الباهتة وأشرطة الفيديو الوامضة. أنا أكتب عن حيتان العنبر... التي تتحرك خلال عالمها المائي الغامض المظلم الخاص بها، فالحوت قديم لا يعرف الزمن، وهو جزء من تراثنا المشترك البعيد والقبيح، وهو يبحث عن فرائسه في المحيط على عمق نصف ميل، ويتبع إرشاد القوى والأحاسيس التي بدأنا نفهمها للتو (ccci).

لقد تم إذاً إطلاق الروايات التي كان الحوت محوراً لها.

كان كتاب موات فاولي: A Whale for the Killing، الذي نُشر عام 1972أحد أوائل الكتب التي أثارت العامة، وقد أكد التعارض بين وجهات النظر التقليدية والحساسيات الجديدة. كتب موات عن حرفة صيد الحيتان النرويجية التي كانت لا تزال عاملة في كندا: (انتشرت رائحة الموت الأكبر مثل حمى المستنقع... وأصبحت مهنة صيد الحيتان النرويجية مولوخ[1] المعاصر الذي يتمتع بشهية غير ثابتة ولا ترحم). ودفعه لقاؤه مع حوت ذي زعنفة عالق في خليج في نيوفاوندلاند إلى أن يدين القسوة المفروضة على الحوت من قبل السكان المحليين المصرين على قتله كنوع من الرياضة، بالإضافة إلى كامل اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC (أداة سخيفة لتحويل الانتباه عن الحقيقة). ووصف موات (شعور الخسارة الذي يمزقه) الذي انتابه عندما تم إطلاق النار على الحوت الأسير وعذب من قبل

(1) إله عُبد في منطقة الشرق الأوسط كان الأطفال يقدمون إليه كأضحيات.



تظهر هذه الصورة بعض ناشطي حركة السلام الأخضر وهم يقتربون من سفينة صيد حيتان يابانية في المنطقة القطبية الجنوبية حوالي العام 2-2001.

السكان المحليين: (كان الوقت ظلاماً، ولم يكن يستطيع أن يعرف أني كنت أبكي.. ليس فقط من أجل الحوت الأنثى التي ماتت، ولكن لأن الرابطة الضعيفة بين عرقها وعرقي قد انقطعت)[cccii].

في عام 1975، قام بعض الناشطين مدعومين بجهود جريئة لإيقاف اختبار القنابل النووية في المحيط الهادئ، مصممين على تعطيل الرابطة بين صيادي الحيتان الصناعيين وطرائدهم. كما قام الكندي بول واطسون باستخدام قوراب Zodiacs صغيرة وقابلة للمناورة، بالاستيلاء على سفينة القوة العظمى الوحيدة في العالم لصيد الحيتان – الاتحاد السوفييتي – وهي سفينة المعمل العائم التي يصل طولها إلى 230 متراً، وترتفع عشرة طوابق فوق القوارب المطاطية الصغيرة. في اللقاء الأول، تسلق واطسون على ظهر حوت عنبر صغير قتله السوفييت ليتم تصويره، وبهذا يعرض للعالم عدم انصياعهم للقوانين الدولية. لكن منظمة السلام الأخضر لم تكن

مهتمة بالتوافق مع القوانين؛ كان هدفها هو إيقاف صيد الحيتان التجاري بشكل كامل.

وفي المواجهات التالية، قام ناشطو حركة السلام الأخضر بوضع أنفسهم بين حيتان العنبر وبين الحربون، في محاولة تهدف ليس إلى الشهادة بالحقيقة فقط، بل لتكوين درع بشري. وفي بعض الأحيان كان السوفييت يطلقون الحربون فوق رؤوسهم مباشرة. ولكن ما كان أكثر تأثيراً من التحدي المباشر هو استخدامهم لوسائل الإعلام العامة لإيصال رسالتهم. وكتب رئيس منظمة السلام الأخضر روبرت هنتر يقول:

«عن طريق تصوير أنفسنا أمام مدفع الحربون مرة واحدة استطعنا أن نزرع في وعي الإعلام العام لأميركا الحديثة شيئاً لم تتمكن من تحقيقه أي من الحملات السابقة. قام والتر كرونكيت بنفسه بتقديم الشريط الذي سجلناه إلى عامة مشاهدي التلفاز، وهو مشهد عُرض بعد ذلك على جميع المحطات التلفازية في الولايات المتحدة وكندا، دون استثناء، وانتقل منها إلى أوروبا واليابان[ccciii]».

انطلقت منظمة السلام الأخضر والمنظمات الأخرى فيما بعد إلى أستراليا (ونجحت، فقد تم إيقاف صيد الحيتان في عام 1978) واليابان (لم تنجح حتى الآن)، وساعدت في جعل الحوت رمزاً للمذهب البيئي. وكما كتب ديفيد داي في كتابه The Whale War عام 1987، فإن الحوت كان القلب النابض لحرب عصابات اتبعتها المقاومة التي انتشرت عبر العالم، وهو رمز الحركة البيئية وراية جميع الأنواع على الكوكب... إذا كان لا يمكن إنقاذ هذا الحيوان المدهش؛ أكبر الحيوانات التي وُجدت على الكوكب على الإطلاق، من الاستغلال الذي لا يرحم الذي تمارسه مجموعة من الرجال لا تتعدى أصابع اليد الواحدة، فما فرصة البقاء التي تمتلكها الأنواع الأخرى؟[ccciv]

واحتشدت الحركات البيئية حول أنواع محددة مشهورة، أو الحيوانات الكبيرة الساحرة، ومنها الأسود والفيلة ودببة الباندا، وأصبحت الحيتان سفراء المحيطات. فكتب باين:

«بصفتك أضخم الحيوانات، بما فيها أضخم الديناصورات، التي عاشت على الأرض يجب أن تكون قادراً على أن تكون لطيفاً، وتواجه الحياة من دون خوف، أن تلعب في الظلام وتنام بعمق في أي مكان، كيف وأينما أردت، وأن تحيي العالم في سلام – حتى إنه يمكنك أن تنظر بفضول تشويه الغرابة إلى غطاس بشري وهو يبتعد مع فقاعاته، مزوداً بكل تلك المعدات الغريبة. إن هذا الإحساس بالسكون – والقدرة على الحياة من دون عجلة، وامتلاك القوة من دون عنف – هو ما جعل الحيتان تفوز بقلبي[(cccv)]».

ترافق ارتفاع قيمة الحيتان البيئية والجمالية مع انخفاض في قيمتها الاستهلاكية، وأصبحت فكرة قتل الحوت وأكله غير مقبولة في معظم الدول الغربية. ووجد طلاب الجامعات أنفسهم يصوتون للوحش بعد مواجهتهم مهمة قراءة نثر ميلفيل الخالد تحت الشعارات التي تقول (أنقذوا الحيتان). وأصبح موت الحوت الأبيض مأساة، ووقع إيهاب ضحية تداخل أقواله الخاصة.

وأصبح واضحاً لدى الكثير من الناس المهتمين بإنقاذ الحيتان أن اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC لن تقوم بإرادتها بمنع تدمير أعداد الحيتان. وفي اجتماعات اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC، طُرحت اقتراحات لإصدار قرار رسمي بوقف جميع أنواع صيد الحيتان التجاري مدة عشر سنوات، لكنها أخفقت في تحقيق نسبة أغلبية الثلاثة أرباع الضرورية لإقراره. وفي مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة البشرية في ستوكهولم عام 1972، أوصت المنظمات البيئية

بالموافقة على قرار دولي حول صيد الحيتان، مطالبة الأمم المتحدة بالتدخل و(إعلان الحيتان من بين التراث العام للبشر)[cccvi].

انتظم المحتجون خارج مقر اجتماع اللجنة الدولية لصيد الحيتان في السنة التالية، وطالب المحافظون على البيئة بفرض حظر على جميع المنتجات – بما فيها الفودكا الروسية والسيارات وأجهزة التلفاز اليابانية – القادمة من الدول التي تقوم بصيد الحيتان. وفي الاجتماع، طُرح قرار بوضع حظر كامل على صيد الحيتان ذات الزعنفة. وكان اليابانيون قد تخلوا فعلاً عن صيد هذا النوع الكبير، الذي أصبح نادراً الآن، وقاموا بتعديل سفن المعامل العائمة لتصطاد حيتان المينك الصغيرة حصرياً، لكن الممثلين اليابانيين كانوا معارضين لفرض أي حظر جديد على صيد الحيتان الكبيرة[cccvii]. وجادل الممثل الأميركي أن اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC لا يمكنها إنهاء هذا المؤتمر من دون أن تلتزم بشدة بإنهاء صيد الحيتان ذات الزعنفة، حتى ولو كان ذلك للمحافظة على مصداقية المنظمة أمام العالم... لا أعتقد أن حكومتي ستمضي في تحمل المخاطرة الناتجة عن تحدي الرأي العالمي من خلال الاستمرار بصيد الحيتان ذات الزعنفة... هل نحن هنا لنخدم حرفة صيد الحيتان أم لنخدم العالم[cccviii]؟

في الوقت الذي كانت فيه هذه الأسئلة المنمقة تتنافس في الاجتماعات، كان هناك اهتمامات أكثر واقعية: كم أعداد الحيتان المتبقية؟ كم قُتل منها؟ ونما الغضب عندما وردت الإجابات. وقدّر عالم الحيوان المختص بالحيتان سي. إتش تونسيد أن حوالي 37.000 من حيتان العنبر قُتلت خلال مئة عام من الصيد الأميركي للحيتان (صيد اليانكي)[cccix]. ومثّلت هذه التقديرات معارضة حادة للجهود التي بُذلت خلال القرن العشرين من عام 1950 وحتى 1970، إذ قتلت عشرة أضعاف هذا الرقم من حيتان العنبر، 337.604 حيتان منها،

في شمال المحيط الهادئ فقط.

ولما علم مناصرو البيئة بحجم المذبحة الحقيقي، بدأت بنية اللجنة الدولية لصيد الحيتان بالتغيّر، وانضمت دول لا تعمل في صيد الحيتان إلى اللجنة في سبعينيات القرن العشرين، ومع الدعم الاقتصادي من المجموعات المعادية لصيد الحيتان، في بعض الأحيان، وتحوّل الدول التي كانت تصطاد الحيتان سابقاً مثل نيوزيلندا وأستراليا وبريطانيا إلى تأييد الحفاظ عليها، قامت الأمم المتحدة بإقرار قانون الأنواع المعرضة للخطر، الذي فرض حظراً دولياً على جميع منتجات صيد الحيتان الكبيرة. وأصبح علماء الأحياء في اللجنة العلمية، الذين قل اعتمادهم على حرفة صيد الحيتان، أكثر صراحة. واستنتج هولت أن حرفة صيد الحيتان ليس لديها مستقبل فعلي، (إلا ربما بعد حوالي خمسين سنة، عندما يكون من الممكن استعادة أعداد الحيتان)[cccx]. وعندما اعترض اليابانيون بقوة على الحصص العالمية الأقل التي اقترحتها اللجنة، جعلوا الأمر يبدو كما لو أن هذه الصناعة مصممة على (انتزاع آخر رطل من اللحم من الحيتان)[cccxi]، بحسب ما كتبه جيرمي شيرفاز عام 1988.

في عام 1974 عبر مندوب مكسيكي عن مستوى الإحباط المتصاعد فقال: (سيعرف التاريخ هذه اللجنة على أنها مجموعة صغيرة من الرجال الذين أخفقوا في التصرف بمسؤولية فيما يخص التزاماً كبيراً نحو العالم، وقاموا بحماية مصالح قلة من صيادي الحيتان بدلاً من مستقبل آلاف الحيتان)[cccxii]. تضمنت هذه المقولة قيمة الحيتان أنفسها، ليس بالنسبة للصيادين ولكن بالنسبة لبقاء نوعهم. كانت هذه الفكرة لا تزال حديثة العهد واضطرت بعض المجموعات المعتدلة لتبرير الحفاظ على الحيتان بأنه إجراء وقائي من أجل مستقبل البشرية. وادّعت المنظمة البريطانية أصدقاء

الأرض أنه من بين الفوائد العديدة الناجمة عن حماية الحيتان أن إنقاذها (سيضمن مخزوناً مهماً من البروتين لأجيال المستقبل - عندما يشح بروتين اللحم بالتأكيد... فإنه من واجبنا الحفاظ على مصادر الطعام الكبيرة ورعايتها، تلك المصادر التي يمكن أن توفرها الحيتان إن تمت إدارتها بشكل جيد)[cccxiii].

وفي العام نفسه، الذي عُلِّق فيه العمل بوحدات الحوت الأزرق BWU، فرض علماء الأحياء في اللجنة الدولية لصيد الحيتان الأمر البديهي: كان من المستحيل حماية أي نوع من دون فرض قيود محددة على أعداده. لا يمكن إنقاذ الحيتان إلا فصيلة تلو الأخرى وحوتاً في إثر آخر.

وعلى مدى عقود، أخفقت اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC في تبنى الاقتراحات التي تقدم بها علماؤها، مستخدمة الشك العلمي لدحضها، ووفقاً لما أورده شابمان وزملاؤه (كطريق ملائمة للحفاظ على النصائح التي تضع حصص الصيد العالمية في مستوى مرتفع جداً وتسمح للصيد بالاستمرار فترة طويلة جداً)[cccxiv]. غير أن هذا النمط انتهى في عام 1979 عندما تم تبني اقتراح بإنهاء الصيد البحري لجميع الأنواع ما عدا حيتان المينك.

لكن المحاولات لإيقاف صيد الحيتان التجاري بكامله تداعت، وقامت اليابان بتوظيف أعضاء في مجموعات الضغط الأميركية لإبطال الجهود الساعية نحو إيقاف صيد الحيتان. وتلقى أحد المندوبين الأميركيين السابقين في اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC أكثر من 70.000 دولار لقاء نصيحته الداعمة لمجموعة الضغط لصالح صيد اليابان للحيتان[cccxv]. وتم اتهام اليابان أيضاً بالتلاعب بأصوات الدول الأقل تطوراً لمنع القرار من التطبيق. وعندما قررت البرازيل أن تقوم بإنهاء عمليات صيد الحيتان في عام 1979، أوقفت أنباء الضغط التجاري الياباني الحكومة البرازيلية

عن تطبيقه. وامتنعت هذه الدولة الأميركية الجنوبية عن التصويت على القرار في عام 1981. وفي عام 1982 صوتت البرازيل ضد الحظر التجاري وسمحت لصيد الحيتان بالاستمرار انطلاقاً من شواطئها، وبيعت أغلبية اللحوم إلى اليابان، وربطت الصحيفة البرازيلية Folha de São Paolo هذه القرارات ببرنامج الاستثمار الياباني في الزراعة البرازيلية الذي كانت قيمته 400 مليون دولار[cccxvi].

ونظراً للطريقة التي ألقى بها موبي ديك ظلاله في عالم صيد الحيتان، فربما تغفرون لي رؤيتي للمسة إيهاب في السعي الياباني لاستمرار الصيد التجاري. كانت ملايين الدولارات التي عُرضت على الدول النامية تلمع مثل القطع النقدية الإسبانية الذهبية التي ثُبتت على الصاري الرئيسي لسفينة البيكود لتُغري الملاحين برفع الحوت الأبيض. تمكن المال الياباني من جذب بعض الأعضاء إلى جانبها، لكن الدول الأخرى رفضت الانصياع. ووقفت ماكسين فيراري وزيرة التنمية في جمهورية سيشيل[1] ضد التهديد الياباني بسحب تمويل أبحاث المصائد في حال انضمت دولة سيشيل إلى الأمم الرافضة لصيد الحيتان، واعترضت قائلة: (مثل هذا الموقف لا يعبر عن التعاون بل عن السيطرة)[cccxvii]. وصوتت جمهورية سيشيل لصالح إيقاف جميع أنواع الصيد التجاري للحيتان.

في عام 1982 تمت الموافقة على قرار بتأجيل صيد الحيتان التجاري بكامله لمدة عشر سنوات، وتم تحديد موعد بدء تطبيقه في عام 1986، وذلك لمنح الدول التي تصطاد الحيتان فرصة لإنهاء عملياتها. وطبقت الولايات المتحدة الحظر من خلال التعهد بتخفيض حصص حقوق الصيد في مياهها لأي دولة قامت بالانتقاص من فاعلية التشريعات. وقررت كوريا التي تصطاد حوالي 300.000 طن سنوياً من سمك البولاك من بحر بيرنغ، وتمسك بحوالي 2.000 طن فقط

(1) جمهورية تتألف من 115 جزيرة في المحيط الهندي.

من الحيتان أن تُذعن للقرار[cccxviii]. وعلى الرغم من أن اليابان والنرويج والبيرو والاتحاد السوفييتي قدمت اعتراضاتها أولاً، فإن النرويج اليوم هي الدولة الوحيدة التي استمرت حتى اليوم بالصيد التجاري لحيتان المينك – ولا داعي للقول إنها الدولة الوحيدة التي تصطاد الحيتان. واستمرت أيسلندة واليابان بالصيد تحت ذريعة البحث العلمي، مستغلة وجود ثغرة في القوانين الأصلية للجنة الدولية بصيد الحيتان IWC.

ومما يدعو للسخرية، أن الولايات المتحدة استخدمت إجراءات مماثلة لحماية الحق في صيد الحيتان، عندما حاولت اليابان أن تنفي الوضع الخاص بصيد الإنويت للحيتان في المنطقة القطبية الشمالية عام 2002، وردت الولايات المتحدة بالتهديد بإيقاف كل البترول الذي يتم شحنه إلى اليابان من ألاسكا، وتراجعت اليابان.

تحولت النقاشات بين المصالح التجارية والحيوية في القرنين التاسع عشر والعشرين من طرح الأسئلة التي تدور حول علم التصنيف إلى أسئلة تتعلق بالاستدامة. وفي القرن الواحد والعشرين قد تعتمد القرارات الخاصة بصيد الحيتان على الدافع أكثر منها على العلم: هل سيتم الحفاظ على الحيتان من أجل استهلاكها لاحقاً، أم أنه يجب المحافظة عليها بحالتها الطبيعية؟ أو أننا فقط نريد أن نستمتع بوجودها؟

وفي إحدى رحلات المراكب مؤخراً، عبر خليج كايب كود، أعلن القبطان أنه قد تمت ملاحظة حوت أحدب أمام مقدمة القارب. وبعد الإعلان، أسرع الركاب لإلقاء نظرة على الحوت، وخرجت السفينة عن مسارها كي تقترب منه. ودفع الحوت اليافع بنفسه خارج الماء ورأسه نحو الأعلى ثم سقط على ظهره محدثاً تناثراً كبيراً من الماء. وفي كل مرة يشاهد فيها حوت على مسافة أبعد، يسرع الجميع إلى ميمنة القارب أو ميسرته، وكان يمكن أن تظن أننا ملاحون في

المنطقة القطبية الشمالية نبحر خلال الجليد للقبض على الحوت منذ قرن مضى.

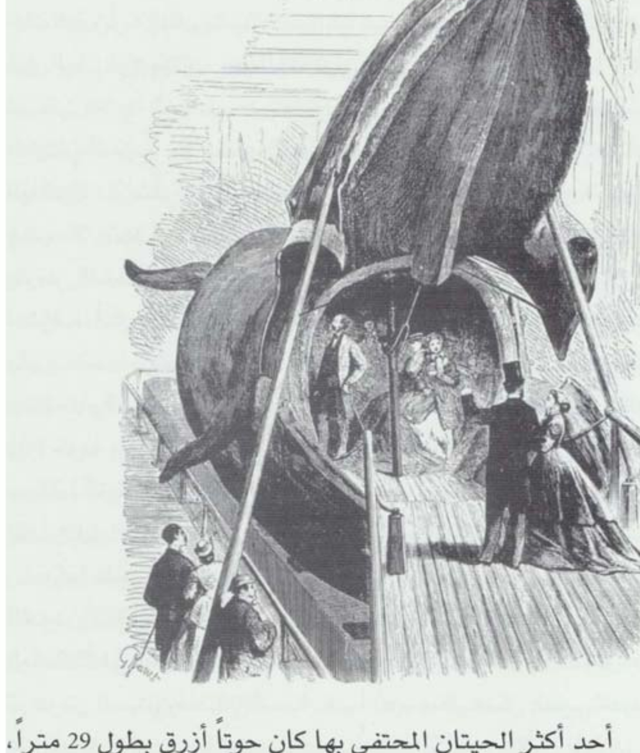
يجادل العديد من مناصري الحفاظ على البيئة أن الحيتان الآن تساوي أكثر وهي حية من قيمتها وهي ميتة، ذلك أن رؤية الحوت تحصد من دولارات السياح أكثر مما جمع أي حوت ميت على الإطلاق. إن مراقبة الحيتان هي مهنة فتيّة. وفي عام 1955، وبعد انجذاب آلاف من الناس لنقطة مراقبة على Cabrillo National Monument في سان فرانسيسكو لمشاهدة الحيتان الرمادية المهاجرة، تم إطلاق أول رحلة تجارية في مقابل دولار واحد للشخص، ومنذ تطبيق قرار وقف صيد الحيتان في عام 1986، ارتفع عدد الجولات بشكل كبير. وفي عام 1998 ذهب تسعة ملايين شخص لمشاهدة الحيتان، وأنفقوا أكثر من بليون دولار على الجولات والتذاكر والتذكارات[cccxix]. وتستضيف سبعٌ وثمانون دولة الآن رحلات مشاهدة الحيتان، وهي أكثر بكثير من الدول التي اصطادت الحيتان، ويُشير المناهضون لصيد الحيتان إلى دراسة تقول إن أكثر من 90% من السياح الذين يذهبون لمشاهدة الحيتان يُصرون على ألا يفعلوا ذلك في دولة مارست صيد الحيتان[cccxx]. إلا أن هناك دولتين هما أيسلندة وتونغا، لم تقتنعا بحصرية هذين النشاطين وهما تدرسان إمكانية معاودة صيد الحيتان التجاري.

وعلى الرغم من النقلة التي حصلت بعيداً عن صيد الحيتان، فلا يزال أغلبية الناس يعدون الحيتانيات كأي بضاعة. ويقول فوريستل (في حين أن التوجه العام يميل نحو زيادة جهود الحماية والمحافظة على الحيتان، فإن الأسس التي تدفع نحو التغيير تبقى متمركزة حول الإنسان بشكل كبير)[cccxxi]. وبالتأكيد اكتشف الكثير من الصيادين مدى عملية إحضار المشاهدين إلى الحيتان، فيوماً يعملون على تنظيف قواربهم لممارسة رياضة مشاهدة الحيتان، ويتجهزون

لرحلة صيد أسماك مستأجرة في اليوم التالي.

لقد كان بريندن، القديس راعي الحيتان، واللوثيان الودود جاسكونيوس، اللذين انبثقا من غياهب التاريخ كنموذج للعلاقات بين البشر والحيتان، وبدا الاقتراب من الحيتان واحتواؤها (إن لم يكن تلاوة القداس على ظهورها) هو الهدف المشترك لسياح الحيتان الجدد. وفي بعض الأحيان، يسألني أحد مشاهدي الحيتان اليافعين، في عملي كباحث، (هل يمكن تدجين الحيتان؟) (وكقاعدة عامة، لا يقوم الباحثون بالاقتراب كثيراً من موضوع دراستهم إلا بغرض الحصول على عينة من الحمض النووي، إلا أنه عليَّ أن اعترف، أنه عندما احتك رضيع فضولي بقارب الأبحاث في خليج ماين، قمت بالانحناء نحوه لألمس جلده الأسود النظيف). هناك رغبة عامة في الوصول إلى الحيتانيات الحية. وعلاوة على ذلك فإن حرفة مشاهدة الحيتان، التي ركبت موجةً الوعي حين أطلقتها حركة (أنقذوا الحيتان)، لها جذورها أيضاً في تقليد طويل لسيرك الحيوانات الثديية والمعارض والعروض الرحالة.

وكما كانت اللقاءات الأولى مع الحيتان منبثقة من الشاطئ – كان الحوت زفرة في الأفق أو وجبة على هامش الأرض – فإن المعارض العامة الأولى للحيتان كانت عن الحيتان الجانحة. وكتب براثلميس أنه تم عرض الحيتان منذ 2000 سنة على الأقل، ونقل هيكل عظمي لحوت من فلسطين إلى روما ليعرض على العامة في القرن الأول الميلادي. أغلب هذه المناسبات لم تدم طويلاً، بما أن الرائحة تصبح فظيعة، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض المتعاقدين الذين لم يرغبوا بالتخلي عن نجومهم الواهنة، قاموا بتقليصها إلى عظام واصطحبوها عبر الطرقات. وكانت مجموعة من الثيران تجر الحوت من مدينة إلى أخرى، حيث يعاد تجميعه، بصعوبة كبيرة في بعض الأحيان؛ إذ إن عظم الفك السفلي البيليني يمكن أن يزن حتى 250 كيلوغراماً.



يبدو في هذه الصورة حوت أزرق جنح بالقرب من جوثينبرغ في السويد، حيث تم تجهيزه بدهن معالج كيميائياً وعُرض في عدة مدن أوربية في ستينات القرن التاسع عشر. وكان تناول الشاي في جوف الحوت مقصداً شائعاً لمن يستطيعون تحمل كلفته.

أحد أكثر الحيتان المحتفى بها كان حوتاً أزرق بطول 29 متراً، جنح على شواطئ هولندا في عام 1857، وتمت معالجة الحوت الذي أصبح يعرف بحوت أوستيند[1] كيميائياً، وتجهيزه من أجل معرض متنقل. وعلى الرغم من أن مخرج العرض هيرمان نكيسيلز قد قام بترتيبات مع الملك الهولندي لإعادة الحوت إلى بلاده بعد انتهاء جولة المعرض، إلا أن هولندا انقسمت بينما كان

(1) نسبة إلى مدينة في بلجيكا.



يبدو في هذه الصورة حوت أزرق جنح في هولندا في عام 1857 وأصبح مركز الاستقطاب في معرض متنقل في أوروبا.

كانت معارض الحيتان – لجثث معالجة كيميائياً، وليست حيتاناً حية – تنتقل باستخدام القطار في أغلب الحيان في أواخر القرن التاسع عشر.

الحوت في جولته، شعر كيسيلز بالخوف من أن يطالب كلا الملكين بالحوت، وفشل في إعادته إلى أي منهما. ولا تزال العظام موجودة في سانت بيترسبرغ حتى الآن.

كانت تباع في هذه المعارض صحف مطبوعة بالموارد المحلية وعطور، وربما كانت الأخيرة بهدف إخفاء الرائحة الكريهة الصادرة عن الحوت المتعفن ولإلقاء الضوء على أصل العنبر(cccxxii). واحتفظت الرحلات المعاصرة لمشاهدة الحيتان بالتقليد القديم لبيع الحلي المقلدة، الذي كان يتم كنشاط جانبي في معارض الحيتان، فاليوم يتوافر كل شيء بدءاً من حمالات المفاتيح إلى القمصان، وأشرطة الفيديو وأكواب القهوة بعد انتهاء الجولة.

إن مثل هذه المعارض جمعت بين الترفيه والتعليم، إذ كانت الحشود العامة منذ القرن السابع عشر تُشجع على رؤية (شكل ومظهر الحوت المتوحش الحقيقي والدقيق). وأوضح إعلان من عام 1881 لمعرض عن (الحوت الوحش) في فيلادلفيا مروجاً لقيمته التعليمية: (لا يجب على أيٍ من الأهالي أن يهمل هذه الفرصة ليمنح أولاده درساً عملياً ممتازاً في التاريخ الطبيعي).

كان استهداف الدهشة البشرية عند رؤية الحيتان، بجزءيها الترفيهي والتعليمي، وسيلة جيدة لكسب العيش: بدأ من 15 سنتاً لمشاهدة الهيكل العظمي في عام 1881 إلى 45 جنيهاً إسترلينياً لرؤية حيتان المينك الحية بالقرب من شواطئ اسكتلندا، أو الانضمام إلى مشروع بحث علمي يدرس الحيتان الرمادية بالقرب من شواطئ كاليفورنيا مقابل 2000 دولار في عام 2004. بالطبع، يكمن الفرق الشاسع بين المعارض التقليدية ومشاهدة الحيتان الحديثة في أن المؤسسات التجارية الحالية تُمكّن الناس من رؤية الحيتانيات في بيئتها الطبيعية؛ ويمكن للرحلة البحرية أن تستمر ساعة أو أسبوعين،

ويمكن أن تكون في زورق الكياك أو قارب صيد أو من طائرة مروحية، وقد يقوم مشغلو الجولة بتشجيعك على السباحة مع الحيتان.

إن الفرق بين قاعة المعرض والبحر المفتوح هو أمر مهم. وكما كتب جوناثان بات؛ الباحث الأدبي البريطاني (نحن نقدر الطبيعة لنفس السبب الذي ندمرها لأجله، فكلما طوعنا الطبيعة في حياتنا اليومية، كلما قدرنا الحياة البرية أكثر في أوقات متعتنا)[cccxxiii]. وكما كانت إعلانات القرن التاسع عشر تروج للقيمة التعليمية لرؤية هيكل الحوت العظمي، فإن الرحلات البحرية لمشاهدة الحيتان اليوم تجهد للتأكيد على التوازن بين المعرفة والمتعة. وعند انضمام السياح إلى رحلة لمشاهدة الحيتان قد يتم إخبارهم أن رحلتهم هذه هي جزء من برنامج بحث علمي، يعمل على تقييم سلوك الحيتانيات المقيمة أو ميولها العامة. إنهم يتعلمون عما تأكله الحيتان، وكيف تتزاوج، وربما بماذا تخاطر الحيتان بتفاعلها مع البشر. وفي النهاية، فإن مشاهدة الحيتان تمتد من ثقافة مؤدبة إلى استغلال عدائي أو حتى استيطاني، كما يصفها فوريستل[cccxxiv].

أمضيت ساعات في أثناء جلوسي على الشاطئ في كايب كود، وأنا أشاهد الحيتان الصائبة وهي تقوم بحركات التودد؛ الإناث التي ترفع زعانفها القاتمة في الهواء والذكور تحدث ضجيجاً في طول الخليج وعرضه. كانت الحيتان قلقة، وامتلأ الهواء بزفرات خشنة – حتى اقتربت قوارب مشاهدة الحيتان كثيراً، عندها هدأ البحر وغطست الحيتان. وعلى الرغم من الحيتان تجمعت مرة أخرى، فإن انزعاجها كان أكيداً لدى كل اقتراب منها، ومن دون إرشادات صارمة، فنحن نتطفل على مواطنها.

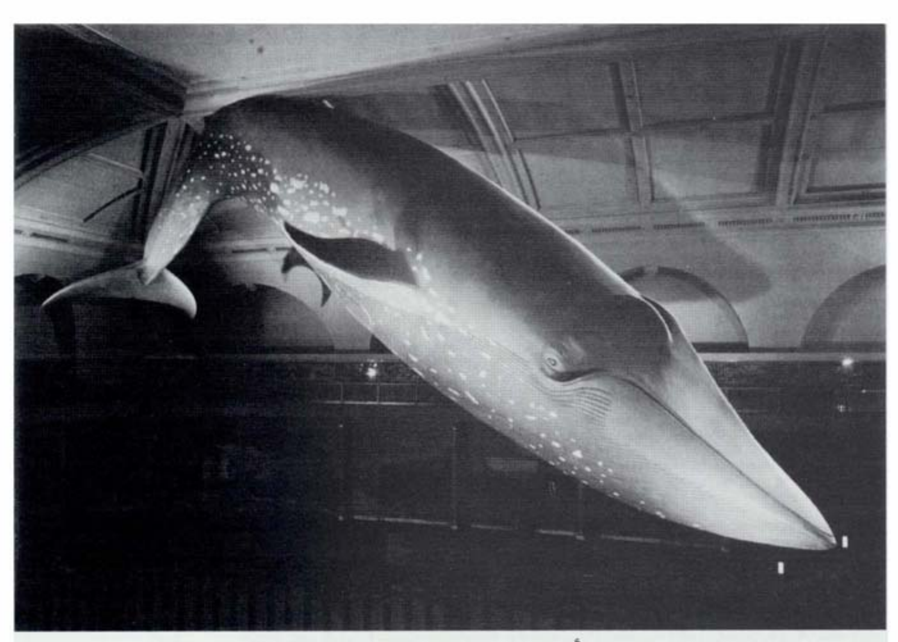
بين عامي 1880 و 1882، قامت جمعية صيد الحيتان المتوحشة Monster Whaling Association بجولة في أميركا الشمالية مع جثة حوت أزرق محفوظة تم أخذها من نيوفاوندلاند عام 1880، وكان هذا الحوت واحداً من مجموعة قُتلت في أثناء واقعة صيد حيتان الروركوال التجريبية التي انطلقت من ماين.



صورة حوت ذي زعنفة اصطيد بالحربون بالقرب من شواطئ النرويج الشمالية، وتمت معالجته كيميائياً، وعُرض كجزء من العرض الألماني المتنقل في بداية القرن العشرين.

تستمر الحيتان في التطفل على ما نعده موطننا البشري، وتنجرف على الشاطئ ميتة أو نصف حية، ولها رائحة سيئة جداً، ربما كان الحوت المنجرف إلى الشاطئ فيما مضى سمكة ملكية، يستحق من يعثر عليها أجراً صغيراً يذهب إلى الشخص الذي اكتشف الجائزة. وفي أواخر القرن العشرين، كان الحوت الجانح يستدعي طلب فريق الإنقاذ، وسجل فاولي الاستجابة التي حصل عليها من أجل حوته الأسير:

«كنت متعباً جداً لأفعل أكثر من النظر إلى جبل من الرسائل من جميع مناطق أميركا الشمالية، إذ احتوت الكثير منها على شيكات بمبالغ صغيرة، وبعضها احتوى على عملات معدنية، وهدايا من جميع أنواع الناس: أطفال في المدارس، مدير شركة سيارات في شيكاغو،



منظور عين العوالق: حوت ريتشار إيللز الأزرق، بُني في عام 1968، وهو معلق في قاعة الحياة في المحيط Hall of Ocean Life في المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي في نيويورك.

مربي ماشية من كالغاري، منسق أغانٍ إذاعية من نيويورك، وربة منزل من مدينة لابرادور... لقد توسلوا إليّ، وأحياناً بكلمات نابضة بالحياة، كي أقوم بإنقاذ وتحرير الحوت. كان بعضها عاطفياً، لكن الكلمات لم تكن ذات أهمية. ما يهم حقاً أن هؤلاء الناس المختلفين والمبعثرين في أماكن بعيدة حركهم جميعاً شيء واحد، الشعور بالتعاطف مع مخلوق كبير غريب، وهو عالق ويدور بلا نهاية في بركة صغيرة على الشاطئ البعيد لنيوفاوندلاند. لقد بعثوا في الأمل من جديد[(cccxxv)].

لا تزال حالات الجنوح مصدر جذب كبير، حتى ولو كان التجاوب في هذه الأيام يتم من خلال ملاءات قطنية رطبة ورافعات أمامية بغرض إعادة هذا المخلوق إلى البحر، بدلاً من سكاكين التقطيع. جنح حوت عنبر على شاطئ فاير آيلند (جزيرة النار) في نيويورك في عام 1981، وأطلق عليه لقب فيستي، وتم نقل الحوت إلى حوض

على قارب، حيث، بحسب ما أورده إيللز:

«تم إطعامه (لم ينجحوا في ذلك)، وعلاجه (غالباً لم ينجحوا في ذلك)، وتصويره على التلفاز (بنجاح كبير). وتم إطلاق سراحه بعد استراحة لمدة أسبوع — فغالباً هذا أفضل ما يمكن عمله لحوت جانح مصاب بالتهاب الرئة — وسبح بعيداً إلى المحيط الأطلسي، حيث لن يرى ثانيةً أبداً(cccxxvi)».

بالنسبة لشعب الماوري[1] قامت الحيتان الجانحة فيما مضى بتوفير مقدار كبير من اللحم والزيت، وهي هدية من إله البحر. وفيما بعد، في القرن التاسع عشر، انضم اليائسون من شعب الماوري إلى ملاحي سفن صيد الحيتان الأوروبية. وبحلول القرن الواحد والعشرين كان الحوت الجانح يمثل مأساة. وفي فيلم نيوزيلندي يدعى Whale Rider ظهر في عام 2002، تبكي قرية من الماوري على منظر حيتان صائبة جانحة، أغلبها صغيرة الحجم جداً، ربما لأن الحيوانات الأقرب إلى المقاييس البشرية تحرك أوتار القلب أكثر من غيرها. (حتى الحوت الخيالي يتطلب وقتاً لاستيعابه في عين العقل). وتحاول القرية بكاملها إعادة الحيتان الجانحة إلى البحر — وهي علامة، كما في أوروبا في العصور الوسطى، على أن الأمور ليست بخير مع العالم. تستطيع فتاة صغيرة فقط النجاح في ذلك من خلال الركوب على ظهر الحوت الصائب نحو الأمواج، لتعيد إيجاد الرحلة التي قامت بها البطلة الأسطورية بايكيا التي حملها حوت إلى نيوزيلندا. ومن خلال إعادة الحيتان إلى البحر، تقوم الفتاة باستعادة أخلاق شعب الماوري وعلاقتهم القديمة مع المحيط.

عندما يكون الأوان قد فات على الإنقاذ، فإن الحوت الميت الذي يتعفن على الشاطئ يعد خطراً على الصحة العامة. ما الذي يمكنك فعله بحيوان يزن 30 طناً عندما ينجرف على شاطئ

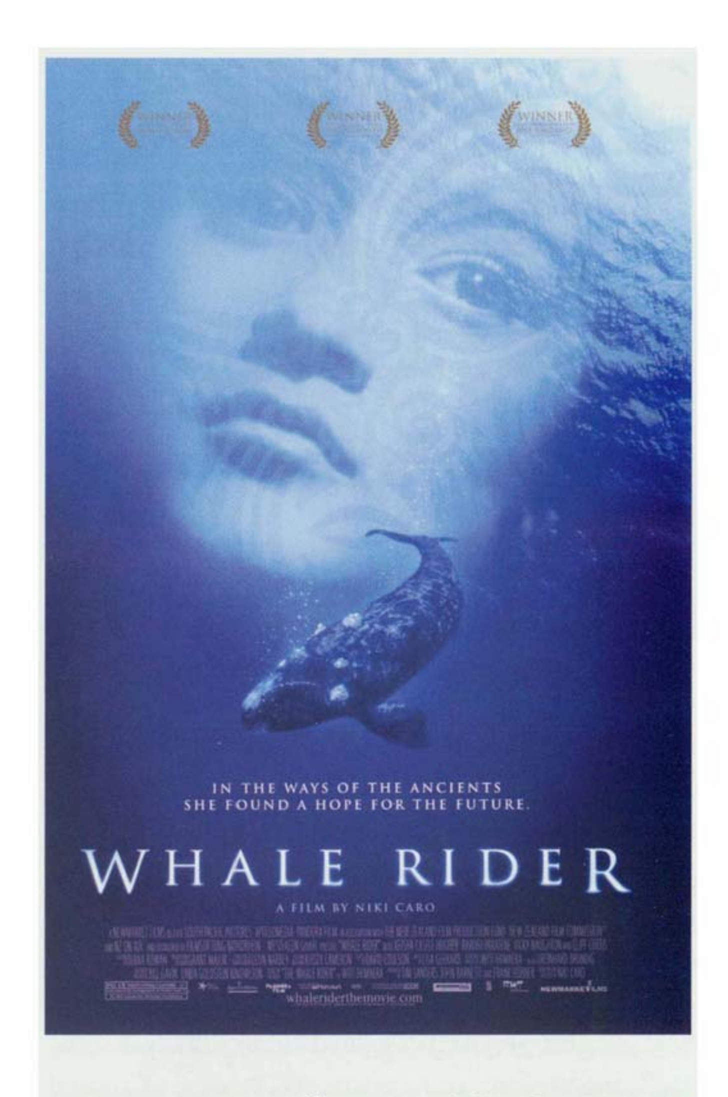
---

(1) سكان نيوزيلندا الأصليون.



يبدو مشاهدو الحيتان في هذه الصورة وهم يحيون حوتاً رمادياً بالقرب من شواطئ باجا في كاليفورنيا. وكما كانت إعلانات القرن التاسع عشر تروج للقيمة التعليمية لرؤية هيكل الحوت العظمي، فإن الرحلات البحرية لمشاهدة الحيتان اليوم تجهد للتأكيد على التوازن بين المعرفة والمتعة.

سباحة؟ في الكتيب الخاص بهيئة خدمات الغابات (إزالة جثث الحيوانات بالمتفجرات Obliterating Animal Carcasses with Explosives) هناك نصيحة بوضع 3 أرطال من المتفجرات في مقابل كل حصان يزن 1.100 رطل (مع تحذير من يقوم بالتفجير بأن عليه أن يقوم بإزالة حدوات الحصان) (لتقليل الشظايا الخطرة المتطايرة) ومضاعفة كمية المتفجرات من أجل التخلص الكامل من جثة الحيوان). كان على أحدهم أن يُحذر قسم شرطة مرور الطرق السريعة في ولاية أوريغون قبل أن يقرر إزالة حوت رمادي بطول 14 متراً من على شاطئها. حيث وُضع نصف طن من الديناميت على جانب الحوت الذي تهب منه الريح، على أمل أن تتناثر الجثة في البحر بقطع بحجم الأسماك ونوارس البحر. إلا أن الانفجار أمطر الحشد المتجمع بالدهن وأحشاء الحوت، وحطمت شريحة كبيرة



في فيلم نيكا كارو Whale Rider لعام 2002، يُستعاد النظام عندما تقوم فتاة شابة من شعب الماوري بإعادة الحوت الجانح إلى البحر وتنقذ قريتها.

النافذة الأمامي لسيارة كانت تقف في الجوار (cccxxvii).

في هذه الأيام، تحظى قلة من حالات الجنوح بمثل هذه النهاية المتفجرة – على الرغم من أن بعض الشاحنات الصغيرة لا تزال تحمل ملصقات باهتة تقول (اضربوا الحيتان بالقنابل النووية)، أو ربما تغطي أسساً أكثر، (اضربوا صغار الحيتان التي لم تولد بعد بالقنابل النووية). وبدلاً من ذلك، فإن الجثة يتم قطرها إلى البحر أو تدفن على الشاطئ، ويتم استرداد العظام لتُعرض في متحف أو جامعة محلية. مثل hierozoika أي تقديس الحيوانات التي ورد ذكرها في الإنجيل في العصور الوسطى، لعلهم يساعدون على ردع القوى المعاصرة وهي في هذه الحالة العلم والترفيه.



بعد أن تربى جيجي، صغير حوت رمادي، في عالم البحار، تمت إعادته إلى المحيط الهادئ في عام 1972.

10 - الحوت طعاماً

توقفت العديد من الدول في الغرب عن تناول لحم الحوت، في الوقت الذي نشطت فيه صناعة زيته. كان اللسان وجبة صيامية، واستمرعده وجبة شهية عندما كان الباسك يصطادون الحيتان على شواطئهم، لكن بمرور الوقت الذي أصبح فيه صيد الحيتان يتم في عُرض البحر، نادراً ما أكل العامة، وحتى صيادو الحيتان أنفسهم من لحم الحوت. وكما صاغ ميلفيل هذا الأمر: (إن شهيتك تزول عندما تجلس أمام فطيرة لحم بطول 100 قدم تقريباً)[cccxxviii]. أكلت بعض الحضارات لحم الحوت لقرون، وبالنسبة للنرويجيين المعاصرين قد يكون صيد الحيتان تذكيراً رمزياً بماضيهم المجيد؛ بالأيام التي ثاروا فيها وسيطروا على الصناعة. أما بالنسبة لليابانيين، فإن تناول لحم الحوت قد يكون تذكيراً تاريخياً بالدور الذي لعبه لحم الحوت في إنقاذهم من المجاعة بعد الحرب العالمية الثانية[cccxxix]. ويدعم المؤرخ الألماني كلاوس بارثلميس فكرة استكمال عمليات صيد الحيتان، مدعيّاً أن التنوع الحضاري البشري معرّض للخطر ويستحق الحماية شأنه شأن التنوع الحيوي تماماً، إلا أنه صوت نادر في ألمانيا، إذ تلقى أطفاله تهديدات بالقتل بسبب آرائه غير العادية. ولكن إذا حضرنا ندوة حول تاريخ صيد الحيتان، سنرى أنه ليس وحده. في الحقيقة، يبدو الانقسام الثقافي بين مؤرخي صيد الحيتان وعلماء الأحياء المختصين بالحيتان كبيراً، مثل الفجوة بين الدول التي تصطاد الحيتان وتلك التي لا تفعل، حيث تميل كل مجموعة للوقوف إلى جانب موضوع أبحاثها.

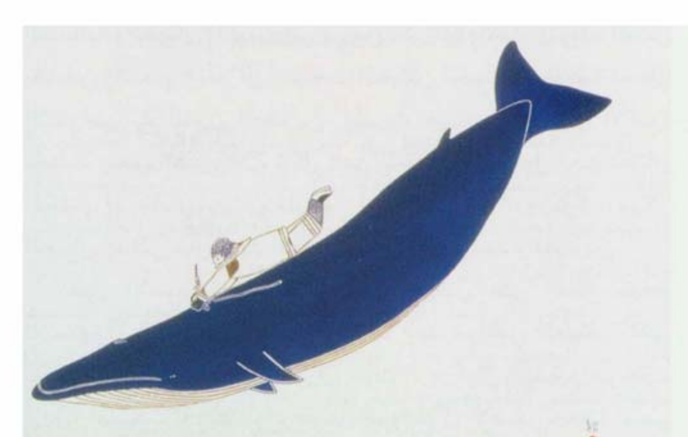
بالنسبة للعديد من الحضارات، كانت حيتان البيلين الكبيرة هي الطريدة المفضلة، إذ كان يمكن صيد كل من الحيتان الصائبة

الشمالية والحيتان المقوسة الرأس من على الشواطئ، وتزويد الناس بالدهن واللحم. وبعد أن أصبحت الحيتان الصائبة معرضة لخطر الانقراض في القرن العشرين، وندرت حيتان الروركوال الأكبر، تحولت بعض الدول التي تأكل لحم الحوت إلى تناول لحم حيتان المينك، إذ تشكل حيتان المينك؛ أصغر حيتان الروركوال، مركز الجدال الدائر حول صيد الحيتان في القرن الواحد والعشرين.

تقول الأساطير إن هذا الحوت حصل على اسمه نتيجة للاستهزاء النرويجي، فبعد أن أخطأ أحد مراقبي الحيتان الذي يُدعى مينك Meincke، وظن أن حوت الروركوال الصغير هو حوت أزرق، أصبحت جميع أنواع حيتان الروركوال الأصفر حجماً تُدعى بحيتان المينك. وكتب بارثلميس بعد أن فشل في العثور على دليل يثبت هذه القصة، أن الاسم أتى فعلاً من الفعل النرويجي minke، والذي يعني (أن يصبح الشيء أصغر او ينقص حجمه)[cccxxx]. ويمكن لهذا أن يصف النمط الحالي لصيد الحيتان كذلك.

وعلى الرغم من أنه تم اصطياد حيتان المينك منذ القديم في النرويج، حيث كانت تحتجز في الخلجان وتُضرب بسهام تحمل بكتيريا ضارة، إلا أن الصيد التجاري لحيتان المينك لم يبدأ هناك حتى عشرينيات القرن العشرين. وأصبحت المصدر الرئيسي للحم الحوت في اليابان في سبعينيات القرن العشرين. ثم إن حجم حيتان المينك جعل منها الفريسة الشائعة للحيتان القاتلة، حيث تشكل 85% من طعام بعض الحيتان القاتلة في المنطقة القطبية الجنوبية[cccxxxi].

اعترضت النرويج في ثمانينيات القرن العشرين على قرار اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC وقامت بصيد عدة مئات من حيتان المينك في السنة، رغم وجود الحظر العالمي. وفي البداية رفضت أيسلندة، وهي عضو مؤسس في اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC،



معاناة صياد،
Hunter's
Dilemma لوحة
محفورة في الحجر
رسمها كافافاو مانومي؛
فنان من شعب الإنويت،
على جزيرة ويست بافين.

القرار لكن الجزيرة قامت بإيقاف عمليات صيد الحيتان في 1989 تحت الضغط الدولي، ومؤخراً استأنفت صيد حيتان المينك، مبررة الحصيلة السنوية البالغة 38 حوتاً بحجة جمع البيانات عن كمية السمك التي تستهلكها الحيتانيات. ولكن من بين جميع نشاطات صيد الحيتان، يبقى الصيد الياباني في عرض البحر في النصف الجنوبي من الأرض، أكثرها إثارة للجدل.

يعود صيد الحيتان في اليابان إلى 1000 سنة على الأقل، وقد نشأ في العصر الحجري الحديث قبل التاريخ. وتلا التطورات التي وقعت على أسلوب صيد الحيتان بالحربون في القرن السادس عشر، أسلوب ياباني فريد في الصيد طوره يوريهارو وادا في عام 1677، باستخدام شباك كتانية كبيرة، يتمكن الصيادون بواسطها من محاصرة الحوت أو ثنائي الأم ورضيعها، ثم يطلقون الحراب على الطريدة الواقعة في الشرك. ثم يثب الصيادون على الحوت ويقومون بعمل فتحات وتمرير الحبال من خلال فتحات التنفس والظهر. ويُزعم أن وادا حصل على هذه الفكرة من مشاهدته لشبكة عنكبوت. ويتمكن



رفضت أيسلندة في البداية القرار الدولي الخاص بوقف الصيد التجاري للحيتان، لكنها وتحت الضغط الدولي قامت بإيقافه في عام 1989.

الصيادون باستخدام هذه المقاربة الخطرة من مهاجمة أنواع يصعب في بعض الأحيان مطاردتها باستخدام الحربون، واستمر صيد الحيتان بالشباك في اليابان أكثر من قرنين من الزمان.

وبحسب ما اورده إيللز، فإن صيد الحيتان الياباني لم يتعرض للخسائر المترافقة مع الصيد الأميركي والأوروبي:

كانوا يأكلون اللحم ويستخدمون الزيت كصابون ومن أجل إنارة المصابيح، لكنهم قاموا أيضاً بمزج الزيت مع الخل، ليتخلصوا من حشرات محاصيل الرز. كانت العظام تُسحق وتُستخدم كسماد، ويُستعمل البيلين في صناعة المراوح وسنارات الصيد وحمالات الفوانيس؛ وصنعت الأدوية من مختلف الأعضاء الداخلية، وكما هو متوقع فإن العضو الذكري كان يجفف ويسحق لصنع منشط. وتُغلى

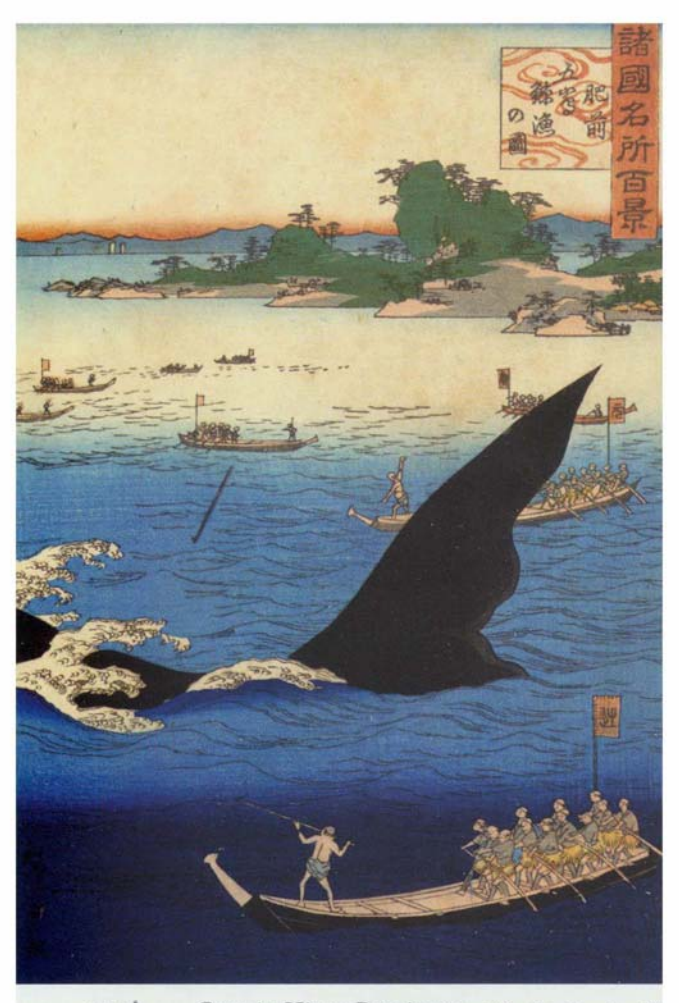


تمتلك اليابان روابط تاريخية عميقة مع الحيتان وصيدها. كان مياموتو موساشي مبارزاً مشهوراً في القرن السابع عشر خاض 60 مبارزة بدون هزيمة واحدة. وتقول الاسطورة أنه قتل حوتاً بمفرده. تبدو في هذه الصورة لوحة خشبية محفورة للفنان أوتاجاوا كونيوشي (-1798 1861) واسمها مياموتو موساشي والحوت الكبير Miyamoto Musashi and the Big Whale.

الأحشاء لصنع حساء، وقيل إن أغشية القلب كانت تستخدم في الطبول[cccxxxii].

كل حوت يُعد جائزة عالية القيمة، ويتم صيده عادة من أجل التجارة لا بغرض الاستهلاك المحلي. ووضع الحراس في محطات صيد الحيتان لمنع السرقة، على الرغم من أن العديد من اللفافات تُظهر أنهم في بعض الأحيان تجاهلوا حدوث كاندارا kandara، أو السرقات الصغيرة، وسمحوا للنساء العجائز والمعوزين بسرقة قطعة من الحوت، نظراً لأنه لن يفتقد أحد قطعة صغيرة من اللحم أو الدهن من غنيمة تزن عدة أطنان.

كانت الكوجيرا Kujira تُحفظ بالتجفيف في الشمس والتمليح والتخليل، وكان الدهن يستخدم، بعد إزالة الزيت، لإضافة النكهة إلى الحساء.وكما في المحيط الأطلسي الشمالي، كانت الحيتان الصائبة هي الأنواع الأكثر تقديراً. نصف كوجيرا. وفي بعض المناطق كان المراقبون على الشاطئ يرسلون إشارتين من الدخان عندما



الإمساك بالحيتان في لوحة Goto in Hizen Province وهي مأخوذة من كتاب: One Hundred Views of Famous Places in the Provinces من عام 1859، لوحة محفورة في الخشب للفنان هيروشوغي الثاني (أوتاغاوا شيغينوبو، 1826-1869).



تمثل هذه اللوحة معمل زيت حيتان ياباني أثناء العمل.

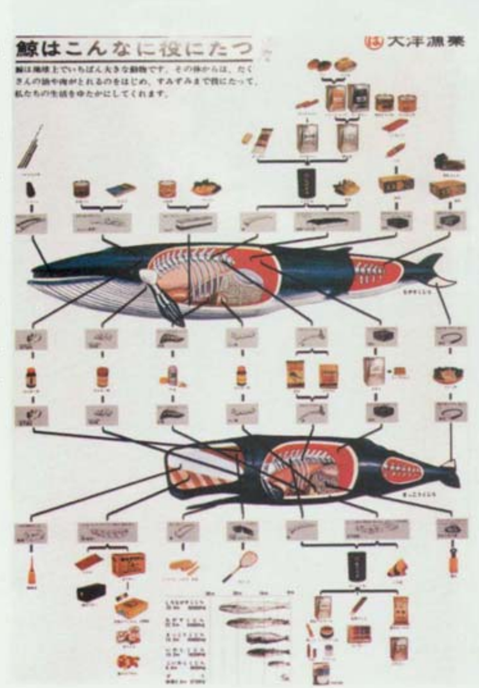
يرون حوتاً صائباً، في حين أن الإبلاغ عن معظم الأنواع الأخرى كان يتم من خلال شعلة واحدة. وامتلكت حيتان زي والحيتان اليافعة ذات الزعنفة لحماً ذا جودة عالية، وحصلت على أسعار جيدة في السوق. وعلى العموم فإن حيتان العنبر لم تكن مرغوبة، ربما بسبب الخواص الملينة التي يتمتع بها لحمها(cccxxxiii).

وفي بعض مناطق اليابان، تعد الحيتان حيوانات تجلب الحظ؛ إذ



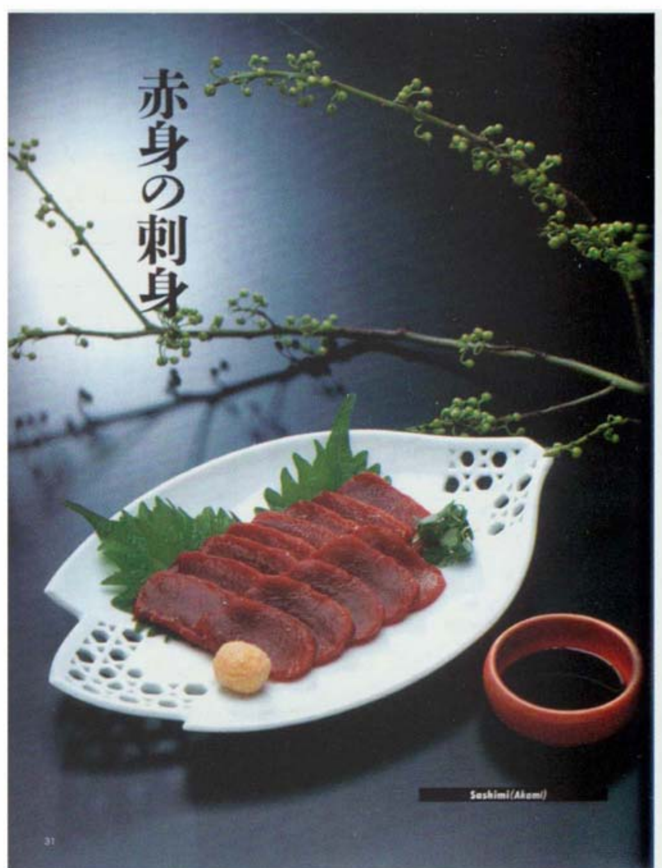
إن تناول طبق كوجيرا خلال مهرجان السنة الجديدة Oshogatsu أشوغاتسو، يمكن أن يجلب الحظ الجيد لبقية السنة. وشارك صيادو الحيتان في العديد من المهرجانات المتعلقة بالصيد: كانت الرقصات تُؤدى للتحضير للمطاردة وللاحتفال بعودة الحيتان أولاً ثم بنجاح الصيد.

ومع انخفاض أعداد الحيتان الساحلية في القرن العشرين، اعتنقت هذه الدولة المكونة من جزر الصيد البحري، وكما فعل شعب الباسك قبل قرون، قام اليابانيون بتوظيف صيادي حيتان نرويجيين لتعليمهم المهنة، وعمل المدفعيون النرويجيون على السفن اليابانية حتى ثلاثينيات القرن العشرين. إلا أن اليابان كانت فريدة



ملصق ياباني يوضح المنتجات المتعددة التي تنتج عن حيتان البيلين والحيتان ذات الأسنان؟ عادة ما تبدو الحيتان اليابانية حيتاناً يعيدة حتى عندما تقوم بالإعلان عن مطاعم تُقدم وجبة كوجيرا kujira.

في اليابان، تُقدم أفضل قطع الحوت نيئة وتسمى ساشيمي.



بالنسبة بصيد الحيتان الصناعي – فقد كانت الدولة الوحيدة التي كان الطعام هدفها الرئيسي(cccxxxiv). وأيضاً، كانت الدولة الوحيدة من بين الدول التي تصطاد الحيتان لصناعتها، التي أقامت جنازات للحيتان التي قُتلت في أثناء الصيد. وعلى مدى قرون، كان على الصيادين أن يُكافئوا الحيتان على التضحية بحياتها – ويعتنوا بأرواحها. ولا يزال بعض المدفعيين الذين عملوا في صيد الحيتان

في عرض البحر يطلبون الغفران لقيامهم بقتل الحيتان، إذ يمكن للأرواح غير المحروسة أن تصبح غاكي gaki، وهي الأشباح الجائعة التي تسبب المرض و الحوادث في البحر. وفي بعض المجتمعات، كانت أرواح الحيتان الميتة تُعامل بنفس الاحترام الذي تتلقاه الأرواح البشرية؛ فتمنح بعد موتها أسماءً، يتم تسجيلها على الألواح التذكارية ويتم ضمها إلى سجلات الوفيات. وتم العثور على مثل هذه الألواح الحجرية في مجال يمتد من شمالي جزيرة هوكايدو إلى جزيرة كوشو الجنوبية. وأصبحت مواقع هذه النصب التذكارية أماكن تجمع للحركات الهادفة لحماية صيد الحيتان في اليابان[(cccxxxv)].

إلا أن العديد من الدخلاء يشعرون أن هذه التضحية في غير محلها، فمثلاً، وبخّت افتتاحية كُتبت في صيحفة نيويورك تايمز في عام 2000 اليابانيين على توسعهم في صيد الحيتان من النصف الجنوبي للكرة الأرضية نحو شمال المحيط الهادئ فكتبت: (لا يُعد لحم الحوت الوجبة الرئيسية في اليابان، إنه فقط وجبة فارهة، ويمكن لليابانيين القيام ببعض التضحيات الصغيرة في مطبخهم للحفاظ



مع فرض الحظر على صيد الحيتان التجاري، قام صيادو الحيتان بصيد حيتان المينك تحت ذريعة صيد الحيتان العلمي.

على هذه الحيوانات المهيبة)[cccxxxvi]. في حين يُصر المسؤولون اليابانيون على أن صيد الحيتان وتناولها كطعام أمر أساسي بالنسبة لهويتهم الحضارية، ومع ذلك فإن صيد الحيتان في عُرض البحر قد ابتعد كثيراً عن المحطات الشاطئية التقليدية التي نهضت بالأسطول الياباني. تأتي محتويات معظم أطباق كوجيرا من المنطقة القطبية الجنوبية، وتقوم شركات كبيرة بتنفيذ عمليات صيد الحيتان، وليس لها ارتباطات قوية بالمدن التقليدية. وفي الوقت نفسه يصر المسؤولون على أن الصيد هو بهدف إجراء الأبحاث فقط. ووفقاً لما قاله سيجي أوسومي، المدير العام لمؤسسة أبحاث الحيتانيات والتي يقع مقرها في طوكيو: (لا توفر الوسائل غير المميتة لدراسة أنظمة طعام الحيتان المعلومات المطلوبة)[cccxxxvii].

ويحتج نقاد برنامج صيد الحيتان بأن الحيتان لا تُقتل من أجل الأبحاث، لكن الأبحاث اليابانية تُنفذ لقتل الحيتان. فعلى سبيل المثال، يمكن الآن لعينة من الحمض النووي DNA أن تسمح للعلماء بتتبع هجرة الحيتان عبر المحيطات، وأن تحدد علاقة النسب وتبحث في أحجام تجمعات الحيتان السابقة – كل هذه المعلومات يمكن الحصول عليها بعينة من الجلد أصغر من حجم ظفر واحد. وفي المقابل لم يقم برنامج أبحاث الحيتان الياباني، الذي يقوم باصطياد عدة مئات من الحيتان تتراوح أوزانها بين 5 – 10 أطنان من المنطقة القطبية الجنوبية وشمال المحيط الهادئ بنشر إلا بعض الدراسات حول عمله. وقال فيل كلابهام وهو عالم أحياء مختص بالحيتان في وودز هول في ولاية ماساشوستس لصحيفة نيويورك تايمز في عام 2002: (إن هذا سجل سيئ لبرنامج ضخم يعمل منذ سنوات ويقوم بقتل الآلاف من الحيوانات من أجل الابحاث)[cccxxxviii].

وقد استخدم تحليل الحمض النووي DNA لسبر السوق نفسه، ففي عام 1993، نصب عالم الأحياء المختص بالحيتان سكوت باكر

مختبراً مرتجلاً لأبحاث علم الوراثة في غرفة فندق على أطراف مدينة طوكيو. وباستعمال آلة إحداث تفاعل تسلسلي كيميائي PCR محمولة، صنع نسخة مصطنعة من الحمض النووي الموجود في لحم الحيتان ليحضرها ثانية إلى المختبر في هاواي. وعلى الرغم من أن اليابان أبلغت أنها لا تصطاد إلا حيتان المينك إلا أنه في عام 1999 تمكن باكر وزميله ستيف بالومبي من جمع قائمة بالأنواع المعروضة للبيع في السوق، ستجعل من الأنواع التي يشاهدها مراقبو الحيتان طوال حياتهم قائمة قزمة: تسعة عشر من الحيتان ذات الزعنفة، وأربعة من حيتان برايد، وحوتان أحدبان، وحوت زي، وحوت أزرق، وحوت أزرق له زعنفة مهجن في أيسلندة، وحيتان المينك بالإضافة إلى ثلاثة أنواع من الحيتان ذات المناقير، وبعض هذه الأنواع مثل الحيتان الحدباء والحيتان الزرقاء يخضع للحماية منذ عقود. ولا تزال تظهر أنواع جديدة في السوق؛ إذ تم اكتشاف حوت رمادي مؤخراً في مقاطعة واكاياما. واكتشف أيضاً أن ربع العينات التي تباع على أنها لحوم حيتان كبيرة هي في الحقيقة لحوم دلافين وخنازير بحر، وهذه الأنواع تقع في مرتبة أعلى من حيتان البيلين في السلسلة الغذائية – ولهذا فإن أنسجتها تحوي معدلات أعلى من المعادن الثقيلة والمسرطنات ثنائية الفينيل متعددة الكلورات carcinogenic polychlorinated biphenyls أو PCBs، وعلى الرغم من أنها تباع كلحوم نظيفة، فإن طبق الكوجيرا الآن يشكل خطراً على الصحة.

وفي عام 1995، وعلى الجانب الآخر من المحيط الهادئ، أعلنت الولايات المتحدة أن قبيلة الماكاه الهندية التي تعيش في ولاية واشنطن ترغب في صيد خمسة حيتان رمادية سنوياً لأغراض إقامة شعائرها ومعيشتها(cccxxxix). وقد كانت هذه القبيلة قد تخلت عن صيد الحيتان في عشرينيات القرن العشرين، بعد أن اصطيدت الحيتان

الرمادية حتى حافة الانقراض في مناطق تزاوجها، على بعد أكثر من 1.000 كيلومتر جنوب محمية الماكاه، ولكن بما أنه قد تم شطب الحيتان الرمادية من قائمة الأنواع المعرضة للانقراض، فإن القبيلة ترغب في استئناف الصيد.

كان رد الناشطين المعارضين لصيد الحيتان سريعاً، وخلال لقاء تلفزيوني، لام بول واطسون، رئيس جميعية رعاة البحر المحافظة Sea Shepherd Conservation Society، وعضو سابق في منظمة السلام الأخضر هذا الاقتراح فقال:

إن السبب الحقيقي لمبادرة الماكاه هذه، هو أنهم يعرفون جيداً أن لحم الحوت يساوي في اليابان حوالي 80 دولاراً للكيلوغرام الواحد، وأن واحداً فقط من هذه الحيتان يساوي ما يقارب المليون دولار. ولهذا فإن ما يفكرون به هنا هو عملية صيد حيتان تجارية. وهذا لا يعني فقط الحيتان الخمسة التي يقولون أنهم يريدون قتلها... سيكون لهذا تأثيراته على آلاف الحيتان حرفياً[(cccxl)]».

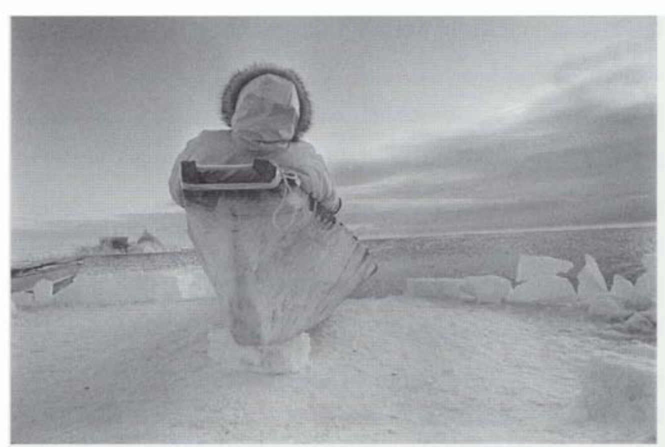


تُظهر هذه الصورة صيادي الحيتان من قبيلة الماكاه الهندية، وهم يقومون بتقطيع حوت رمادي على شاطئ شبه جزيرة أولمبك، حوالي العام 1910-1911.

وفي الحقيقة لم يكن هناك أي دليل على أن هنود الماكاه يخططون لبيع لحم الحوت خارج البلاد. لكن واطسون كان مقتنعاً أن هذا الصيد سيحدث تآكلاً في مصداقية المحافظة على البحار في الولايات المتحدة، وسيفتح المجال أمام صيد الحيتان التجاري حول العالم.

بالنسبة للعديد من الأميركيين، كانت خطة الماكاه التي تقضي باستخدام بندقية من عيار 50 لقتل الحوت بعد إصابته بالحربون إهانة لمنظورهم التقليدي عن أن الهنود الحمر من مناصري الطبيعة. وسرعان ما تعلم الماكاه فن المؤتمرات الصحفية، وظهروا في برنامج توداي Today على القناة الوطنية وعلى الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز. وفي 17 أيار 1999 قاموا بقتل أول حوت رمادي منذ ثلاثة أجيال، وتوافد مئات من سكان البلاد الأصليين ليأكلوا من لحم الحوت، إلا أن الاحتفال كان قصيراً، ولم تحدث متاجرة بأونصة واحدة من أجل الربح، ولم يتم قتل حوت آخر منذ ذلك الوقت.

منذ وضعت الأسس الأولية لقوانين صيد الحيتان التجاري، تم التمييز بين الاستخدام التجاري والاستهلاك المحلي. ففي معاهدة واشنطن في عام 1946، مُنع صيد الحيتان الصائبة في العالم بأكمله، باستثناء سكان ألاسكا الأصليين، وهنود الإنويت الكنديين والأليوت السوفييت. إلا أن هذه الحضارات الشمالية أيضاً عانت من التغيرات التي حدثت في أنظمة المحيط البيئية بعد عقود من صيد الحيتان الصناعي. وكتب توماس بينياتاك براون عندما زار قرية بارو؛ قرية صيد الحيتان التقليدية، في عام 1928: (اليوم تشبه هذه القرية قصراً مهجوراً)[cccxli]. وتم إحداث وظائف لتجنب المجاعة، وهذا أبقى الرجال بعيداً عن منازلهم. كانت ثقافة صيد الحيتان مركز



صورة لصياد من شعب الإنوبياك ينتظر حوتاً مقوس الرأس في قارب أميك.

الحياة في الشمال لقرون عدة، وهي على وشك الاختفاء؛ وتنبأ الكثيرون بنهاية تقاليد السكان الأصليين.

ولكن هؤلاء الناظرين من الخارج لم يروا تصميم هذه الثقافات الشمالية على الحفاظ على تقاليدهم الخاصة بصيد الحيتان، فعلى الرغم من أن سكان البلاد الأصليين قد منحوا استثناءً من اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC في عام 1946، إلا أن القرار الخاص بالحيتان المقوسة الرأس الذي تم إقراره في عام 1978 منع كلا الصيدين التجاري والتقليدي في المنطقة القطبية. ثم نجحت الاحتجاجات التي قدمها سكان آلاسكا الأصليون، ثم الحكومة الأميركية، وتم إقرار حقهم في صيد ثمانية عشر حوتاً[(cccxlii)]. ولا تزال فكرة البقاء الثقافي والغذائي لسكان الشمال والتي تتبلور في استمرار صيد الحيتان تلقى دعماً قوياً من الأمم التي لا تعمل بصيد الحيتان.

تم التعبير عن خيبة الأمل بالطعام الأوروبي منذ وصول صيادي الحيتان الأوائل إلى الشمال، حيث يعتبر طبق ماكتاك maqtaq أكثر الأطعمة إكباراً من بين أطعمة المنطقة القطبية[(cccxliii)].

ورغم أن شعب الإنويت تاجر بدهن الحوت مع صيادي الحيتان، إلا أن الأوروبيين والأميركيين رفضوا إعطاءهم نقوداً في مقابل ذلك، مفضلين مبادلتهم بأطعمة من مخازن السفينة، مثل البسكويت واللحم المملح مقابل الحوت، ويذكر أحد العاملين في تقطيع لحم الحوت: (عادة في أيام السبت، كانوا يُمنحون طعام الرجل الأبيض، ولكنهم يبقون جائعين لتناول طعام حقيقي)[cccxliv]. وتحدثت امرأة من شعب الإنويياك إلى المصور بيل هيس عن الوقت الذي أمضته في مدرسة داخلية، عندما كانت محرومة من تناول الحوت: (لم يكن الطعام مُشبعاً، وبدأت بالنحول، والشحوب والمرض. سنمرض هنا في هذا الشتاء دون الحيتان)[cccxlv].

إن صيد الحيتان هو أيضاً صلة بالماضي، في شهر حزيران من كل عام، يحتفل شعب الإنويت بالنالوكاتاك maqtaq، وهو مهرجان صيد الحيتان الرسمي. حيث ستمنح الحيتان نفسها فقط للصيادين الذين سيتشاركون صيدهم مع هؤلاء الذين لا يمكنهم الصيد بأنفسهم. وتقوم فرق الصيد الناجحة بتوزيع لحم الحوت والماكتاك maqtaq خلال الاحتفال. وتُجمع جلود الفقمات التي تم اصطيادها في ذلك العام وتخاط مع بعضها لتُشكل ملاءة، ثم يقوم الذين يمسكون بأطرافها بإلقاء أحد الصيادين في الهواء عندما يجذبونها بقوة، ويُقال إن لهذا أصوله في محاولات البحث عن الطرائد في سهول التندرا القطبية.

يدافع الكثيرون من علماء الأحياء ومؤرخو صيد الحيتان عن الصيد في المنطقة القطبية الشمالية، ويذهب بعض علماء الاجتماع بالجدال إلى أبعد من ذلك: فصيد الحيتان في هذه الحالة هو أمر جيد بالنسبة للحيتان، فكتب عالم الإنسان م. ج. ستيفنسون قائلا:

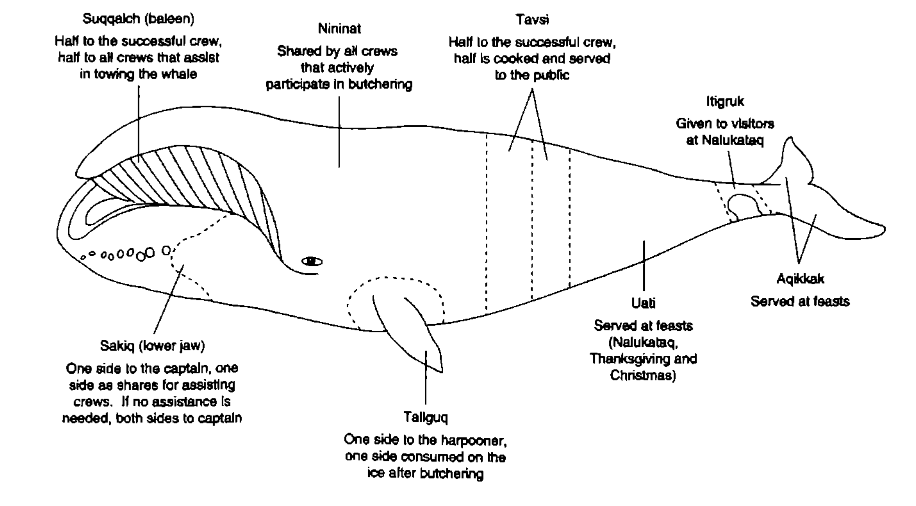
«عندما يرى البشر أنفسهم كجزء متكامل من النظام البيئي

الطبيعي، فإن استخدامه يمكن أن يكون استراتيجية محافظة ممتازة، فعلى سبيل المثال، فقد لاحظ كلٌ من شعب الإنويت والعلماء أن أعداد الحيتان التي يتم اصطيادها على أسس مستدامة لديها أمراض أقل وطعام أكثر وتتناسل بسرعة أكبر من الحيتان التي لا يتم صيدها باستدامة (cccxlvi)».

ولا تزال الأدلة العلمية الدامغة لدعم مثل هذه الإدعاءات قليلة جداً.

يتم تقطيع الحوت المقوس الرأس، بين صيادي الحيتان من الإنويت في بارو بآلاسكا وفقاً لعادات صارمة تحكم توزيع الحصص.

وعلى الرغم من أن حصة السكان الأصليين من صيد الحيتان المقوسة الرأس قد ارتفعت إلى 67 حوتاً في السنة(cccxlvii)، إلا أن مجرد فكرة وجود حدود للصيد تُغضب الكثيرين في ألاسكا. وكما قال أحد قباطنة صيد الحيتان لهيس: (إن الحوت يمنح نفسه للشخص الذي يشعر أنه يستحقه. إنها ليست طريقة شعب الإنوبيات أن يقولوا أننا سنحصل على هذا العدد من الحيتان. لا يمكنك أن تحدد رقماً لهذا) (cccxlviii). واشتكى قبطان آخر قائلاً: (هناك مثل قديم يقول:



لا تتنازعوا على الحيتان المقوسة الرأس، فالحيتان في بعض الأحيان تُرسل سعاة ليتفقدوا ما الذي يجري في القرية). وعلى أي حال، أفشى صياد الحيتان، بسبب إحباطه، السر الذي كان يساعدهم على جعل هذا الصيد أحد الأمثلة القليلة عن صيد الحيتان المستدام في القرن الواحد والعشرين: (يجب أن نكون متواضعين أمام هذا الحيوان العظيم)[cccxlix].

11 - الزعانف الذيلية

بالنسبة لصيادي الحيتان القدماء، لا يعد الحوت موجوداً إلى أن يتم قتله، واستخراج دهنه، وتسجيل صيده في السجل. ويُعبر عن قيمته المنفردة بعدد براميل الزيت المستخرجة من دهنه. لكن بالنسبة لعلماء الأحياء المعاصرين المختصين بالحيتان، فإن الحيتان لا تعد موجودة حتى يتم التعريف عنها بالصور. أو حتى بالأفضل من ذلك؛ تعريفها جينياً. إذ تشبه بعض سفن الأبحاث قوارب صيد الحيتان الأولى، ففي خليج فوندي، يتألف طاقم سفينة نيريد Nereid من سائق واحد، واثنين من المراقبين عند المقدمة، مستعدين لالتقاط الصور عندما تتم ملاحظة الحوت، ومسجل بيانات، وآخر احتياطي، ومسؤول عن إطلاق الحربون — أو بالأحرى، رامي سهام، مزود بقوس معقوف له مدى طويل. وبالطبع لا يبحث موجه الدفة الحديث عن اللحم بل عن عينة من الجلد.

في بعض الأحيان، قد تجمع مثل هذه الرابطة القوية بين الباحثين والحيوانات التي يدرسونها، بطرق غريبة، ففي أثناء تتبع الحيتان الرمادية في باجا بولاية كاليفورنيا عام 1979، اقترب عالم الحيتانيات بروس مات وزميله أكثر من اللازم من ثنائي يتزاوجان، واقتربت منهما الأنثى كثيراً، وبينما كان الذكر يطاردها، استفادت الأنثى من قارب الأبحاث المطاطي الصغير، وسبحت بالمقلوب تحته، وفي أثناء تتبع الذكر لها صنع عضوه الذكري قوساً فوق سطح الماء، ارتطم الباحثون ببعضهم، عندما لامس عضو الذكر القارب، وقال مات: (لقد استخدمتنا الأنثى كحاجز).

إن معظم العلاقات بين الحيتان والباحثين تكون من مدىً بعيد وتستمر فترة طويلة. إذ يعتمد علماء الأحياء في أبحاثهم عن السلوك والروابط الاجتماعية على دراسات طويلة الأجل لحيتان محددة، فيتم

تعريف الحيتان باستخدام الزعانف الذيلية ونماذج آثار الإصابات، وفي حالة الحيتان الصائبة الصلبة الجلد، يستخدمون الجلد القاسي الذي يجذب القشريات ويبقى متماسكاً طوال حياتها. ونظراً لإلغاء العمل بوحدات الحوت الازرق BWU. أخيراً، فإن حيتاناً جديدةً تنضم إلى قائمة الحيتانيات التاريخية والأسطورية. ويمكننا الآن أن نضيف إلى موبي ديك وتوم النيوزيلندي وجاك الخجول وجو المقاتل وجاسكونيوس، بعض الأسماء والشخصيات من القائمة الطويلة لأبحاث الحيتان مثل: فلاير، السيد بيرنز، الانعكاس Reflection، وستمبي (الذي قتلته سفينة مؤخراً)، وسورد Sword (أي السيف). (وقد اقترح أحد مؤرخي صيد الحيتان أنه يجب نزع لحم الشخص الذي أطلق على الحيتان هذه الأسماء).

يبدو في هذه الصورة أحد صيادي شعب الإنوبيات وهو يمد يده نحو حوت رمادي محاصر بالجليد بالقرب من شواطئ آلاسكا.








الصور التعريفية للزعانف الذيلية للحيتان الحدباء، التي تسمح للعلماء بتتبع حياة أفراد من الحيتان. وأسماؤها هي على الشكل التالي بدءاً من أعلى اليسار وفي اتجاه عقارب الساعة: وايد وايت آيز Wide White Eyes، تويلف ناينتي أيت Twelve Ninety- Eight، جيرترود Gertrude، وغارفنكل Garfunkel، وجيرترود هي والدة تويلف ناينتي إيت.

حاول المحافظون من خلال برامج (تبنّ حوتاً) أن يقوموا بتوسيع الانبهار بالحيتان إلى دعم مالي وسياسي للثدييات البحرية. فأعلن عن عرض تريلوبيت 147ب، وهو حوت أزرق في جزيرة سانت لورانس، للتبني على الإنترنت، وإيدن وهي أنثى حوت أحدب تتردد كثيراً إلى شاطئ أستراليا، ويمكن تبنيها مقابل 35 دولاراً، في حين أن ستاري نايت Starry Night هو حوت صائب بالغ من شمال المحيط الأطلسي، ويمكن تبنيه من خلال مؤسسة حفظ المجموعات المائية في نيوإنغلند.

وكما أوضح كيكو؛ نجم فيلم فري ويلي Free Willy، فالحيتان المنفردة تصنع أطفال إعلانات جيدين. لكن أغلب الحيتان يتم تعريفها ببساطة باستخدام أرقام ورموز، ولا داعي للقول إن هذا

لايجعلها أقل تميّزاً على الاطلاق. وفي عام 1935 ظهرت صورة حوت صائب في صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون، فبعد العثور على ثنائي من أم ورضيعها بالقرب من شواطئ برونسويك في ولاية جورجيا، أطلق طاقم صيد حربوناً على الرضيع وأطلقوا النار عليه ثم أطلقوا على الأم الهائجة، وبعد ست ساعات قُتل الصغير أخيراً. بينما بقيت الأم على قيد الحياة رغم إصابتها، وسبحت وحدها. وبعد نصف قرن، لفتت المقالة المنشورة في صيحفة تريبيون نظر فيليب هاملتون وسكوت كرواس في مؤسسة المحافظة على الأحياء البحرية في نيو إنغلند، وبمساعدة محقق خاص، تمكنا من تتبع الصورة الأصلية ومطابقتها مع الحوت رقم 1045، وهي أنثى بطول 50 قدماً، تمت رؤيتها حول كيب كود في ثمانينيات القرن العشرين. نجت أنثى الحوت 1045 من جروح الرصاص الذي أطلق عليها بعد أن فقدت رضيعها – الذي كان آخر حوت صائب يتم اصطياده بشكل قانوني في المياه الأميركية – على الرغم من أنها لم تُشاهد بصحبة رضيع مرة أخرى.

يمكن للباحث، شأن صياد الحيتان العجوز، أن يجد نفسه يشاهد الحيتان في كل مكان، بعد أن يمضي أياماً طويلة وهو يقوم بمطابقة صور مناطق الجلد الصلبة والزعانف الذيلية مع الفهارس المصورة الخاصة بالحيتان الحية.

وفي المناطق النائية المتعظمة والمضلعة من الأرض، حيث تجد عند قاعدة الجروف الشاهقة كتلاً من الصخور متناثرة في مجموعات رائعة فوق السهول، فغالباً ما ستكتشف خيالات للوثيان متحجر، غارق جزئياً في العشب، والذي يتكسر على الحجارة في يوم عاصف مثل موجة في إعصار أخضر... ثم ثانية في البلاد الجبلية... من وجهة نظر محظوظة، ستلمح ومضات من أشكال الحيتان على طول النتوءات المتماوجة، لكن يجب أن تكون صياد حيتان متمرساً لترى

هذه المناظر[cccl].

قد يتكتم الباحث على رؤيته لمثل هذه الأمور، إذ تأخذ أشباه الجزر على شاطئ ماين أشكال الحيتان الصائبة التي ترتفع من المحيط، ويصبح ارتفاع بسيط من الإسفلت ظهر حوت، ويمكن أن يكون جاسكونيس في أي مكان.

كانت دراسة طريقة التواصل والثقافة إحدى المجالات الجديدة الاضطرارية في علم الأحياء الخاص بالحيتان، فالحيتان ذات الأسنان مثل الدلافين وحيتان العنبر تُرسل أمواجاً صوتية لتتمكن من تحديد المواقع بالصدى، ولكن هذه الأصوات أيضاً تدل على وجود موروث ثقافي، فتحافظ مجموعات الحيتان القاتلة على لهجاتها الصوتية رغم تداخلها مع المجموعات الأخرى، وتبدو الدلافين، وكأنها تمتلك الميزات الأساسية للقواعد والتراكيب، وهي البنية الأساسية للغة البشرية [cccli].

كان هال وايتهيد، العالم المختص بالحيتان، يقوم بمراقبة حيتان العنبر منذ عام 1987، وتبدو المجموعات الأمومية، أو العشائر، التي تتجمع فيها هذه الأنواع كما لو أنها تمتلك لهجات وثقافات متمايزة، وبعض هذه العشائر غير ثابتة أو رحال، تسافر مسافات كبيرة في فترات قصيرة. وبعضها الآخر يبدو كما لو أنه مقيم، ويبقى في مكان واحد لعدة أيام. وسجل وايتهيد اختلافات الأصوات بين المجموعات: المجموعة أ (كليك – كليك – كليك – كليك – كليك)، والمجموعة ج (كليك – كليك – كليك – كليك – وقفة – كليك) والمجموعة ت (كليك – كليك – وقفة – كليك – كليك)، ليس هذا ميلفيل، ولكن هذه الرموز محفوظة عبر المحيط، وعلى امتداد الوقت. وكتب وايتهيد: (كل تصنيف هو ملك للمجموعة)[ccclii]. ولا يُلاحظ الميراث الثقافي في حيتان العنبر في نقراتها ووقفاتها فقط، وإنما أيضاً في التنوع المتعلق بأنماط البحث عن الطعام، والغطسات

المتزامنة، وحتى في معدلات التبرز، وبالنسبة لوايتهيد، فإن هوية العشيرة تشبه الجنسية لدى البشر:

إن كونك من سلوفانيا، (الانتساب إلى عشيرة) لا يعني كونك عضواً من مجموعة تتمتع بطرق فريدة في التواصل والتصرف وحسب، وإنما معرفة أنك واحد من تلك المجموعة كذلك، التي تختلف عن المجموعات الأخرى. وتبدو حيتان العنبر كما لو أنها تتعاطف مع أبناء عشيرتها، مثلما يفعل البشر في محيط متعدد الثقافات[ccliii].

قد تعرّف حيتان العنبر عن نفسها، إن كانت تفعل ذلك، من خلال شيء ليس فيها، فالعضوية في عشيرة مسيطرة يمكن أن تزيد من فرص النجاة والإنجاب.

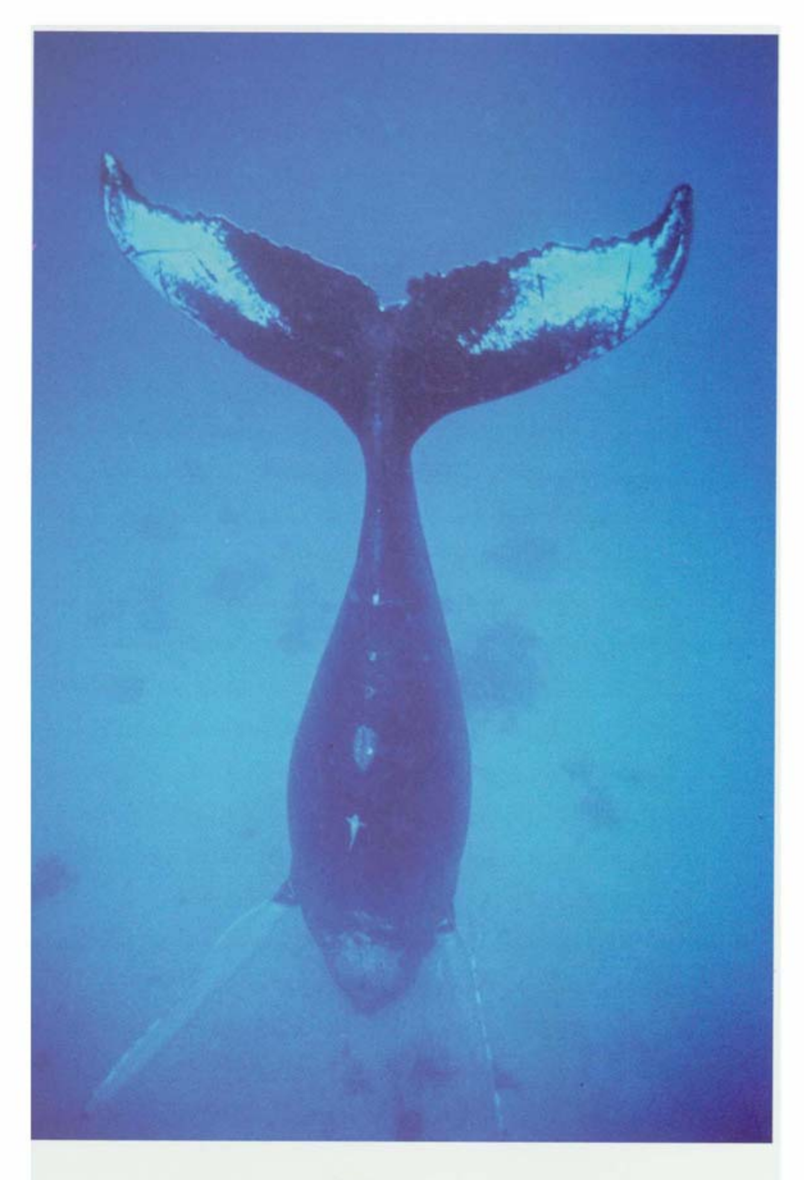
وتُظهر الحيتان الحدباء أيضاً أدلة على هذا التوارث الثقافي، ففي أي عام، تقوم الحيتان بغناء أغان متطابقة في هاواي والمكسيك، ضمن مناطق التزاوج التي تبتعد عن بعضها 4000 كيلومتر. كيف تتمكن من ذلك؟ ربما تسمع هذه الأغاني من البعيد أو لعلها تتعلمها خلال أشهر الصيف، عندما تتجمع المجموعات المختلفة لتتغذى. والأكثر إبهاراً من التناسق الجغرافي هو التغير في هذه النداءات بمرور الوقت، إذ تبدو تغييرات طفيفة في الأغنيات في كل عام، ولكن كما هي حال التطور، فيمكن لهذه التغييرات أن تصنع قفزات كبيرة في وقت قصير. وقد عثر عالم الأحياء الأسترالي ميك نواد على دليل على (الثورة الثقافية) في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية[cccliv]. وفي عام 1996، وصل اثنان من ذكور الحيتان الحدباء إلى المحيط الهادئ قادمين من المحيط الهندي وهما يحملان أغنية جديدة، وخلال سنتين قامت جميع الذكور في المحيط الهادئ بتغيير لحنها، والتقطت أغاني المهاجرين.

لماذا قامت بهذا التغيير؟ ربما بسبب تفضيل الجديد، على الرغم

من أن هذا الاتجاه يبدو متناقضاً مع الملاحظات التي تقول إن جميع الحيتان في منطقة معينة تُغني الأغنية نفسها في السنة المحددة. هل يمكن أن يكون هناك جمال ثقافي؟ فعلى الرغم من أن سبب هذا التغير الدرامي لا يزال غامضاً، فإن معرفتنا بأن ثقافات الحيتان تثابر وتتغير بمرور الوقت – وأن الثقافة ليست حكراً على البشر – فمن المحتمل أن يُحدث هذا انقلاباً في مفهومنا عن هذه الثدييات الزميلة.

ولكن مع ذلك، فقد تكون الحيتان، وكذلك فهمنا للنداءات الصادرة عنها، عرضة لتهديد جديد، فالمحيطات تصبح أكثر ضجيجاً بسبب همهمات وصيحات وسائل النقل البشرية حول العالم. وتأمل البحرية الأميركية الآن باستعمال سونار يتمتع بقدرة ديسبيل عالية وموجات متوسطة، للبحث عن الغواصات الغريبة في محيطات العالم، وقد لا تكون هذه الموجات الصوتية مميتة كالمتفجرات، ولكن الثدييات البحرية في خطر بسبب هذه الضوضاء، فالحيتان الحدباء تُغير أغانيها في وجود جهاز سونار نشط، وبعد اختبار أجري مؤخراً لهذه الإشارات، جنح أربعة عشر حوتاً من ذوات المناقير في جزر الكناري، وقد وُجدت فقاعات غازية في الأوعية الدموية لعشرة منها، وهو دليل على مرض بتأثير الضغط وهو ما يدعى بالالتواءات the bends. وقد تكون هذه الحيتان قد استجابت لهذه الضوضاء التي تصم الآذان بالصعود إلى السطح بسرعة كبيرة وتسبب السونار بتشويش حس الاتجاه لديها. ونظراً لأن أعراض الالتواءات هذه لم يتم العثور عليها من قبل في الحيتان التي تغطس عميقاً، فمن المحتمل أيضاً أن تكون الضوضاء قد سببت حدوث الفقاعات في مجرى الدم لدى الحيتان الضعيفة.

وفي خلال بحثنا لاكتشاف الذكاء لدى الحيتان، غالباً ما كنا



نبحث عن انعكاسات لذكائنا، وقد تم ذلك حرفياً تقريباً في حالة الدلافين. وعندما أصبح واضحاً أن الدلافين يمكنها أن تُميز أنفسها في المرآة، احتُفي بوعيها الذاتي على نطاق واسع.

ولكن هل نحب الحيتان فعلاً لأنها تشبهنا كثيراً؟ وماذا عن الخصال التي نعجب بها: كلطفها، وميولها الجنسية، وملكتها الموسيقية وحتى قدرتها على الثورة الثقافية. هل نحن شعراء نتلذذ بأشعارنا عندما نُطري على الحيتان، كما قال الفيلسوف جورج سانتايان؟

أم أننا بدأنا أخيراً نقدر التنوع الثقافي والحضاري للعالم الطبيعي؟

يبدو في هذه الصورة ذكر حوت أحدب وهو يغني، وتدل التنوعات في أغاني الحيتان على امتلاكها لثقافة يمكنها أن تتغير بمرور الوقت وتتنوع على امتداد المحيطات.

في برلين، قامت اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC عام 2003، بتوسيع وصايتها وأسست لجنة المحافظة Conservation Committee لا لحماية الحيتان الكبيرة وحسب، وإنما لحماية أقربائها الاصغر حجماً كذلك، كالدلافين وخنازير البحر. وعلى الرغم من الجدل الذي أثاره هذا الأمر – فقد صوتت عشرون دولة ضد هذه المبادرة – إلا أن هدف اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC قد توسع إلى ما وراء المصالح الغذائية والاقتصادية للبشر ليشمل الحفاظ على الحيتانيات. وشملت اللجنة جميع الحيتان ورحبت بذلك جميع الدول، بغض النظر إن كانت تنوي صيد الحيتان أم لا.

وتم إيجاد مناطق يُمنع فيها جميع أنواع الصيد حول العالم، ويقترح بعض علماء الأحياء أن جعل العالم ملاذاً آمناً للحيتان سيكون أمراً مناسباً، ويزيل الشكوك المتعلقة بإمكانية أن يكون الصيد التجاري للحيتان مستداماً على الإطلاق. وكتب سكوت بيكر: (لا تمتلك الممارسات الماضية الكثير لتنصح به)[ccclvi]. ويمكننا أن نرى في قررات منع صيد الحيتان، والقواعد التي تحكم مشاهدة الحيتان والمحميات البحرية في المحيطات أن هناك رغبة لاستعادة المحيطات

لماضيها الأسطوري إلى ما قبل عصر الحربون وقبل تأثير البشر عليها. وبالنسبة لبعضهم، فإن هذا الماضي يتضمن الصيد الذي يمارسه السكان الأصليون، الذي يعتمد على التقاليد والتضحيات والصلوات، وبالنسبة لبعضهم الآخر، فإن الاستهلاك المستدام عبارة عن استخدام مسؤول للموارد التي توفرها الحيتانيات، ويجادل قلة بشأن العودة إلى صيد الحيتان الصناعي.

ولكن ماذا عن الحيتان أنفسها؟ لقد أصبحت أعداد حيتان المينك وفيرةً مرةً أخرى؛ وعادت الحيتان الزرقاء إلى خليج ألاسكا بعد غياب طويل. وبقيت الحيتان الصائبة نادرة على امتداد النصف الشمالي للكرة الأرضية ولم تُظهر أي علامات على عودتها إلى ما كانت عليه، ومنحت الحيتان الرمادية الحماية الكاملة في غالبية مجالها. ويبدو أن الحيتان سعيدة بهذه الجهود، فبعد أن كانت الحيتان الرمادية تعرف بالسمكة الشيطانية بسبب إصرارها على حماية صغارها، أصبحت الأمهات وصغارها من الحيتان الرمادية تقترب الآن من قوارب صيد الحيتان التي غدت قوارب مشاهدة للحصول على جلسة خفيفة من التربيت من محبي الحيتان والسياح على حد سواء.

وفي محاولة لرؤية العالم من وجهة نظر الحيتان، قام العلماء بوضع لصاقات عليها، لتتبع غطساتها وأنماط هجرتها. وطلب كرمب من المغنين أن يرتدوا أقنعة، في محاولة لاستحضار أصوات الحيتان، وليقلل من معنى وجودهم البشري على منصة البحر الأزرق العميق. وتتخيل الشاعرة الأميركية إيلنور ويلنير في قصيدتها Reversing the Spell صلوات الحوت من أجل مستقبل يسيطر فيه البحر على الأرض:

سيكون يوماً رائعاً عندما تنسحب جميع السفن،

وتفشل رماح الحربون في أن تصيب هدفها، والأرض



صورة حوت صائب وهو
يرفع ذيله.

تندمج مع المياه، وعندها سيسبحون
بين رؤوس الجبال، مثل
صقور الأعماق، في حين تستقر بعيداً تحتهم
كوابيس الأرض
في الطمي بين المدن المهزومة، والسلال
الفارغة التي كان الأطفال يعومون عليها
مهجورة تغطيها الأعشاب البحرية حتى تعمل المياه
على كشفها في هيئة رفيعة كالقش
وحتى تتعفن هذه القشة
في الروضة الكوكبية التي صلت الحيتان من أجلها
وهي ترسل نوافير الماء نحو السماء
في قناعة تامة بأتها ستنسكب ثانية
في المحيط من خلال براعتها
في تكوين معجزة المطر: وكانت الأرض

فارغة وبدون هيئة، وكان الظلام
يغطي وجه الأعماق. وتجولت الروح فوق سطح الماء[ccclvi].

هذه هي الروح التي نبحث عنها عندما نسير على شاطئ معزول؛ منظر زعنفة ذيلية قاتمة اللون على سطح الماء، أو الرذاذ الباهت المالح لحوت يتنفس. وللحظة.. فقط للحظة، يُبطل هذا النفَس القادم من الأعماق أي جدال.

الجدول الزمني للحوت

حوالي 47 مليون سنة قبل الميلاد	حوالي 35 مليون سنة قبل الميلاد	حوالي 40.000 سنة قبل الميلاد	حوالي 2000 سنة قبل الميلاد
بدأت الحيتان الأولى البيلين في أواخر العصر اليوسيتي القادرة على العيش في الماء وعلى الأرض عودتها إلى البحر.	نهضت الحيتان ذات الأسنان وحيتان	يعود تاريخ الحربون الأول إلى هذا العصر، وقد تم تطويره لصيد فرس النهر في إفريقيا الشرقية.	نما صيد الحيتان بين حضارات بحر بيرنغ.

1620	1677	1819	حوالي العام 1825	1841
وصول سفينة مايفلاور إلى ماساشوستس، وسرعان ما يلعب صيد الحيتان دوراً هاماً في اقتصاد نيوانغلند.	طور الياباني يوريهارو وادا صيد الحيتان باستخدام الشباك.	تتعرض سفينة إيسكس لصيد الحيتان للتدمير ويتم إغراقها بفعل حوت عنبر؛ وتحيط قصة الحرمان وآكلي لحوم البشر الناتجة عن هذه الحادثة بالخيال المعاصر في ذلك الوقت حول أخطار صيد الحيتان.	ينمو فن الحفر على عظام الحيتان بين صيادي الحيتان الذين يعملون في المحيط الهادئتتويج الملكة إليزابيث.	انطلاق رحلات هيرمام ميلفيل على متن سفينة أكوشنيت نحو رأس كايب والمحيط الهادئ.

1931	1946	1955	1970	1974
قدم النرويجيون وحدة الحوت الأزرق BWU كمعيار للقياس	تم التوقيع على معاهدة دولية لتنظيم صيد الحيتان (ICRW) في واشنطن العاصمة، مما أدى إلى تأسيس اللجنة الدولية لصيد الحيتان (IWC) لتقوم بتنظيم الصيد والحفاظ على اعداد الحيتان	إطلاق أول رحلة تجارية لمشاهدة الحيتان في سان دييغو بولاية كاليفورنيا	نشرت تسجيلات كابيتال Capital Records 10 ملايين نسخة من البوم Songs of the Humpback Whale لروجر باين؛ وتم وضع جميع الحيتان التي يتم اصطيادها على قائمة الحيوانات المعرضة لخطر الانقراض في الولايات المتحدة	إيقاف العمل بوحدة الحوت الأزرق BWU كأداة للقياس

القرن الأول الميلادي	565-573	حوالي العام 1000	1596
عرض هيكل عظمي للحوت في روما	قام القديس بريندن برحلته الأسطورية إلى أرض الميعاد، والتي قيل إنه خلالها احتفل بعيد الفصح على ظهر الحوت الودود جاسكونيوس.	بدأ شعب الباسك بالصيد التجاري للحيتان الصائبة في خليج بسكاي.	اكتشف ويليام بارنتز أرخبيل سبيتسبيرغن، والأحاديث عن تواجد الحيتان المقوسة الرأس جذب شركة موسكوفي الانجليزية ومئات من سفن صيد الحيتان إلى المياه الشمالية.

1851	ستينات القرن التاسع عشر	حوالي 1909	1924	1930
أنهى ميلفيل رواية موبي ديك في بيركشير هيلز في ولاية ماساشوستس	حصل النرويجي سفن يوين والأمريكي توماس ويلكوم رويس على براءة اختراع الحربون المتفجر؛ وأحدث مدفع الحربون المتفجر الذي ابتكره فوين انقلاباً في صناعة صيد الحيتان وعرّض أنواعاً جديدة من الحيتان للاستغلال	بدا تحويل زيت الحوت إلى سمن المارغرين على المستوى الصناعي.	طورت النرويج سفينة معمل لصيد حيتان تتميز بمؤخرة قابلة للانزلاق	تم حماية الحيتان الصائبة من الصيد التجاري

1975	1982	1986	1994	2003
المواجهة بين ناشطي منظمة السلام الأخضر وصيادي الحيتان السوفييت في المحيط الهادئ الشمالي.	فرضت اللجنة الدولية لصيد الحيتان IWC قراراً بإيقاف جميع أنواع الصيد التجاري لابتكار نظام إدارة موارد جديد ولمنح أعداد الحيتان المستنزفة فرصة للتعافي	بدء العمل رسمياً بقرار إيقاف صيد الحيتان على مستوى العالم	إعلان المحيط الجنوبي محمية طبيعية للحيتان	أعلنت اللجنة الدولية لصيد الحيتان الحفاظ على الحيتان هدفاً أساسياً لها

مصائد الحيتان في جرينلاند

The Greenland Whale Fishery

هذه الأغنية هي أقدم أغنية صيد حيتان إنجليزية لا تزال موجودة، ويعود تاريخها إلى عام 1725 على الأقل. وكانت لا تزال رائجة بعد 100 عام من ظهورها، عندما تمت كتابتها على متن سفينة صيد الحيتان جافا:

لا يمكنني أن أتوقف على الشاطئ بعد الآن
لأني غارق في الديون
وعليَّ الذهاب في رحلة إلى جرينلاند
لأحصل على بعض النقود وأصبح من الشجعان

وجرينلاند الآن شاطئ بارد جداً
ولا يوجد فيه شيء إلا الصقيع والثلج
لكنه المكان المشابه لحيث يوجد أولادي
وعندما تنفخ سمكة الحوت على الشجعان

ويقف مساعد القبطان الرئيسي على الصاري الأمامي
وهو يحمل منظاراً في يده
ويصرخ هناك حوت، حوت، سمكة حوت
وهي تزفر في كل مرة على الشجعان

كان القبطان على سطح المركب خلف الصاري الرئيسي
وكم كان شخصاً جيداً
جهزوا مزالق القوارب، جهزوها

وانطلقوا بقواربكم إلى البحر أيها الشجعان

الآن أنزلت القوارب وحملت رجالها
وطاقم كل منها عاقد العزم
على أن يوجه ويبحر ويجدف ويصطف
في المكان الذي تزفر فيه سمكة الحوت على الشجعان

والآن بعد إصابة الحوت ووصول الحبل
يثير الرذاذ بذيله
وقلب المركب وفقدنا خمسة رجال
ونحن الشجعان لم نحصل على ذلك الحوت

وعندما وصلت الأنباء إلى القبطان
استدعى أفراد الطاقم جميعهم
وعلى خسارة أولئك الشجعان الخمسة
رسم بألوانه الرجال الشجعان

إن خسارة أولئك الشجعان الخمسة
جعلت قلبه يشعر بالحزن العميق
ولكن خسارة ذلك الحوت الصائب الجيد
جعلته يلعن رؤية المزيد من الشجعان

من كتاب أغاني صيد الحيتان الأميركية الكلاسيكية: Classic American Whaling Songs لستيوارت م. فرانك. (قيد الإنجاز).

قائمة المراجع

بولين، فرانك، The Cruise of the Cachalot Round the World after Sperm Whales، (لندن، 1902).

كاواردين، مارك، Dolphins and Porpoises، (لندن، 1995).

إيللز، ريتشارد، Men and Whales، (نيويورك، 1991).

هيس، بيل، The Gift of the Whale: The Iñupiat Bowhead Hunt، a Sacred Tradition (سياتل، واشنطن، 1999).

ماكنالي، روبرت، So Remorseless a Havoc: Of Dolphins, Whales and Men، (بوسطن، ماساشوستس، 1981)

ميلفيل، هيرمان، The Whale; أو ، Moby-Dick (لندن، 1851). [تتوفر الآن بنسخ تحتوي على النقد

باين، روجر، Songs of the Humpback Whale، (أطلقت لأول مرة في عام 1970، واوفر القرص المضغوط من www. livingmusic.com)

بيرين، ويليام ف. بيرند ورسيغ و ج. ج. م. ثيوسين، مدققو موسوعة الثدييات البحرية Encyclopedia of Marine Mammals (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002).

سكامون، تشارلز م. The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America، Together with an Account of the American Whale-Fishery (1874)، (نيويورك، 1968).

شيفير، فيكتور ب. The Year of the Whale، (نيويورك، 1969).

تونيسين، ج. ن. و أ. أو. جونسون، The History of Modern Whaling، ترجمة: ر. إي. كريستوفرسون (بيركلي، كاليفورنيا، 1982).

الجمعيات

جمعية الحيتانيات الأميركية
ص.ب: 1391، سان بيدرو،
كاليفورنيا 90733، الولايات المتحدة الأميركية
www.acsonline.org

منظمة السلام الأخضر الدولية
أوتو، شارع هيلدينغ 5، 1066 أ. ز
أمستردام، هولندا
www.greenpeace.org

الصندوق الدولي لصالح الحيوانات
ص.ب: 193، 411 شارع ماين
يارموث بورت، ماساشوستس، الولايات المتحدة الأميركية
www.ifaw.org

اللجنة الدولية لصيد الحيتان
المنزل الأحمر،
135، ستايشن رود، إيمبينغتون
كامبردج، cb4 9np، المملكة المتحدة
www.iwcoffice.org

متحف نيوبيدفورد لصيد الحيتان
18 جوني كايك هيل،
نيوبيدفورد، ماساشوستس 02740، الولايات المتحدة الأميركية

www.whalingmuseum.org

مؤسسة حيتان المحيط الهادئ

300 مالايا رود، الجناح 211،

وايلوكو، 96793، hi، الولايات المتحدة الأميركية

www.pacificwhale.org

جميعية الحفاظ على الحيتان والدلافين

ص.ب: 232، ميلكشام

ويلتشير sn12 7sb، المملكة المتحدة

www.wdcs.org

معهد وودز هول لعلوم البحار

وودز هول، ماساشوستس، 02543، الولايات المتحدة الاميركية.

www.whoi.edu

مواقع الإنترنت

العنبر، دليل المستكشف ومراجع مشروحة
Ambergris، a Pathfinder and Annotated Bibliography
دليل كامل حول التحجرات المعوية المشهورة الموجودة في حوت العنبر
www.netstrider.com/documents/ambergris

برنامج أبحاث الأصوات الصادرة عن الأعضاء الحية
Bioacoustics Research Program، جامعة كورنيل
أصوات الحيتان
birds.cornell.edu/brp/SoundsMaMamm.html

قبيلة الماكاه
يتضمن روابط مع صيد الحيتان التقليدي وصيد الحوت الرمادي في عام 1999.
www.makah.com

Plough Boy Journals of Lewis Monto ويتضمن وثائق عديدة عن صيد الحيتان في القرن التاسع عشر. وهو موقع استثنائي يحتوي على ملاحظات أعداد من مجلة مونتو، و Mocha Dick للكاتب نزج. رينولدز و Observations of Sperm Whales، لتوماس بيال من عام 1835 وغيرها الكثير.
www.du.edu/~ttyler/ploughboy

Whale Net ، موقع شبكة الحيتان
موقع تعليمي تفاعلي عن أبحاث الحيتان
whale.wheelock.edu

ويقدم موقع Whale-Watching Web مئات من الروابط التي تتضمن مواقع إلكترونية لشركات تنفذ رحلات مشاهدة الحيتان.
www.physics.Helsinki.fi/whale
المجلس العالمي لصيدي الحيتان World Council of Whalers
يحتوي على وصفات لطهي الحيتان من دول حول العالم
www.worldcouncilofwhalers.com

شكر وتقدير

قدم العديد من الأصدقاء والزملاء المهتمين بالحيتان والتاريخ الثقافي لصيد الحيتان مساهمات قيمة. أشكر سكوت باكر، وكلاوس بارثليموس، ود. غراهام بيرنيت الذين قدموا نقداً مفيداً لفصول المسودة، وأشكر محرر هذه السلسلة جوناثان بورت، والناشر مايكل ليمان لإحضاري إلى هذا المشروع. ولم أكن لأكتب هذا الكتاب دون مساعدة وتشجيع ديبورا جريجر والأبحاث المكثفة التي قدمتها لي.

وقدم مركز وايتلي إقامة ذات أهمية كبيرة لمدة ستة أسابيع في فرايدي هاربر بواشنطن. وفي ماساشوستس، كنت محظوظاً للغاية لإقامتي بالقرب من متحف نيوبيدفورد لصيد الحيتان ومؤسسة كيندال خلال تأليفي لهذا الكتاب. وكان ستيوارت فرانك مدير مؤسسة كيندال كريماً للغاية بمعرفته ومخطوطاته التي تتعلق بتاريخ الحيتان. وأنا أقدر له إجاباته الوافرة على أسئلتي العديدة. وأشكر كلاً من مايكل دوير ولورا بيريرا ومايكل لابيتيس وسوزان بوديت وهايتو ساكوراي الذين ساعدوني بشكل أساسي لإنهاء هذا الكتاب. وأحيي طاقم عمل مكتبة إرنيست ماير ومتحف علم الحيوان المقارن في هارفارد لمساعدتهم لي. وساعدني كل من بوب وولاكوت ومارك رايلي بالصور وقدم لي كلٌ من راندي ريفز وبوب براونيل وفيل كلابهام التفاصيل التاريخية والخاصة بعلم الأحياء.

وكانت النجمة المتألقة Eubalaena glacialis، حوت شمال الأطلسي الصائب والباحثين في متحف الأحياء البحرية في نيوبيدفورد (خاصة سكوت كروس وآمي نولتون وفيليب هاملتون وكريس سلاي وليزا كونغر ومارلين مارس) الذين ساعدوني على الذهاب في المسار الصحيح منذ أكثر من عقد من الزمان لقد كانت جولة متعبة. وأشكر لورا فاريل التي زودتني بالمساعدة في الصياغة

وبرؤيتها وعندما كنت أغرق بين صور سفن المعامل العائمة، كانت تطلب مني أن أخرج وأرى بعض الحيتان الحية.

التعريف بالصور

يرغب المؤلف والناشر بالتعبير عن شكرهم لمصادر المواد المصورة التالية و/أو سماحهم بإعادة إنتاجها:

متحف الصور الأميركي للتاريخ الطبيعي، نيويورك، الصفحات 29، 177؛ مجموعة المؤلف: الصفحات: 14، 74؛ صور هانز- جبورغ باندي: الصفحة: 33؛ مجموعة صور بارثليلميس لصيد الحيتان: الصفحات: 12، 18، 23، 42، 48، 52، 62، 173، 175 (رقم 939×، 176، 186، 189، 190؛ صورة بجون باسبيرغ: 142؛ المتحف البريطاني، لندن (صورة المتحف البريطاني): 50؛ صورة هاري بروير الأصغر: الصفحة: 196؛ صور الحديقة الوطنية في خليج جلاسيار والحفاظ على الاسكا: 201؛ صور بيل هيس: الصفحات 195، 200؛ جون كلاوسماير: 105؛ مكتبة الكونغرس، واشنطن العاصمة: الصفحات: 22 (قسم الصور والمطبوعات، lc-uszc4-10074)، 39 (مجموعة إدوارد س. كورتيز، القسم 103، 12328-b)، (قسم الصور والمطبوعات، 67681-lc-usz62)، 109 (مجموعة فرانك وفرانسيس كاربنتر، القسم 1-11453، رقم 395)، 128 (قسم الصور والمطبوعات، 129، lc-dig-ppmsc-06256) (صورة حرس السواحل من مجموعة صور مكتب المعلومات الحربية lc-usw33-029095-c)، 130 (صورة حرس السواحل من مجموعة صور مكتب المعلومات الحربية 137، lc-usw33- 029098-c) (مجموعة إدوارد س. كورتيز 67382-lc- usz62)، 140 (قسم الصور والمطبوعات 4618-lc-usz62)، 193 (قسم الصور والمطبوعات lc-usz62-107820)؛ متحف علم الحيوان المقارن، جامعة هارفارد كامبردج، ماساشوستس (مجموعات مكتبة إيرنست ماير): الصفحات 24، 37، 76، 100، 101؛ صور متحف نيوبيدفور لصيد الحيتان: الصفحات: 11

odhs-31)، 89، سجل التصاوير) pz-2756)، 58، 59، 67، 79، 84) 123، 118، 98 (الأسفل)، 125، 136، 144، 156، 185؛ صورة متحف نيوإنغلند الأحياء البحرية، بوسطن، ماساشوستس: 207؛ صورة مجموعة مكتبة نوح: 110؛ متحف بيبودي لسفينة إيسكس، سالم، ماساشوستس: الصفحات: 121، 174 (الأسفل)؛ صورة فيليب كولا للتصوير: الصفحة 6؛ صور شركة ريكس للإنتاج: الصفحات: 131 (جيرمي سوتون/هيربرت/السلام الأخضر، أفلام ريكس، 165، (379919bd (أفلام ريكس)، 191 (جيرمي سوتون/هيربرت/ السلام الأخضر، برعاية أفلام ريكس 379919g)؛ صورة الحديقة البحرية الوطنية التاريخية بسان فرانسيسكو: 141؛ فيكتوريا شنايدر وديفيد بيرس: 143؛ صورة عالم البحار: الصفحة: 181؛ صورة جون سمول: الصفحة 32؛ متحف جامعة ميتشغان للأحافير، آن أربور: الصفحة: 105؛ صورة ماسا أوشيودا/ SeaPics.com: الصفحة: 152؛ صورة جيمس د. وات/ Seapics.com: الصفحة 204، صورة تعاونية ويست بافين للأسكيمو: الصفحة: 184؛ صورة وايلسونغ للرحلات: الصفحة 178؛ صورة مجموعة روبرت وولكوت/ الصفحة: 187؛ صورة© جمعية لندن لعلم الحيوان: الصفحة 52.

هوامش

---

i كيفين كروسلي – هولاند، (الملاح) في كتاب The Oxford Book of the Sea تدقيق جوناثانان رابان، (اوكسفورد 1992).

ii تيم سيفيرين في كتاب (In Search of Moby-Dick)، لندن 1999، الصفحة 12.

iii المرجع السابق.

iv المرجع السابق، صفحة: 11

v كوميلا كاتلين كولتر، The "Great Fish" in Ancient Story', Transactions and Proceedings of the American Philological Association, 57, (1926)، الصفحات: 32-50.

vi ج.م.سي توينبي، Animals in Roman Life and Art، (ايثاكا، نيويورك، 1973)، الصفحات: 205-8.

vii جورج لويس بورجيه، 'The Kabbalah', in Seven Nights ترجمة: ايليوت واينبرغر، (نيويورك، 1984) الصفحة: 102.

viii كلاوس بارثيلميس، Stranded Whales in the Culture and Economy of Medieval and Early Modern Europe' ايسانا 27، (2003)، الصفحات: 5-10.

ix ادموند سبنسر، The Faerie Queene، 1590.

x ماثيو الثاني عشر، -39 41

xi بول هويت، 'Jonah's Whale', Johns Hopkins University Circulars حوت يونس، منشورات جامعة جونز هوبكنز، (1907)، الصفحات: 151-164.

xii المرجع السابق.

xiii ادموند جاردنر، His Journal and his Family، تدقيق جون بولارد، (نيو بيدفورد، ماساشوستس) 1958.

xiv ويليام. م. دايفيس، Nimrod of the Sea أو The American

Whaleman، (نورث كوينسي، ماساشوستس، 1972)، الصفحات: 5-351.

xv هويت، 'Jonah's Whale'

xvi ميتولوديوس الأولمبي، On the Resurrection حول القيامة (www.monachos.net/pascha/common/methodius_resurrection.shtml)

xvii ستيوارت إم. فرانك، 'Whaling Literature', in Encyclopedia of Maritime History (قيد الإنجاز).

xviii ريتشارد إيلز، Monsters of the Sea، (نيويورك/ 1994)، الصفحة: 192.

xix جيوفري آش، Land to the West: St Brendan's Voyage to America، (نيويورك 1965)، الصفحة 65.

xx روبرت فان دير وير، ترجمة Prayer of Saint Brendan', in Celtic Fire: An Anthology of Celtic Christian Literature، (لندن، 1990) الصفحة 30.

xxi كولتر، The "Great Fish" in Ancient Story.

xxii جون ميلتون، Paradise Lost،، الجزء السابع، 412-415.

xxiii جورج لويس بورجيه، The Book of Imaginary Beings،، ترجمه نورمان توماس دي جيوفاني، (نيويورك، 1978)، الصفحة: 96.

xxi ريتشارد هامر ترجمة 'The Whale'، في A Choice of Anglo-Saxon Verse، (لندن، 1970).

xxv روديارد كيبلنغ، Just So Stories for Little Children، لندن، 1902.

xxvi توماس هوبز، The Leviathan، (لندن، 1651)، المقدمة.

xxvii جورج أورويل، 'Inside the Whale، في كتابه Inside the Whale and Other Essay، (لندن، 1940).

xxviii توم ويتز، Starving in the Belly of a Whale', Blood Money، (لندن، 2002).

xxix بارثلميس، .'Stranded Whales' الصفحة: 59

xxx ستيوارت إم. فرانك، Herman Melville's Picture Gallery، (فارثهيفين، ماساشوستس، 1986)، الصفحة: 117

xxxi فرانك، 'Whaling Literature'.

xxxii اليزابيث انغليز، Whaling Prints in the Francis B. Lothrop Collection، (سالم، ماساشوستس، 1987)، الصفحة: 197.

xxxiii بورجيه، Book of Imaginary Beings، الصفحة: 33.

xxxiv راندال أر. ريفيز و تيم دي. سميث، A Taxonomy of World Whaling: Operations, Eras and Data Sources'، مركز علوم البحار والمصائد الشمالي الشرقي، رقم الوثيقة: 3-12 (2003).

xxxv كلاوس بارثيمليس، من 'Whaling and Sealing Worldwide'، في Whaling and Anti-Whaling Movement، طوكيو، (1999) الصفحات 5-16.

xxxvi المرجع السابق.

xxxvii جون جي. برنز، Arctic Marine Mammals، في موسوعة الثدييات البحرية، تدقيق: دبليو. اف. بيرين و بي. وورزينغ وجي. جي. إم ثيوسين، سان دييغو، كاليفورنيا، 2002، الصفحات: 36-45.

xxxviii أساتشاك، The Things That Were Said of Them: Shaman Stories and Oral Histories of the Tikigaq People، تدقيق: تي. لوينستين، (بيركلي، كالفورنيا، 1992) الصفحة: 9.

xxxix بواز، The Central Eskimo، (واشنطن العاصمة، 1888، واعيدت طباعته في عام 1964)، الصفحة 175.

xl كوند راسموسين، Across Arctic America، نيويورك، 1927، الصفحة: 195.

xli إم.أس. في دوغلاس، جي. بي. سمول، جي. إم سافيل، جي. إم. باليز، Prehistoric Inuit Whalers Affected Arctic Freshwater Ecosystems، إجراءات الاكاديمية الوطنية للعلوم، 2004، CI، الصفحات: 13-1716.

xlii هانز جورج-بادني، Eskimos as Whalers and Warriors', Hunt-ing the Largest Animals، (ادمنتون، ألبرتا) 1995، الصفحة: 165.

xliii جي. سي. اتش. كينغ، Artificial Curiosities from the North-west Coast of North America، (لندن، 1981)، الصفحة 91.

xliv Final Report of the Inuit Bowhead Knowledge Study، (نانوفوت، كندا)، 2000، الصفحات: 44-46

xlv جورج فانكوفر، A Voyage of Discovery to the North Pacific Ocean and Round the World 1791-95 (اندن 1984).

xlvi ستيفاني باين، The World of the Arctic Whales: Belugas, Bowheads and Narwhals، (سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، 1995) الصفحة: 78

xlvii جيمس. أ. فورد، Eskimo Prehistory in the Vicinity of Point Barrow, Alaska', Anthropological Papers of the American Museum of Natural History. 47. (1959). صفحة: 151.

xlviii ادوارد ويليام نلسون، The Eskimo of Bering Strait، (واشنطن العاصمة، 1983) الصفحات: 45-9.

xlix جوزيف لوبيشر، The Baidarka as a Living Vessel', Occasion-al Papers of the Baidarka Historical Society، المجلد الأول، 1998.

l سام دبليو. ستوكر وأيغور إي. كروبنيك، 'Subsistence Whaling', in The Bowhead Whale، تدقيق: ج.ج بورنز و ج.ج مونتاغو و سي.ج كوليز (لورانس، كنساس، 1993)، الصفحات 579-629.

li انظر: www.peabody.harvard.edu/Lewis_and_Clark/hat.html

lii مارغريت لينتس، The Alaskan Whale Cult and its Affinities، عالمة إنسان أميركية، 40، (1938)، الصفحات: 438-64)

liii المرجع السابق.

liv تي. تي. ووترمان، The Whaling Equipment of the Makah Indians، (سياتل، واشنطن، 1920)، الصفحة: 38.

lv فيليب دروكر، The Indians of the Northwest Coast، نيويورك، 1955، الصفحات: 45-9.

lvi المرجع السابق.

lvii لانتيس، Alaskan Whale Cult، الصفحة: 452.

lviii إدوارد إس. كورتيز، The North American Indian، المجلد: 11، (نوروود، كونيكتيكت)، الصفحة: 37، إضافات من قبل ديبورا جريجر.

lix إيفان فينيامينوف، Notes on the Islands of the Unalaska District، ترجمة: بي. كين وآسيا كاردينلوسكي، (سانت بطرسبورغ، 1840)، الصفحات: 34-130

lx كورتيز، The North American Indian، المجلد: 11، الصفحة:23، إضافات من قبل ديبورا جريجر

lxi فينسون براون، Peoples of the Sea Wind: The Native Americans of the Pacific Coast، (نيويورك، 1977)، الصفحة: 14.

lxii ستوكر و كروبنيك، Subsistence Whaling.

lxiii لانتيس، Alaskan Whale Cult، الصفحة: 446.

lxiv ادوارد إس. كورتيز، The North American Indian، المجلد 20، (كامبردج، 1930)، الصفحة: 141.

lxv مارجرت لينتيس، Alaskan Eskimo Ceremonialism ، (نيويورك، 1947)، الصفحة: 50.

lxvi ريتشارد ايللز، The Book of Whales، (نيويورك، 1980)، الصفحة 44.

lxvii هيرمان ميلفيل، Moby-Dick، (نيويورك، 1851)، الفصل الثالث.

lxviii بول إتش. فوريسيل، 'Popular Culture and Literature'، في Encyclopædia of Marine Mammal، تحقيق: دبليو. إف. بيرين و بي. ورسنغ و جي. جي. إم. ثيوسين، (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)،

الصفحات 957-74.

lxix روبرت دي. كيني، North Atlantic, North Pacific and South- ern Right Whales'، في Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 806-13

lxx المرجع السابق.

lxxi فوريستل، Popular Culture and Literature'، الصفحة: 958.

lxxii مارك كورانسلكي، Salt، (نيويورك، 2002)، الصفحة: 111.

lxxiii ريتشارد إيللز، Whaling, Traditional' في Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 1316-27

lxxiv أو شينيل، Medieval Scandinavian Laws as Sources for the History of Whaling' في Whaling and History: Perspectives on the Evolution of the Industry، تحقيق: بيجون. ل. باسبيرغ وجان ايريك رينغستاد، وايرنير ويكلسون، (ساندوفجورد، 1993)، الصفحات: 11-15.

lxxv المرجع السابق.

lxxvi متحف التاريخ الطبيعي، لندن، http://www.nhm.ac.uk/zoology/stranding/history.html.

lxxvii إيمير ثولسيون، ترجمة في The Whale، (نيويورك، 1969)، الصفحة: 19.

lxxviii إي. دي. ميتشل و ر.ر. ريفيز و أ. إيفيلي، Bibliography of Whale Killing Techniques، (كامبردج، 1986)، الصفحة: 56.

lxxix ريتشارد إيللز/ Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحة: 51.

lxxx إيللز، Book of Whales، الصفحة: 45.

lxxxi ويليام دوغلاتس، 1725، المذكور في كتاب أ.جي. ألن، The North Atlantic Right Whale and its Near Allies، منشورات متحف التاريخ الطبيعي الأميركي، المجلد 24، (1908)، الصفحة: 285.

lxxxii جيث برويجن، The Rise and Decline of Dutch Whaling in

the 17th and 18th Centuries، في الملتقى السنوي الثامن والعشرين لصيد الحيتان: نيوبيدفورد، ماساشوستس، 2003، غير منشور.

lxxxiii المرجع السابق.

lxxxiv ستيوارت إم. فرانك، 'Whaling Literature'، في Encyclopedia of Maritime History (قيد الانجاز)

lxxxv ورد في كتاب تشارلز إم. ساكمون، The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America, Together with an Account of the American Whale Fishery (1874)، (نيويورك: 1968)، الصفحة: 195

lxxxvi المرجع السابق، الصفحة: 193

lxxxvii ألن، 'North Atlantic Right Whale'، الصفحة: 285.

lxxxviii إيللز، Men and Whales، الصفحة: 218.

lxxxix جون أ. كوك وسامسون س. بيدرسون، (بوسطن، ماساشوستس، 1937)، الصفحة/ 37.

xc ايللز، Men and Whales، الصفحة: 82.

xci فرانك، 'Whaling Literature'

xcii اليزابيث انغاليز، Whaling Prints in the Francis B. Lothrop Collection، (سالم، ماساشوستس، 1987)، الصفحة: 192.

xciii المرجع السابق، الصفحة: 9.

xciv هيرمان ميلفيل، Moby-Dick، (نيويورك، 1851)، الفصل: 24

xcv إدوارد أ. ستاكبول، The Sea Hunters: The New England Whalemen during Two Centuries, 1635–1835، (فيلادلفيا، بنسلفانيا، 1953)، الصفحة: 122.

xcvi ستيفن كاتونا وهال وايتهيد، 'Are Cetacea Ecologically Important? Oceanography and Marine Biology Annual Review, 26, (1988)، الصفحات: 553-68.

xcvii ريتشارد ماذر، Journal of Richard Mather، (بوسطن، ماساشوستس، 1850).

xcviii كوتون ماذر، The Thankful Christian، (بوسطن ماساشوستس، 1717).

xcix المرجع السابق.

c ج. إي. راتاري، East Hampton History Including Genealogies of Early Families، (نيويورك، 1953)، الصفحة: 78.

ci راندال ر. ريفز و إدوارد ميتشل، The Long Island, New York, Right Whale Fishery, 1650–1924', Report of the International Whaling Commission. 10 (1986)، الصفحات: 201-20.

cii راتاري، East Hampton History.

ciii ج. جاكسون، The British Whaling Trade، (لندن، 1978)، الصفحة: 78.

civ راندال ر. ريفز وتيم د. سميث، 'A Taxonomy of World Whaling: Operations, Eras and Data Sources'، مركز علوم البحار والمصائد للشمال الشرقي، رقم وثيقة المرجع 03-12 (2003)، الصفحات: 23-28.

cv ستاكبول، Sea Hunters، الصفحة: 20.

cvi المرجع السابق، الصفحة: 151.

cvii ناثانيال فيلبريك، In the Heart of the Sea: The Tragedy of the Whaleship 'Essex'، (نيويورك، 2000)، الصفحة: 13.

cviii ميليفيل، موبي ديك، الفصل 14.

cix مذكور في كتاب تشارلز م. سكامون، The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America, Together with an Account of the American Whale Fishery (1874)، (نيويورك، 1968)، الصفحة: 203.

cx مذكور في كتاب ستاكبول، Sea Hunters، الصفحة: 30.

cxi اليزابيث هاردويك، Herman Melville، (نيويورك، 2000)، الصفحة: 2.

cxii اينوك كارتر كلود، Enoch's Voyage: Life on a Whaleship, 1851–1854، (ويكفيلد، رودآيلند، 1994)، الصفحة: 27.

cxiii فيلبريك، In the Heart of the Sea، الصفحة: 256.

cxiv ريتشارد إيللز، 'Whaling, Early and Aboriginal'، في Encyclopædia of MarineMammals، تحقيق دبليو. ف. بيرين، و بي. ورسيغ، و ج.ج. م. ثيوسين (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)، الصفحة: 1322.

cxv فرانك ت. بولين، The Cruise of the Cachalot Round the World after Sperm Whales، (اندن، 1902)، الصفحة: 9.

cxvi إيللز، 'Whaling, Early and Aboriginal'، الصفحة: 1322.

cxvii ريتشارد إيللز، Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحات: 2-171

cxviii دين سي. رايت، The Commonplace Book of Dean C. Wright, Boatsteerer, Ship Benjamin Rush of Warren, Rhode Island, 1841–45'»، في Meditations from Steerage: Two Whaling Journal Fragments، تحقيق ستيوارت م. فرانك (شارون، ماساشوستس، 1991)، الصفحة: 11.

cxix جوانا سي. كولكورد، Songs of American Sailormen، (نيويورك، 1938).

cxx بولين، Cruise of the Cachalot، الصفحات: 16، 20.

cxxi نيلسون كول هالي، Whale Hunt: The Narrative of a Voyage، (نيويورك، 1948)، الصفحة: 14.

cxxii اليزابيث انجليز، Whaling Prints in the Francis B. Lothrop Collection، (سالم، ماساشوستس، 1987)، الصفحة: 140.

cxxiii أوين تشايس، Narrative of the Most Extraordinary and Distressing Shipwreck of the Whale-Ship Essex of Nantucket Which Was Attacked and Finally Destroyed by a Large Spermaceti-whale in the Pacific Ocean' في Narratives of the

Wreck of the Whale-Ship Essex، (اعيدت طباعتها في نيويورك، 1989).

cxxiv جورج بولارد، 'Narrative of the Loss of the Whale-Ship Essex' في Narratives of the Wreck of the Whale-Ship Essex، الصفحة: 86.

cxxv تشايس، 'Narrative of the Most Extraordinary and Distressing Shipwreck'، الصفحات: 50-51.

cxxvi المرجع السابق، الصفحة: 65.

cxxvii تشالرز أوسلون، Call Me Ishmael، (سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، 1947)، الصفحة: 7

cxxviii ج. ن. رينولدز، Mocha Dick; أو The White Whale of the Pacific (نيويورك، 1932).

cxxix رايت، 'Commonplace Book'، الصفحة: 11

cxxx توماس بالي، The Natural History of the Sperm Whale (1835)، (لندن، 1973)، الصفحة: 166.

cxxxi بولين، Cruise of the Cachalot، الصفحة: 287.

cxxxii ستيوارت م. فرانك، 'Classic American Whaling Songs'، (قيد الاعداد).

cxxxiii كلود، Enoch's Voyage.

cxxxiv Mystic Seaport, recording aboard Charles W. Morgan

cxxxv روبرت ماكنالي، So Remorseless a Havoc: Of Dolphins, Whales and Men، (بوسطن، ماساشوستس، 1981)، الصفحة: 94.

cxxxvi بولين، Cruise of the Cachalot، الصفحة: 338.

cxxxvii ميلفيل، موبي ديك، الفصل 67.

cxxxviii إيللز، 'Whaling, Early and Aboriginal'، الصفحة: 1325 بولين، Cruise of the Cachalot، الفصل الثالث.

cxxxix بولين، Cruise of the Cachalot، الفصل الثالث

cxl كلود، Enoch's Voyage، الصفحات: 10-109

cxli سجل دانييل لينكولن، مجموعة كيندال لصيد الحيتان، الصفحة: 301.

cxlii جوان دروت، In the Wake of Madness،، (تشابيل هيل، نورث كارولينا، 2003)، الصفحة: 189.

cxliii ن. كوشينغ، مجموعة كيندال لصيد الحيتان، 1860.

cxliv تشارلز ويكز، مجموعة كيندال لصيد الحيتان، 1830

cxlv درويت، In the Wake of Madness، الصفحة: 228.

cxlvi ايمي إي. نيويل، 'Fashions at Sea, Fashions at Home', Piece-work، (آذار – نيسان 2003)، الصفحات: 54-7

cxlvii الكسندر ستارباك، History of the American Whale Fishery from its Very Inception to the Year 1876، (نيويورك، 1964).

cxlviii إيميلي ديكنسون، Selected Poetry of Emily Dickinson، (نيويورك، 1997) الصفحة: 15.

cxlix هارولد بيفير، 'Introduction', Moby-Dick، إصدار Penguin (نيويورك، 1997)، الصفحات: 54-7

cl هيرمان ميلفيل، 'To Richard Henry Dana Jr,' in Moby-Dick، تحقيق: هيرشيل باركر وهاريسون هايفورد (نيويورك، 2002)، الصفحات 532-2

cli تيم سيرفيرين، In Search of Moby-Dick، (لندن، 1999)، الصفحة: 15

clii ويليام جلين، 'A Theory of Moby-Dick'، مجلة نيوانغلند الفصلية، العدد الثاني، (أيار 1929)، الصفحات 402-19

cliii ايرنست إي. ليزي، 'Fatalism in Moby-Dick'، في: Moby-Dick: Centennial Essays، تحقيق: تايروس هيلواي (دالاس، تكساس، 1953)، الصفحة: 77.

cliv ليونارد أ. سلاد الأصغر Symbolism in Herman Melville's Mo-

by-Dick: From the Satanic to the Divine، (نيويورك، 1998)، الصفحات 1 25-.

clv ت. جي. جاكسون ليرز، 'Reconstructing Nature: The Rise and Fall and Rise of the American Sublime, 1820–1920'، في Sargent: The Late Landscapes، تحقيق : إتش. ت. جولدفارب، و إي. إي هيرشلير و ت. جي. جي ليرز (بوسطن، ماساشوستس، 1999)، الصفحات 3-33.

clvi سيفيرين، In Search of Moby-Dick، الصفحة: 15 ميلفيل، موبي ديك، الفصل 26.

clvii ميلفيل، موبي ديك، الفصل 26.

clviii المرجع السابق، الفصل 27.

clix روبرتو كالاسو، The Ruin of Kasch، (كامبريدج، ماساشوستس، 1994)، الصفحات: 208-9

clx ميفيل، موبي ديك، الفصل 24.

clxi جوان بريوستر، ، 'She Was a Sister Sailor': The Whaling Journals of Mary Brewster, 1845–185(ميستيك سيبورت، 1992) الصفحات: 89-90.

clxii ستيوارت م. فرانك، '"Cheer'ly Man": Chanteying in Omoo and Moby-Dick'، مجلة نيو انفلند الفصلية، العدد 18 (أيار 1985)، الصفحات: 68-82، روبرت كوشمان موريف، Logbook for Grace، (نيويورك، 1974)، الصفحة: 342.

clxiii روبرت كوشمان موريف، Logbook for Grace، (نيويورك، 1974)، الصفحة: 342.

clxiv كلود، Enoch's Voyage، الصفحة 95.

clxv فرانك، 'Classic American Whaling Songs'. .

clxvi دين، سي. رايت، مجموعة كندال لصيد الحيتان

clxvii ميلفيل، موبي ديك، الفصل 57.

clxviii ميتشيل ماكمانوس، Treasury of American Scrimshaw: A Col-

lection of the Useful and Decorative، (نيويورك، 1997)، الصفحة: 39.

clxix رالف والدو ايمرسون، Boston', in The Complete Works of Ralph Waldo Emerson، (بوسطن، ماساشوستس، 1903-4)، المجلد الثاني عشر، الصفحة 186.

clxx ميلفيل، موبي ديك، الفصل السادس.

clxxi المرجع السابق.

clxxii ناثانيال هاوثورن، The Village Uncle', in Twice-Told Tales، (نيويورك، 1851)،

clxxiii جورج فرانسيس داو، Whale Ships and Whaling: A Pictorial History of Whaling during Three Centuries with an Account of the Whale Fishery in Colonial New England، (سالم، ماساشوستس 1925)، الصفحة التاسعة.

clxxiv أرسطو، Historia animalium، ترجمة أ. ل. بيك (كامبردج، ماساشوستس، 1965)، الصفحة: 75

clxxv جون ستيوارت ميل، System of Logic (1843)، ورد في كتاب هارييت ريتفو، The Platypus and the Mermaid and Other Figments of the Classifying Imagination، (كامبردج، ماساشوستس، 1997)، الصفحة: 49.

clxxvi هيرمان ميلفيل، موبي ديك، (نيويورك، 1851)، الفصل 32.

clxxvii تشارلز فرانسيس هال، Arctic Researches and Life among the Esquimaux، (نيويورك، 1865)، الصفحة: 34.

clxxviii تشارلز م. سكامون، The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America, Together with an Account of the American Whale Fishery (1874)، (نيويورك، 1968)، الصفحة: 248.

clxxix المرجع السابق، الصفحة: 251.

clxxx جون جاتسي و مورين أ. أوليري، 'Deciphering Whale Origins

with Molecules and Fossils', Trends in Ecology and Evolution, 16, (2001)، الصفحات: 562-70

clxxxi المرجع السابق.

clxxxii د.ر. كارير، وس.م. دوبان و ج. أتيرستروم، 'The Face That Sank the Essex: Potential Function of the Spermaceti Organ in Aggression', Journal of Experimental Biology, (2002)، الصفحات: 1755-63.

clxxxii ميلفيل، موبي ديك، الفصل 75.

clxxxiv مارك كاوردين، Whales, Dolphins and Porpoises (لندن، 1995)، الصفحة: 55.

clxxxv سارة ج. ايفرسون، Whales, Dolphins and Porpoises، تحقيق/ دبليو. ف. بيرين، ب. ورسيغ و ج.ج. م.ثيويسين (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)، الصفحات/ 107-12.

clxxxvi المرجع السابق

clxxxvii جيمس ل. سويمش، 'Blowing', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 105-7.

clxxxviii اكيتو كاواموراً، 'Plankton', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 939-42.

clxxxix بول دودلي، 'An Essay upon the Natural History of Whales, with Particular Account of the Ambergris Found in the Sperma CetiWhale', Philosophical Transactions of the Royal Society of London, 33, (1725)، الصفحات: 256-9.

cxi فرانك ت. بولين، The Cruise of the Cachalot Round the World after Sperm Whales، (لندن، 1902)، الصفحات: 142-4.

cxci ستيفن مارتن، The Whale's Journey، (كرو نيست استراليا، 2001)، الصفحة: 209.

cxcii اي. أ. ويلسون المذكور في كتاب م. ل. ويلفيلد، 'Threatened Mammals Affected by Human Exploitation of the Female-Off-

spring Bond', Conservation Biology,2. (1988)، الصفحات: 74-260.

cxciii كاثرين رالس وسارة ل. ميسنيك، 'Sexual Dimorphism', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 1071-8.

cxciv ميلفيل، موبي ديك، الفصل 88.

cxcv هال وايتهيد، Sperm Whales: Social Evolution in the Ocean، (شيكاغو، 2003).

cxcvi ريتشاردس. كونور، 'Ecology of Group Living and Social Behaviour', in Marine Mammal Biology: An Evolutionary Approach،، تحقيق: أ. روس هولزيل (أوكسفورد، 2002)، الصفحة: 364.

cxcvii جوان ماكانتير، Mind in the Waters: A Book to Celebrate the Consciousness of Whales and Dolphins، (نيويورك، 1986)، الصفحة/ 193.

cxcviii جويم رونديليه، ورد وترجم في كتاب جاكوب كوستيه، Whales، (نيويورك، 1986)، الصفحة/ 193.

cxcix سوميش، 'Blowing'، الصفحات/ 105-7.

cc فيلجامور ستيفانسون، Writing on Ice: The Ethnographic Notebooks of Vilhjalmur Stefansson، (هانوفر، نيوهامبشير، 2001)، الصفحة: 277.

cci هيرمان ميلفيل، موبي ديك، (نيويورك، 1851)، الفصل 42 و 119.

ccii المرجع السابق، الفصل 68.

cciii سارة ج. أيفرسون، 'Blubber', in Encyclopedia of Marine Mammals، تحقيق: دبليو. ف. بيرين وب. ورسيغ وج.ج.م. ثيوسين (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)، الصفحات: 107-12.

cciv ريتشارد م. لوز. 'Review of Encyclopedia of Marine Mammals', Marine Mammal Science. 19. (2003)، الصفحات:

.606-599

ccv هال وايتهيد، Sperm Whale,' in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 1165-72.

ccvi نيلسون كول هالي، Whale Hunt: The Narrative of a Voyage (نيويورك، 1948) الصفحات: 256.

ccvii أ.ج. شولت، 'Altar Candles', in The Catholic Encyclopædia، المجلد الأول (نيويورك، 1907).

ccviii ريتشارد إليز، Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحات: 345-6.

ccix أمبروسي باري، On Monsters and Marvels، ترجمة: جانيس ل. باليستير، (شيكاغو، 1982)، الصفحة: 131.

ccx بول دودلي، An Essay upon the Natural History of Whales, with Particular Account of the Ambergris Found in the Sperma CetiWhale', Philosophical Transactions of the Royal Society of London. 33. (1725)، الصفحات: 256-9.

ccxi دالي دبليو. رايس، 'Baleen', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 61-2.

ccxii إلليز، Men and Whales، الصفحة: 134.

ccxiii رايس، Baleen'

ccxiv هارييت بيتشر ستو، Uncle Tom's Cabin; or, Life Among the Lowly. 1852)، الفصل: 36.

ccxv American Heritage Dictionary قاموس التراث الأميركي، الطبعة الثالثة (بوسطن، ماساشوستس، 1996)، الصفحة: 2030.

ccxvi Oxford English Dictionary قاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية، الطبعة الجديدة (أوكسفورد، 1998)، الصفحة: 2298.

ccxvii آندرو دالبي، Dangerous Tastes: The Story of Spices، بيركلي، كاليفورنيا، 2000)، الصفحة: 67.

ccxviii المرجع السابق.

ccxix دالي دبليو. رايس، 'Ambergris', in Encyclopedia of Marine Mammals.

ccxx المرجع السابق.

ccxxi المرجع السابق.

ccxxii كريستوفر آش، Whaler's Eye، (نيويورك، 1962)، الصفحة: 68.

ccxxiii توماس دبليو. رويز، مجموعة كيندال لصيد الحيتان، 1860.

ccxxiv أليستير هاردي، Great Waters: A Voyage of Natural History to Study Whales, Plankton and the Waters of the Southern Ocean، (لندن، 1967)، الصفحة: 31.

ccxxv روبرت هيندريكسون، The Ocean Almanac، (نيويورك، 1978)، الصفحة 87.

ccxxvi س. سكوت باركر وفيليب ج. كلابهام، Marine Mammal Exploitation: Whales and Whaling', in Encyclopædia of Global Environmental Change، تحقيق: إيان دوغلاس (تشيتشستر، 2002)، الصفحات: 446-50.

ccxxvii ورد في كتاب فيليب ج. كلابهام وس. سكوت باركر، 'Modern Whaling', in Encyclopedia of Marine Mammals، تحقيق: دبليو. ف. بيرينغ، وب. ورسيغ، وج.م. ثيوسين (سان دييغو، كاليفورنتيا، 2002). الصفحات: 1328-32.

ccxxviii المرجع السابق.

ccxxix بول إتس. فورستيل، Popular Culture and Literature', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحة: 959.

ccxxx ج. ن. تونيسين و أ. أو. جوهانسون، The History of Modern Whaling، ترجمة ر.إي. كريستوفيرسن (بيركلي، كاليفورينا، 1982)، الصفحة: 268.

ccxxxi المرجع السابق، الصفحة: 313.

ccxxxii المرجع السابق، الصفحة: 228.

ccxxxiii فارلي موات، Sea of Slaughter، (شيلبورن، فيرمونت، 1984)، الصفحة 270.

ccxxxiv بول هويت، Jonah's Whale، منشورات جامعة جونز هوركينز (1907)، الصفحة: 157.

ccxxxv موات، Sea of Slaught، الصفحة: 258.

ccxxxvi فارلي موات، A Whale for the Killing، (نيويورك، 1972)، الصفحة: 151.

ccxxxvii مورد في كتاب موات، الصفحة 250.

ccxxxviii موات، A Whale for the Killing، الصفحات: 54 59-.

ccxxxix غريغوري ب. دونافان، -Whaling Commission', in Encyclo pedia of Marine Mammals, International، الصفحات: 637-41.

ccxl فوريستل، 'Popular Culture and Literature'، الصفحة: 959.

ccxli ريتشارد إيللز، Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحة: 365

ccxlii دونافان، International Whaling Commission'، الصفحة: 638.

ccxliii روبرتو جلاسو، The Ruin of Kasch، (كامبردج، ماساشوستس، 1994)، الصفحة: 140.

ccxliv دورثي هارلي إيبر، When the Whalers Were Up North: Inuit Memories from the Eastern Arctic، (كينفستون، أونتاريو، 1989).

ccxlv نانسي واشويتش، Saqiyuq: Stories from the Lives of Three Inuit Women، (مونتريال، 1999) الصفحة: 269.

ccxlvi ورد في كتاب هارولد سيدلمان وجيمس تيرنر، -The Inuit Imagina tion، (نيويورك، 1994)، الصفحة 145.

ccxlvii توماس. ف. جوهانسون، Study، (أوتاوا، 1976)، الصفحة 75.

ccxlviii دبليو. جيليز روس، -Whaling and Eskimos: Hudson Bay. 1860

1915 (أوتاوا، 1975).

ccxlix بيتر بيتيولاك ودورثي إيبر، People from Our Side، (بلومينغتون، IN، 1975). الصفحة: 38.

ccl ورد في كتاب سيدلمان وتيرنر، Inuit Imagination، الصفحة: 145.

ccli المرجع السابق.

cclii مذكور في كتاب جاك كوستو، Whales، (نيويورك، 1986)، الصفحة: 13.

ccliii مذكور في كتاب ريتشار إيللز، Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحة: 223.

ccliv ف. د. أوماني، Lost Leviathan، (لندن، 1971).

cclv جون ر. باكستوس و جون ج. بيرنز، 'Commercial Whaling in the North Pacific Sector', in The Bowhead Whale، تحقيق: ج.ج. بيرنز وج. ج. مونتاج و سي. ج. كولز (لورانس، كنساس، 1993)، الصفحات: 563-77.

cclvi كاج بيركيت سميث، The Eskimos، (لندن، 1959)، الصفحة: 100.

cclvii سام. دبليو ستوكر وإيفور أي. كروبنيك، 'Subsistence Whaling', in The Bowhead Whale، الصفحة 591.

cclviii أ. م. سبرينفر، 'Sequential Megafaunal Collapse in the North Pacific Ocean: An Ongoing Legacy of Industrial Whaling?', Proceedings of the National Academy of Science, (2003) ,c/21، الصفحات: 12و 223-8.

cclix سي. سكوت باكر وفيليب ج. كلابهام، 'Marine Mammal Exploitation: Whales and Whaling', in Encyclopædia of Global Environmental Change, ed. Ian Douglas، (تشيشيستر، 2002)، الصفحات: 446-50.

cclx المرجع السابق.

cclxi بول بودكر، Whales and Whaling، (لندن، 1958)، الصفحة:

.14

cclxii فيكتوريا سشنايدر وديفيد بيرس، What Saved the Whales? An' Economic Analysis of 20th Century Whaling', Biodiversity and Conservation., 13, (2004)، الصفحات: 543-62.

cclxiii أليكس أغولير، 'Fin Whale', in Encyclopedia of Marine Mammals،، الصفحات: 435-8.

cclxvi إيللز، Men and Whales، الصفحة 432.

cclxv المرجع السابق، الصفحة، 433.

cclxvi أليستر هاردي، Great Waters: A Voyage of Natural History to Study Whales, Plankton and the Waters of the Southern Ocean، (لندن، 1967)، الصفحة: 36.

cclxvii إدوارد ميتشيل، 'Aspects of Pre-World War ii German Electrical Whaling'،، تقرير اللجنة الدولية بصيد الحيتان، العدد الخاص: 7، (1986)، الصفحات: 115-39.

cclxviii المرجع السابق.

cclxix بول إتش. فوريستيل، 'Popular Culture and Literature', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحة: 961.

cclxx باكر وكلابهام، 'Modern Whaling'، الصفحة: 1330.

cclxxi المرجع السابق

cclxxii المرجع السابق، الصفحة: 1331.

cclxxiii ج. ن. توسيسين و أ. أو. حونسون، The History of Modern Whaling،، ترجمة: ر. إي. كريستوفرسون (بيركلي، كاليفورنيا، 1982)، الصفحات: 632.

cclxxiv فوريستل، 'Popular Culture and Literature'، الصفحة 961.

cclxxv ورد في تقرير اللجنة الدولية لصيد الحيتان، العدد الخاص 7، (1986)، الصفحة 59.

cclxxvi فارلي موات، A Whale for the Killing، (نيويورك، 1972)، الصفحات: 42-3.

cclxxvii شنايدر وبيرس، 'What Saved the Whales?'، الصفحات: 62-543.

cclxxviii جاك كوستو، The Silent World، (لندن 1953).

cclxxix بول إتش. فوريستل، Popular Culture and Literature', in Encyclopedia of Marine Mammals. تحقيق دبلو. ف. بيرين، ب. ورسيغ و ج.ج.م. ثويسين (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)، الصفحة: 964.

cclxxx ديفيد هيل، 'Vanishing Giants'، مجلة أودوبون، العدد 77، (1974) الصفحات: 1-24.

cclxxxi روجر باين، Among Whales، (نيويورك، 1995)، الصفحات: 8-177

cclxxxii جون ليلي، 'A Feeling of Weirdness', in Mind in the Waters: A Book to Celebrate the Consciousness of Whales and Dolphins، تحقيق جوان ماك إنتاير، (نيويورك، 1974)، الصفحات 7-71.

cclxxxiii جون ليلي، The Mind of the Dolphin: A Nonhuman Intelligence، (نيويورك، 1967)، أعيد طباعته باسم Lilly on Dolphins (نيويورك، 1975) الصفحة 291.

cclxxxiv فوريستل، 'Popular Culture and Literature'،، الصفحة: 962.

cclxxxi سيلفيا أ. ايارلي، Sea Change: A Message of the Oceans، (نيويورك، 1995) الصفحة: 112.

cclxxxvi ليز موري، Spermaceti', in Translations from the Natural World، (نيويورك، 1997)، الصفحات: 89-90.

cclxxxvii آمي كلامبيت، 'Or Consider Prometheus', in The Collected Poems of Amy Clampitt، (نيويورك، 1997)، الصفحات: 89-90.

cclxxxviii روجر س. باين وسكوت ماكفاي،، Songs of Humpback Whales', Science,173. (1971)، الصفحات: 585-97.

cclxxxix المرجع السابق.

ccxc باتريشيا م. جراي اي ال، Then Music of Nature and the Nature of Music', Science, 291, (2001)، الصفحات 52 – 4.

ccxci تشارلز م. سكامون، The Marine Mammals of the Northwestern Coast of North America, Together with an Account of the American Whale Fishery (1874)، (نيويورك، 1968)، الصفحة 45.

ccxcii هيرمان ميلفيل، موبي ديك (نيويورك، 1851) الفصل 32.

ccxciii فيليب ج. كلابهان، 'Humpback Whale', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات 589-92.

ccxciv ديفيد داي، The Whale War، (سان فرانسيسكو، كاليفورنيا، 1987)، الصفحة: 155.

ccxcv ستيفين مارتن، The Whale's Journey، (كرونست، أستراليا، 2001)، الصفحة 210.

ccxcvi كلاوس بارثيلميس، اتصالات شخصية.

ccxcvii آندرو روسو، ملاحظات جانبية إلى جورج كرمب، Voice of the Whale (لندن، 2002).

ccxcviii باين، Among Whales، الصفحة: 357.

ccxcix المرجع السابق.

ccc كريستوفر آش، Whaler's Eye، (نيويورك، 1962)، الصفحة 7.

ccci فيكتور ب. شيفير، The Year of the Whale، (نيويورك، 1991)، الصفحة: 445.

cccii فارلي موات، A Whale for the Killing، (نيويورك، 1972)، الصفحة: 223.

ccciii ورد في كتاب ريتشارد إيللز، Men and Whales، (نيويورك، 1991)، الصفحة: 445.

ccciv داي، Whale War، الصفحة 21.

cccv باين، Among Whales، الصفحة 21.

cccvi أصدقاء الارض، Whale Manual '78، (لندن، 1978)، الصفحة: 2

cccvii ج. ن. تونيسين و أ. أو. جونسون، The History of Modern Whaling، ترجمة: ر.إي. كريستوفيرسون (بيركلي، كاليفورنيا، 1982)، الصفحة: 638.

cccviii المرجع السابق، الصفحة: 676.

cccix إيللز، Men and Whales، الصفحة: 32.

cccx جيريمي شيرفاز، The Hunting of the Whale: A Tragedy That Must End، (لندن، 1988)، الصفحة: 137.

cccxi المرجع السابق، الصفحة: 137.

cccxii أصدقاء الأرض، Whale Manual '78، الصفحة: 33.

cccxiii المرجع السابق، الصفحة: 5.

cccxiv شيرفاز، Hunting of the Whale، الصفحة: 146.

cccxv داي، Whale War، الصفحة: 108.

cccxvi المرجع السابق، الصفحات: 106-7.

cccxvii المرجع السابق، الصفحة: 104

cccxviii تشانغ مين بين، 'Whaling in Korea and Issues after the Moratorium', Isana, 27, (2003)، الصفحات: 11-16.

cccxix إيرش، هويت، Whale Watching', in Encyclopedia of Marine Mammals، الصفحات: 1305-10.

cccxx إي. سي. م. بارسونز و سي. راولز، 'The Resumption of Whaling by Iceland and the Potential Negative Impact in the Icelandic Whale-Watching Market', Current Issues in Tourism, 6, (2003)، الصفحات: 444-8.

cccxxi فوريستل، 'Popular Culture and Literature'، الصفحات: 957-8

cccxxii كلاوس بارثيلميس، 'Cetacean Circuses and Mountebank Whales: The Commercial Exhibition of Whales from Clas-

sical Antiquity to the Present Day'، المؤتمر السنوي 28 لتاريخ صيد الحيتان: نيوبيدفور، ماساشوستس، 2003، (غير منشور)

cccxxiii جوناثان باتيس، Song of the Earth (كامبردج، ماساشوستس، 2002)، الصفحة: 40.

cccxxiv فوريستل، 'Popular Culture and Literature'، الصفحة: 971.

cccxxv موات، A Whale for the Killing، الصفحات: -200 1

cccxxvi ريتشارد إيللز، Monsters of the Sea (نيويورك، 1994)، الصفحة: 200.

cccxxvii راجع www.perp.com/whale.

cccxxviii هيرمان ميلفيل، موبي ديك، (نيويورك، 1851) الفصل 65.

cccxxix نانسي شوميكير، Whale Meat in American History', Environ- mental History. 10. (2005)، الصفحات: 94-269

cccxxx كلاوس بارثيلميس، اتصالات شخصية.

cccxxxi برينت س. ستيوارت و ستيفين ليذروود، Minke Whale: Balaenop- tera acutorostrata', in Handbook of Marine Mammals، تحقيق س. إتش. ريدجواي وآر. هاريسون (لندن، 1985)، الصفحات: 136-91.

cccxxxii ريتشارد إيللز، Whaling, Early and Aboriginal', in Encyclo- pedia of Marine Mammals، تحقيق: دبليو. ف. بيرنغ وب. وارسيغ و ج. ج. م. ثيويسين (سان دييغو، كاليفورنيا، 2002)، الصفحات: 16-1310.

cccxxxiii ج. ن. تونيسين و أ. أو. جونسون، The History of Modern Whaling، ترجمة: ر. آي. كريستوفرسن (بيركلي، ماساشوستس، 1982)، الصفحة: 129.

cccxxxiv شوميكير، 'Whale Meat in American History'.

cccxxxv آرين كالاند وبراين موران، Japanese Whaling: End of an Era? (لندن، 1992)، الصفحة: 155.

cccxxxvi صحيفة نيويورك تايمز، 15 آب 2000.

cccxxxvii صحيفة نيويورك تايمز، 4 حزيران 2002.

cccxxxvii المرجع السابق.

cccxxxix راندال ر. ريفز، The Origins and Character of "Aboriginal Subsistence" Whaling: A Global Review', Mammal Review, 32, (2002)، الصفحات: 71-106.

cccxl روبرت سوليفان، A Whale Hunt (نيويورك، 2000)، الصفحة: 15

cccxli غلين دبليو. شيهان، In the Belly of the Whale: Trade and War in Eskimo Society، (أنكوراج، ألاسكا، 1997).

cccxlii بيل هيس، The Gift of the Whale: The Iñupiat Bowhead Hunt, a Sacred Tradition، (سياتل، واشنطن، 1999)، الصفحة: 8.

cccxliii ستيفن أ. ماكلين، غلين دبليو. شيهان وآن م. جينسين، Inuit and Marine Mammals', in Encyclopedia of Marine Mammals،، الصفحات: 641-52.

cccxliv بيني بيترون، تحقيق: Northern Voices: Inuit Writing in English، (تورنتو، 1988)، الصفحة: 278.

cccxlv هيس، Gift of the Whale، الصفحة: 8

cccxlvi م. ج. ستيفنسون، 'The Anthropology of Community-Based Whaling in Greenland', Studies in Whaling, 4, (1997)، الصفحات: 3-15.

cccxlvii السجل الفيدرالي الأميركي (9 كانون الاول 2002، 67/236).

cccxlviii هيس، Gift of the Whale، الصفحة: 15.

cccxlix المرجع السابق.

cccl هيرمان ميلفيل، موبي ديك، (نيويورك، 1851)، الفصل 57.

cccli سكوت نوريس، Creatures of Culture: Making the Case for Cultural Systems in Whales and Dolphins', Bio Science, 52, (2002)، الصفحات: 9-14

ccclii هال وايتهيد، Sperm Whales: Social Evolution in the Ocean،

(شيكاغو، 2003)، الصفحة: 286.

cccliii المرجع السابق، الصفحة: 309.

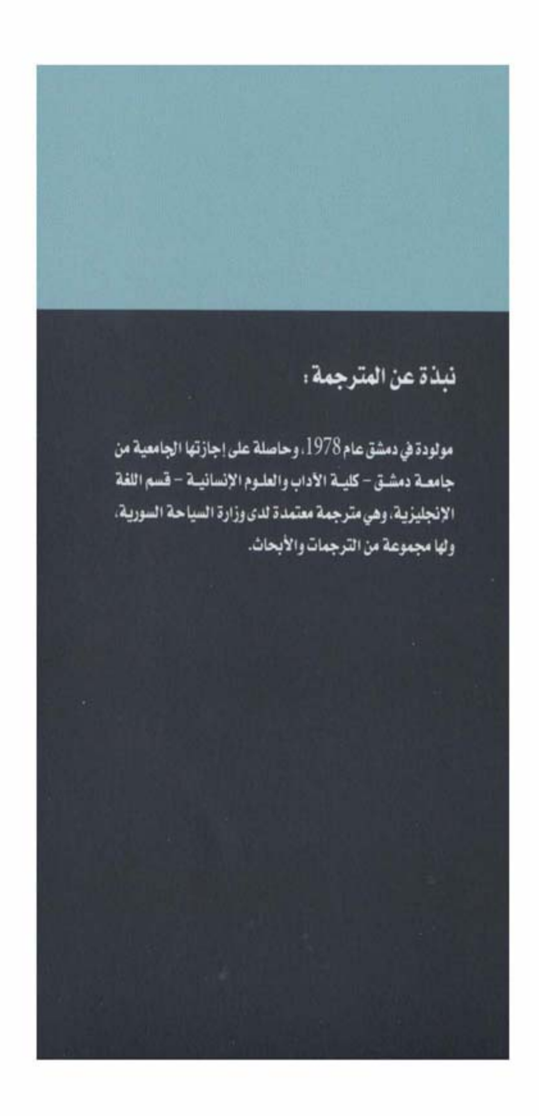
cccliv مايك نواد وآخرون، 'Cultural Revolution in Whale Song , Na-ture العدد 408 (2002)، الصفحة 537

ccclv سكوت باكر، اتصالات خاصة.

ccclvi إيليانور ويلنير، 'Reading the Bible Backwards', in Reversing the Spell (نيويورك، 1998)، الصفحات: 156-7.

نبذة عن المؤلف:

عـالم أحياء يعيش في فيرمونت، ولـه الكثير من الكتابـات في مجال علم الأحيـاء ودراسـات الحيتـان. ويهتـم بالأبحـاث المتعلقـة بالتنـوع البيولوجي، وخدمات النظام الإيكولوجـي والاجتياحات البيولوجية، وعلم الوراثة السكانية، والبيئة البحرية. وضمن منحته الجامعية التي تلقاهـا من الرابطة الأمريكية للنهوض بالعلوم (AAAS)، ساعد جو في خلـق برنامج تخصصي حول التنـوع البيولوجي، وصحـة الإنسان في وكالـة حماية البيئـة الأمريكية. ولد جو وترعـرع في نيويورك، وتلقى شهادتـه في الدكتوراه من جامعة هارفرد عام 2003 في العلوم العضوية وعلم النشوء والتطور عند الأحياء.


نبذة عن المترجمة:
مولودة في دمشق عام 1978، وحاصلة على إجازتها الجامعية من جامعة دمشق - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - قسم اللغة الإنجليزية، وهي مترجمة معتمدة لدى وزارة السياحة السورية، ولها مجموعة من الترجمات والأبحاث.

الحوت.. التاريخ الطبيعي والثقافي

يستكشف هذا الكتاب الدور الذي لعبته الحيتان في التاريخ، والخيال البشريين، وفي المحيطات نفسها. ويقوم على دراسة دور الحوت في التاريخ والأساطير والفن والأدب والتجارة والعلم البشري. وتمتد الصور التوضيحية المرفقة من أحافير العصر الحجري، مروراً برسومات العهد الفكتوري لصيد الحيتان، ووصولاً إلى أحدث الصور الملونة التي تم التقاطها تحت الماء.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
اطفال و ناشئة






9 789948 016816